

كتاب الفوائد

﴿ المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان ﴾

تأليف الامام الحجة شمس الدين أبي عبد الله محمد
المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي
المتوفى سنة ٧٥١ تغمده
الله برحمته آمين



عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هجرية ﴾

على نفقة

(محمد أمين الخانجي الكتبي وشركاه بمصر والاستانه)

(طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صلى الله على محمد وعلى آله وسلم ﴾

الحمد لله الذى كشف عن قلوب أهل العلم ظلمات الجهل المدلهمه وطهرها من أدناس الرين وأجناس الريب وملأها ايمانا وحكمه وأمدها بنور الالهام وضياء الافهام فعلمت علمه وأحكمت حكمه وجلا عن بصائرها غشاوة الغباوة فلم يرهقها قتر ولا ظلمه وخص هذه الأمة من ذلك بالقسم الأسنى والقدح الأعلى فلذلك كانوا خير أمه وفتح عليهم من حقائق العلوم وخوارق الفهوم ما لا رقت اليه من سواهم همه ولا تحركت اليه من أحد سواهم عزمه فنظروا فى علوم الأوائل فحرروها ضوابط وقسمه وتفردوا بفنون وفضائل لم تشم نسمة غيرهم منها طيب نسمه منها الفصاحة التى سلمت من الفهاهة والعجمه والبيان الذى مسماه قد أوضحه وأبان اسمه وعلم الأصول والفروع اللذان فيهما ضروب الحكمه وبدائع علوم الكتاب والسنة اللذين هما مسقط كل رحمه ومهبط كل نعمه الى غير ذلك من اللطائف العربيه وأوزان القريض الذى أجادوا نظمه ورصفوا رقمه وغرائب أساليب النثر الذى قوموا قدحه وسددوا سهمه فلذلك نصبهم الله هداة وجعلهم أئمة ﴿ أحمده ﴾ حمد من أكمل احسانه لديه وأتمه وأشكره شكر من خصه بألطافه وعمه وأصلى على نبيه الذى ضرب عليه سرادق الكفاية والعصمه وكسف به بدر الجهالة وكشف به عنا كل غمه صلى الله عليه وعلى آله الليوث فى كل محجمه والغيوث فى كل أزمه ورضى عن أصحابه

الغوث عند كل شدة واللامة عند كل ملمة ﴿ وبعد ﴾ فان الله تفضل على هذه الامة أن جعلهم عدولا خيارا وجعلهم شهداء فى أرضه شهداء على الناس يوم ترى الناس سكارى وبعث اليهم أقربهم اليه محبة وإيثارا وأعظمهم لديه شرفا ومقدارا وأنزل عليه كتابه المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وحسبهم بذلك علوا وفخارا وجعله نورا وسراطا مستقيما وحث على تعلمه وعلمه ليعم باحسانه ويؤتى من لدنه أجرا عظيما وأقامه حجة على من ضل ومحجة لمن اهتدى وأودعه حكمة وموعظة وهدى ونصبه دليلا على الحق لا يضعف ولا يهى وسبيلا يصدر عنه كل رشد واليه ينتهى وطريقا تجلى باسلاك نفائس الاعمال أهل سلوكها وبرهانا واضحا يزجرهم عن خلل انحلال عقائدهم وشكوكها وأودعه من الاعجاز ما لا يحصر بحصر حاصر ولا بعد عاد من الامر والنهى والوعد والوعيد والحكم والامثال والمواعظ وقصص القرون السالفة كأصحاب الرس وقوم عاد فكم فى لفظه من ايجاز يسفه حلم من يقول بلفظه وكم فى معناه مغن للجاد فى حفظه أبدعت فى أنواع البديع كلماته وأغربت فى أجناس التجنيس سوره وآياته ورمت أرباب الفصاحة بالجود والعى فصاحته وجزالته وأخرست ألسنتهم الذربة فأعيتهم معارضته وإزالته فأقروا له بعد تسفيه أحلامهم وتقريعهم وتعجيزهم بالحلاوة والطلاوه وعلموا أنه ليس من كلام البشر ولكن غلبت عليهم الشقاوه هذا مع أنهم لم يتدبروا أكثر معانيه بل قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه طلبوا الغلب وظنوا أنهم غالبون وأوسعوا الطلب فولوا وهم خائبون يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون أنزله بلسان العرب ليكون حجة عليهم ونسخ به جميع الكتب فكان انزاله أشد نازلة لديهم وجعل أعظم معجزاته دوام آياته متلوا بالالسنة باقيا مع بقاء الازمنة محفوظة فى الصدور منتقلة فى الصحائف والمصاحف من لدن الرسول محروسة من التبديل والتغيير والزيادة والنقصان والذهول قرآنا لا يسأم منه تاليه مع تكراره وتواليه ولا يمله واعيه بل تتوفر على توقيره دواعيه فى كل حين تظهر فيه من قضايا التنزيل وخفايا التأويل من نتائج أفكار الخلف غير

ما جادت به فطن السلف كل حرف منه تتفجر به ينابيع من الحكمه وكل كلمة تمطر منها سحائب الرضوان والرحمه وكل آية تحتوى على بحار من الاعجاز زواخر وكل سورة تكاد تنطق بعلوم الاوائل والاواخر لم نجد له فى الكتب السالفة نظيرا. ولم تمتد اليه كف معارض منازلا كان أو مُغيرا قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فما رام أحد معارضته الا عرضت له عوارض العى واللكن ولا قصد مباراته إلا رمى بهُجْر القول وان كان من أرباب اللسن وعوض من كلامه الفصيح باللفظ الركيك والمعنى القبيح قام إعجازه بتعجيزهم وتحققوا أنه ليس من تسجيعهم ولا ترجيزهم وصرفهم الإباء عن ترك دين آبائهم الى الدنية وصرفتهم الحمية حمية الجاهلية عجزوا عن الاتيان بسورة أو آيه وانتهوا من عنادهم فى التكذيب به الى غايه فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم وجعلهم لمن بعدهم آيه فهو الصراط المستقيم والذكر العظيم والكتاب الحكيم والنور المبين والحبل المتين والعروة الوثقى والآية العظمى وكلمات الله والذكرى والدرجة العليا وهو شفاء الغليل ودواء العليل والبرهان والدليل والبشير والنذير والبصائر والمثانى والقصص والتذكرة والأنباء والآيات المبصرة والحكم والبلاغ والتبصرة والبيان والتبيان والرحمة والبشرى والامان والروح والحديث والتنزيل والميزان وحق اليقين والنبأ العظيم والمحفوظ والكتاب الكريم والقول الفصل والهادى والناطق والحق والغيب والمكنون والقول الثقيل والحسرة والعجب والصحف المطهرة والكتب القيمة والخير والكتاب العزيز والكتاب لا ريب فيه والمحكم والمتشابه والعصمة والامام والأنس عند الوحشة والفزع والأمن عند الخوف والجزع والضياء يوم القتر والظلمه والكشف يوم الكرب والغمه من حكم به عدَل ومن عدل عنه هوت قدمه فزل ومن استعصم به عُصِمَ ومن استمطر منه الرحمة رحم

(ولما) كان جامعاً لهذه المعانى المتفرقة محتويا على بدائع المبانى المشيدة والفنون المتأنقة وضروب من المقاصد الخفية والجليه وانواع من خفايا أسرار العوالم العلوية والسفليه أنزله على خير رسول قلبه منبع الحكم وسمعه مقر صريف القلم وعقله

قد استوى على سوقه واستتم ولسانه عن الذلل والخطأ فى منعة وعِصَم وبصره وبصيرته عنهما ما اختفى هدىً ولا اكتتم فبلّغه مَن التبليغ مرامه وبين حلاله وحرامه وعينَّ فيه مراد الله من خلقه وأحكامه وعرّف فصه ونصه وأظهر عامّه وما خصه وأبدى ناسخه ومنسوخه ومحكمه وفهّم متشابهه ومبهمه وجلا غوامضه وخفاياه وأوضح قصصه وقضاياه وأظهر عن أمثاله التى ليست لها أمثال وأعلم بخفى إشاراته التى هى أدقّ من السحر الحلال وأرق من العذب الزلال وأنبأ بكنايته التى هى أجمل من التصريح وصرح بحقيقته التى تسبق اليها الاذهان من غير تعريض ولا تلويح وأوجز مجازه الذى بغير تدبر لا تجيزه العقول ولو شاء لجعله هو والحقيقة سيان الى غير ذلك من العلوم الظاهرة والفنون الباهرة (خلا) ما تضمنه من العلوم الباطنه والمعانى التى هى الى الآن فى كمائمها كامنه التى لم يُطلع الله عليها من خلقه أحدا والخفايا التى لم يُظهر عليها إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا فجزاه الله أحسن جزاء عنا وبلغه أفضل سلام منا وصلى الله عليه وعلى آله ما طلع نجم وبدا وما اخضلَّ نجم برذاذ ونَدا ورضى الله عن أصحابه ليوث غابه وغيوث سحابه

(فكتاب الله تعالى) أشرف ما صُرفت اليه الهمم وأعظم ما جال فيه فكر ومد به قلم لأنه منبع كل علم وحكمة ومربع كل هدىً ورحمة وهو أجلّ ما تنسك به المتنسكون وأقوى ما تمسك به المتمسكون من استمسك به فقد علقت يده بحبل متين ومن سلك سبيله فقد سار على طريق قويم وهدىَ الى صراط مستقيم

(وقد) أودع الله سبحانه ألفاظ هذا الكتاب العزيز من ضروب الفصاحة وأجناس البلاغة وأنواع الجزالة وفنون البيان وغوامض اللسان وحسن الترتيب والتركيب وعجيب السرد وغريب الأسلوب وعذوبة المساغ وحسن البلاغ وبهجة الرونق وطلاوة المنطق ما أذهل عقول العقلاء وأخرس ألسنة الفضلاء وألغى بلاغة البلغاء من العذب وطاشت به حلومهم وتلاشت دونه علومهم وكلت ألسنتهم الذربة وأقصرت خطبهم المسهبة وقصائدهم المغربة وأراجيزهم المعربة وأسجاعهم

المطربة فعلموا أن معارضته مما ليس فى مقدورهم ولا وسعهم ولا داخلا فى تقصيدهم ولاسجعهم وأن ذلك مسلوب ومصروف عن مفردهم وجمعهم وتركوا الطعن فيه عند تقصيد رماحهم وأذعنوا للاستماع له والعجز عنه بعد تأبيهم وجماحهم مع قدحه فى أربابهم وقدحه لأبائهم وتسفيهه لأحلامهم وتبطيله لأنصابهم وأزلامهم فأمسك ذووا الاحلام منهم عن اللغو فيه والاعتداء وأقبلوا على تدبره فهدى الله به من هدى ولم يقم على الطعن فيه وترك التدبر لمعانيه إلا من غلبت عليه الشقاوه وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوه فانتدبوا لمعارضته ومباراته ومماثلته ومجاراته فأوقعه غيه فى عيه ولكنه وسقط فى سقطات لسانه بعد بلاغته ولسنه وصار بعد أن كان فارس الفصاحة والبيان ومالك قصبات السبق فى الرهان يضحك من لفظه من سمعه ويحط من قدره من رفعه وذهبت من لفظه تلك الجزاله وأعظم الله من ضروب الجزاء والخذية الجزاءله كل ذلك ليظهر لنا عظم قدر كلامه العظيم وأى رونق وبهجة للمحدث اذا قرن بالقديم فمن جحد منهم انما فعل ذلك عناداً وحسداً لإبائه أن يقدم عليه أحدا

(روى) أن أبا جهل بن هشام هو والاخنس بن قيس والوليد بن المغيرة اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى به فى بيته الى أن أصبحوا فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا انه اذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا الى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به فلما كان فى الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة الى الاخنس بن قيس فقال ماتقول فيما سمعت من محمد فقال ماذا أقول قال بنو عبد المطلب فينا الحجابة قلنا نعم قالوا فينا السدانة قلنا نعم قالوا فينا السقاية قلنا نعم يقولون فينا نبى ينزل عليه الوحى والله لا آمنت به أبداً (وروى) أن الوليد بن المغيرة سمع من النبى صلى الله عليه وسلم (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) الآية فقال والله ان له حلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر (وقال أيضاً) لما اجتمعت قريش عند

حضور الموسم ان وفود العرب ترد فاجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضاً فقالوا نقول كاهن قال والله ماهو بكاهن ولاهو بزمزمته ولا سجعه قالوا مجنون قال ماهو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته قالوا فنقول شاعر فقال ما هو شاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه قالوا فنقول ساحر قال ماهو بساحر ولا نفثه ولا عقده قالوا فما نقول قال ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الا وانا أعرف انه لايصدق وان أقرب القول إنه ساحر وأنه سحر يفرق به بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس فأنزل الله تعالى فى الوليد (ذرنى ومن خلقت وحيداً) الآيات

(وانما) يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب فعرف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان ونظر فى أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها فى مواطن افتخارها ورسائلها وأراجيزها واسجاعها فعلم منها تلوين الخطاب ومعدوله وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبدائع البديع ومحاسن الحكم والامثال فاذا علم ذلك ونظر فى هذا الكتاب العزيز ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان فقد أوتى فيه العجب العجاب والقول الفصل اللباب والبلاغة الناصعة التى تحير الالباب وتغلق دونها الابواب فكان خطابه للعرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم ومجاراته لهم فى ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم وكلّت عن النطق بمثله السنة بلغائهم وبرز فى رونق الجمال والجلال فى أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال ولذلك يقع فى النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة مايملأ القلوب هيبة والنفوس خشية وتستلذه الاسماع وتميل اليه بالحنين الطباع سواء كانت فاهمة لمعانيه أوغير فاهمة عالمة بما يحتويه أو غير عالمة كافرة بما جاء به أومؤمنة .. وسنورد فى كتابنا هذا أصولا مؤصلة وفوائد مفصلة من علم البيان وماورد نظيره فى القرآن ماتقف عليه ويعجبك عند النظر اليه

(قال المصنف رضى الله عنه) وهذه الجملة التى تأصلت وتحصلت والفوائد التى بعد إجمالها فصلت نقلتها من كتب ذوى الأتقان علماء علم البيان التى وقفت عليها وترقت همة

اطلاعى اليها من كتب المتقدمين والمتأخرين وهى كتاب البديع لابن المعتز • وكتاب الحالى والعاطل للحاتمى • وكتاب المحاضرة له • وكتاب الصناعتين للعسكرى • وكتاب اللمع للعجمى • وكتاب المثل السائر لابن الأثير • وكتاب الجامع الكبير لابن الأثير أيضاً • وكتاب البديع لأسامة بن منقذ • وكتاب العمدة للزنجانى • وكتاب نظم القرآن له ايضاً • وكتاب نهاية التأميل فى كشف أسرار التنزيل لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصارى • وكتاب التفريع فى علم البديع لزكى الدين عبد العظيم بن أبى الاصبع • وكل كتاب من هذه الكتب أخذ من كتب شتى مع ما أضفت اليها من فوائد مستعذبة وفرائد حسنة المساق مستغربة نقلتها عن الأمة الاعلام الأكابر ونقلتها عنهم من السنتهم لا من بطون الدفاتر وما أضفت الى ذلك مما تفضل الله به ومنح من مهمل أبنته ومجمل فصلته وشارد قيدته وحصلته ليكمل بهذا الكتاب النفع ويأتى على نهاية من حسن الوصف وبديع الجمع واحياء لعلم البيان المطلع على نكت نظم القرآن الذى قد عفت آثاره وقلت أنصاره وتقاعدت الهمم عن تحصيله وضعفت العزائم عن معرفة فروعه فضلا عن أصوله فما علم من علوم الاسلامية رمى بالهجر والنسيان مارمى به علم البيان ولو أداموا النظر فيه والتامح لمعانيه لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تهش لها القلوب ودقائق تسفر لهم عن وجوه المطلوب ومن لم يعرف هذا العلم كان عن فهم معانى الكتاب العزيز بمعزل ولم يقم ببعض حقوق المنزَل والمنزِل ومن وقف على هذه الأصول التى أصلتها والفصول التى فصلتها ظهر له مصداق هذه الدعوى وأخذ من التوصل الى معرفة هذا العلم بالسبب الأقوى وحسن عنده موقعه وعظم فى نفسه محله وموضعه وخالطت قلبه بشاشة رونقه وجليت فى عينه نضارة نظائره وحسن مونقه

(وكلام العرب) فى خطبها وأشعارها ونثرها ونظامها منقسم الى ثلاثة أقسام ورد منها فى الكتاب العزيز قسمان وقسم لم يرد منه فيه شىء وسأبين ذلك ان شاء الله تعالى



القسم الأول

(وهو ينقسم الى أربعة وثمانين قسما)

....

(القسم الاول) فى الكلام على الفصاحة والبلاغة • والكلام عليهما من وجوه • الاول فى حدهما • الثانى فى اشتقاقهما • الثالث فى التفرقة بينهما

(أما الأول فى حدهما) فقد قال علماء هذا الشأن إنّ حدّ البلاغة بلوغ الرجل بعبارته كنه ما فى نفسه مع الاحتراز من الايجاز المخل والتطويل الممل •• وقال قوم البلاغة اتصال المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ •• وقيل البلاغة الايجاز مع الافهام والتصرف من غير اضجار •• قال خالد بن صفوان أبلغ الكلام ماقلّت ألفاظه وكثرت معانيه وخير الكلام ما شوّق أوله الى سماع آخره •• وقال غيره انما يستحق الكلام اسم البلاغة اذا سابق لفظُه معناه الى قلبك (وأما) الفصاحة فهى خلوص الكلام من التعقيد

(الثانى فى اشتقاقهما) قال علماء هذا الشأن إن اشتقاق البلاغة من البلوغ الى الشئ وهو الوصول اليه • ويجوز عندى أن يكون الكلام البليغ الذى بلغ من جودة الألفاظ وعذوبة المعانى الى غاية لا يبلغ الى مثلها إلا مثله (وأما) الفصاحة فقالوا اشتقاقها من الفصيح وهو اللبن الذى أخذت منه الرغوة وذهب لباؤه يقال فصح الرجل اذا صار كذلك وأفصحت الشاة اذا فَصُحَ لبنها

(الثالث فى الفرق بينهما) قال قوم من أرباب علم البيان الفصاحة والبلاغة متعاقبان على معنى واحد •• وقال قوم البلاغة فى المعانى والفصاحة فى الالفاظ • يقال معنىً بليغ ولفظ فصيح (وليست) الفصاحة والبلاغة مختصين بالالفاظ العربية وانما يطلقان على كل ما لفظه غريب وفهمه قريب (واذا) تقرر هذا فقد احتوى الكتاب العزيز

على جمل من ذلك أفرغت فى قالب الجمال وأترعت لها كؤوس الاحسان والإجمال وأتت على معظمها وأجلّها واستوفت نصاب مالكها لازمةً علم البيان وأدلّها وأنا أذكرها نوعا نوعا وقسما قسما محلا ببراهينه وشواهده سافراً عن نضارة وجوه نظائره وفوائده بعد استيفاء الكلام على الحقيقة والمجاز إذ الكلام لايخلو عنهما أو عن أحدهما

(فنبدأ) بالكلام على الحقيقة . والكلام فيها من ثلاثة أوجه . الأول اشتقاقها . الثانى حدها . الثالث أقسامها (أما الأول) فالحقيقة فعيلةٌ بمعنى مفعولة وفى اشتقاقها قولان . أحدهما أنها مشتقة من حقَّ الشيء يحققه اذا أثبته . والآخر أنها من حققت الشيء أحقه اذا كنت منه على يقين (وأما الثانى) فلها حدان . الاول فى المفردات . والثانى فى الجمل .. فأما حدها فى المفردات فهى كل كلمة أريد بها ما وقعت به فى وضع واضع وقوعا لا يُسند فيه الى غيره كالأسد للحيوان المخصوص المعروف .. الثانى حدها فى الجمل فهو كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه مثاله خلق الله العالم وأنشأ العالم ـ فأنشأ ـ واقعة موقع ـ خلق ـ (وأما الثالث) فأقسامها ثلاثة . حقيقةٌ لغوية . وحقيقة شرعية . وحقيقة عرفية .. وهى على قسمين عامة وخاصة . فالعامة كاستعمال لفظ الدابة فى الحمار وخاصة نحو استعمال لفظ الجوهر فى المتحيز الذى لا ينقسم

(وأما المجاز) فالكلام عليه أيضاً من خمسة أوجه . الأول فى المعنى الذى استعملت العرب المجاز من أجله . الثانى فى حدّه . الثالث فى اشتقاقه . الرابع فى علة النقل . الخامس فى أقسامه (أما الأول) فان المعنى الذى استعملت العرب المجاز من أجله ميلهم الى الاتساع فى الكلام وكثرة معانى الالفاظ ليكثر الالتذاذ بها فان كل معنىً للنفس به لذة ولها الى فهمه ارتياح وصبوة وكلما دقّ المعنى رقّ مشروبه عندها وراق فى الكلام انخراطه ولذ للقلب ارتشافه وعظم به اغتباطه ولهذا كان المجاز عندهم منهلا موروداً عذبَ الارتشاف وسبيلا مسلوكا لهم على سلوكه انعكاف ولذلك كثر فى كلامهم حتى صار أكثر استعمالا من الحقائق وخالط بشاشة قلوبهم حتى أتوا منه بكل معنىً رائق ولفظ فائق واشتدّ باعهم فى إصابة أغراضه فأتوا فيه بالخوارق

وزينوا به خطبهم وأشعارهم حتى صارت الحقائق دثارهم وصار شعارهم (وأما الثانى) فحدّه على قسمين . حدٌّ فى المفردات . وحدٌّ فى الجمل .. أما حده فى المفردات فهو كل كلمة أريد بها غير ما وُضعت له فى وضع واضعها .. وقيل حده استعمال اللفظ الحقيقى فيما وضع له دالا عليه ثانياً لتسويته علاقة بين مدلول الحقيقة والمجاز .. وأما حده فى الجمل فهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه بضرب من التأويل (وأما الثالث) فاشتقاقه من جاز الشيء يجوزه اذا تعداه وعدل عنه . فاللفظ اذا عدل به عما يوجبه أصل الوضع فهو مجاز على معنى أنهم جاوزوا به موضعه الأصلى أو جاوز هو مكانه الذى وضع فيه أوّلا (وأما الرابع) فالمعنى الذى وقع به النقل شيئان . أحدهما أن يكون المنقول عن معنىً وضع اللفظ بازائه أولا من غير مناسبة ولا علاقة كالاعلام المنقولة وبهذا يتميز عن المشترك . الثانى أن يكون ذلك النقل لمناسبة بينهما أو علاقة ولأجل ذلك لا توصف به الأعلام المنقولة لانها مجازات مثلُ تسمية الرجل بالحجر فانه ليس هذا النقل لتعلق بين حقيقة الحجر وبين ذلك الشخص وأما اذا تحقق الشرطان فانه يسمى مجازاً وذلك مثل تسمية النعمة أو القوة باليد لما بينهما من التعلق فان النعمة انما تعطى باليد والقوة انما تظهر بكمالها فى اليد .. ومن ذلك أيضاً تسمية المزادة بالراوية وهى اسم للبعير الذى يحمل عليه فى الاصل ومثل ما بين النبت والغيث والسماء والمطر حيث قالوا رعينا الغيث يريدون النبت الذى الغيث سبب نشوه عادة وقالوا أصابتنا السماء يريدون أصابنا المطر .. وقال قوم المجاز لا يصح الا بنسبة مع علاقة بين مدلول الحقيقة والمجاز وتلك النسبة متنوعة فاذا قوى التعلق بين محلى الحقيقة والمجاز فهو الظاهر الواضح واذا ضعف التعلق الى حدّ لم تستعمل العرب مثله ولا نظير له فى المجاز فهو مجاز التعقيد ولا يحمل عليه شيء فى الكتاب والسنة ولا يوجد مثله فى كلام فصيح . وقد تقع علاقة بين الضعيفة والقوية فمن العلماء من يتجوز بها لقربها بالنسبة الى العلاقة الضعيفة ومنهم من لا يتجوز بها لانحطاطها عن العلاقة القوية وهذا مذكور فى الكتب المختصة بأصول الفقه (الخامس) أقسامه وهى كثيرة . الأول مجاز التعبير بلفظ المتعلق به عن المتعلق وأقسامه كثيرة .. وقد انتهت عدة

ما احتوى عليه الكتاب العزيز الى أربعة وعشرين قسما (الاول) التجوز بلفظ العلم عن المعلوم كقوله تعالى «ولا يحيطون بشئ من علمه» أراد بشئ من معلومه . وكقوله تعالى « ذلك مبلغهم من العلم » أى من المعلوم . وكذلك قوله تعالى « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » أى المعلوم (الثانى) التجوز بلفظ المعلوم عن العلم وسيأتى بيانه وأمثلته (الثالث) التجوز بلفظ المقدور عن القدرة مثل قولهم رأينا قدرة الله أى مقدور الله . ومنه قوله تعالى «صُنعَ الله الذى أتقن كل شئ» أى مصنوعه (الرابع) التجوز بلفظ الارادة عن المراد كقوله تعالى « يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » والمعنى ويفرقون بين الله ورسله بدليل أنه قوبل بقولهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يقل ويريدون أن يفرقوا بين أحد منهم (الخامس) التجوز بلفظ المراد عن الارادة كقوله تعالى « وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط » معناه وان أردت الحكم فاحكم بينهم بالعدل وفيه مجاز من وجهين . أحدهما التعبير بالحكم عن ارادته . والآخر التعبير بالماضى عن المستقبل (السادس) اطلاق اسم الفعل على الجزء الأول منه وعلى الجزء الاخير منه ومثاله قوله تعالى « وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى » أراد بالرمى المنفى آخر أجزاء الرمى التى وصل التراب به الى أعينهم وبالرمى المثبت شروعه فى الرمى وأخذه فيه فيكون المعنى وما أوصلت التراب الى أعينهم اذ شرعت فى الرمى وأخذت فيه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم صلى بى جبريل عليه السلام الظهر حين زالت الشمس أى شرع فى الصلاة وأخذ فيها وصلى بى الظهر فى اليوم الثانى حين صار ظل الشئ مثله أراد بذلك آخر أجزاء الصلاة وهو السلام .. وهذا من مجاز التعبير بلفظ الكل عن البعض وكذلك نظائره ويصحح هذا ما بين الارادة والمراد من النسبة والتعلق ويجوز أن يكون المصحح كون المراد مسببا عن الارادة فيكون تجوزاً باسم المسبب عن السبب بخلاف التعبير بالمعلوم عن العلم فانه ليس مسبباً عنه ولا مؤثراً فيه (السابع) التجوز بلفظ الامل عن المأمول وذلك فى قوله تعالى « والباقيات الصالحاتُ خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً » أى وخير مأمولا (الثامن) التجوز بلفظ الوعد والوعيد عن الموعود من ثواب وعقاب وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « أفمن

وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه » ومثله « إنه كان وعده مأتيا » أى موعوده (التاسع) إطلاق العهد والعقد على الملتزم منهما وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقوله تعالى « وأوفوا بالعهد » وقوله تعالى « وأوفوا بعهدى » عبّر بهذه العهود كلها عن موجبها ومقتضاها وهو الذى التزم بها (العاشر) اطلاق اسم البشرى على المبشر به وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « بشراكم اليوم جناتٌ » وقال أبو على التقدير بشراكم اليوم دخول جنات أو خلود جنات لأن البشرى مصدر والجنات جرم فلا يخبر بالجرم عن المعنى وقال الشيخ الامام عز الدين بن عبد السلام لاحاجة الى هذا التعسف لأن البشرى ليست عين الدخول ولا عين الخلود كما انها ليست عين الجنات ولابد من تأويله على كلا القولين بما ذكرناه وإلا كان خلفاً لأن البشرى قول ولا يجوز أن يخبر عن القول بأنه جرم ولا بأنه دخول ولا خلود (الحادى عشر) اطلاق اسم القول على المقول فيه وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « قل لو كان معه آلهةٌ كما تقولون » ومنه قوله « سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا » أى عن مداول قولهم . ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » معناه وجب عليهم العذاب المقول فيه . ومنه قوله تعالى « فبرأه الله مما قالوا » أى من مقولهم وهو الأدرة (الثانى عشر) اطلاق اسم النبأ عن المنبأ عنه وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن » ومنه قوله تعالى « قل هو نبأ عظيم » وان أريد به القرآن فهو من باب اطلاق اسم البعض على الكل لأن القرآن كله ليس هو نبأ . ومنه قوله تعالى « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » (الثالث عشر) اطلاق الاسم على المسمى وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها » معناه ما تعبدون من دونه إلا المسميات . ومنه قوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى » أى سبح ربك الأعلى ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا اذا قرأوها قالوا سبحان ربى الأعلى . وقال عليه الصلاة والسلام اجعلوها فى سجودكم . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

ومن جعل الاسم هو المسمى فى قوله « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ » كان التقدير فيه أقرأ بالله أى بمعونته وبتوفيقه ومن جعله التسمية كان التقدير أتبرك بذكر اسم الله وبهذا يُرَد على من قدَّر ابتدائى أو بدأتُ باسم الله إذ لا وجه للتبريك على بعض الفعل دون سائره ولا لنسبة ابتداء الفعل الى التوفيق دون سائره لأن الحاجة داعيةٌ الى التبرُّك والتوفيق فى جميع الفعل دون انتهائه وابتدائه ﴿ الرابع عشر ﴾ اطلاق اسم الكلمة على المتكلم به ومنه فى القرآن كثير من ذلك قوله تعالى « ولا مبدل لكلمات الله » أى لا مبدل لعذاب الله أو لامبدل لمقتضى عذاب الله ومنهُ قوله تعالى « ان الله يبشرك بكلمة منه اسمهُ المسيح عيسى بن مريم » تجوز بالكلمة عن المسيح لكونه تكوَّن بها من غير أب بدليل قوله تعالى « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » ولا تتصفُ الكلمةُ بذلك وأما قوله اسمهُ المسيح فانَّ الضمير فيه عائدٌ الى مدلول الكلمة والمرادُ بالاسم المسمى فالمعنى المسمى المبشر به المسيح بن مريم ﴿ الخامس عشر ﴾ اطلاق اسم اليمين على المحلوف وهو فى القرآن فى موضعين أحدهما قوله تعالى « ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم » أى ولا تجعلوا قسم الله أو يمين الله مانعا لما تحلفون عليه من البر والتقوى بالصلاح بين الناس(١) ﴿ السادس عشر ﴾ اطلاق اسم الحكم على المحكوم به وذلك قوله تعالى « ان ربك يقضى بينهم بحكمه » أى بما يحكم به لكل واحد منهم من ثواب وعقاب فتجوز بالحكم عن متعلقه وهو المحكوم به وكذلك التعبير بلفظ القضاء عن المقضى به فى قوله صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من سوء القضاء أى من سوء ما قضيت به إذ لا تصح الاستعاذة من قضاء الله لانه صفة قديمة له لايمكن تبديلها ولا تغييرها ومثله « فاصبر لحكم ربك » أى فاصبر لما حكم به عليك وكذلك قول الداعى اللهم رضنى بقضائك أى بماقضيته لى أو علىَّ من غير معصية فان المعاصى مقضية أيضاً وقد أمرنا الله تعالى بكراهتها فنمتثل أمر الله تعالى فى كراهتها وان وقعت ﴿ السابع عشر ﴾ التجوز بلفظ العزم على المعزوم عليه وهو كثيرٌ فى القرآن ومنه قوله تعالى « ولمن

(١) سقط من الاصل ذكر الموضع الثانى

صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » أى ان ذلك الصبر والغفر مما يعزم عليه من الأمور ومنهُ قوله تعالى « ولا تعزموا عقدة النكاح » تجوز بالعزم عن المعزوم عليه لتعلقه به ومعناه ولا تعقدوا عقدة النكاح أو يكون التقدير ولا تعزموا على تنجيز عقدة النكاح ﴿ الثامن عشر ﴾ التجوز بلفظ الهوى عن المهوى وهو فى القرآن العظيم فى موضعين أحدهما قوله تعالى « ونهى النفس عن الهوى » معناه ونهى النفس عما تهواه من المعاصى ولا يصح نهيها عن هواها وهو ميلها لأنه تكليف ما لا يطاق الا ان تقدر حذف مضاف معناهُ ونهى النفس عن اتباع الهوى فيكون من مجاز الحذف . ومنهُ قوله تعالى « أرأيت من اتخذ إلههُ هواه » يحتمل أن يريد به بهواهُ لانهم كانوا يعبدون الصنم فان استحسنوا غيره عبدوه وتركوا الأول ويحتمل أن يكون المراد به مجاز التشبيه فان الانسان اذا طاوع هواه فيما يأتيه ويتركه فقد نزل الهوى منزلة المعبود المطاع ﴿ التاسع عشر ﴾ اطلاق اسم الخشية على المخشىّ وهو فى القرآن العزيز فى قوله تعالى « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون » معناه هم من عقوبة ربهم خائفون ﴿ العشرون ﴾ اطلاق اسم الحب على المحبوب وذلك قوله تعالى « انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » معناه أحببت محبوب الخير عن ذكر ربى ﴿ الحادى والعشرون ﴾ اطلاق اسم الظن على المظنون وهو فى القرآن العظيم فى موضعين . أحدهما قوله تعالى « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » معناه أى شئ مظنونهم أهو الهلاك أو النجاةُ . الثانى قوله تعالى « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا » معناه ذلك الخلق الباطل مظنون الذين كفروا . وأما قوله تعالى « اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن اثمٌ » فيجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره اجتنبوا كثيراً من اتباع الظن ان اتباع الظن ذنبٌ ويجوز أن يكون تجوز بالظن عن المظنون وهو أمرهُ باجتناب فعل وقع منهم ﴿ الثانى والعشرون ﴾ اطلاق اسم اليقين على المتيقن وهو فى القرآن العظيم فى موضعين . أحدهما قوله تعالى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » معناه واعبد ربك حتى يأتيك الموت المتيقن لكل أحد . ومنه قوله تعالى « وكنا نكذب بيوم الدين

حتى أتانا اليقين» معناه حتى أتانا الموت المتيقن لكل أحد (الثالث والعشرون) اطلاق اسم الشهوة على المشتهى وهو فى القرآن العظيم فى موضعين . أحدهما قوله تعالى « زين للناس حب الشهوات » أى حب المشتهيات بدليل أنه قال « من النساء والبنين » الثانى قوله « ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا » معناه ان الذين يشتهون الفاحشة فى أعراض الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والآخرة ولذلك أوجب عليهم فى الدنيا الحد وفى الآخرة العذاب ولا يتعلق الحد بمجرد حب الاشاعة (الرابع والعشرون) اطلاق اسم الحاجة على المحتاج اليه وهو فى القرآن العظيم كثير، فمن ذلك قوله تعالى « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شئ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها » معناه ما كان دخلوهم يدفع عنهم من قضاء الله وقدره شيئاً ولكن طلب حاجة فى نفس يعقوب قضاها ويحتمل ولكن حاجة فى نفس يعقوب قضى متعلقها لأن الحاجة الحقيقية التى هى الافتقاد لا تقضى وانما يقضى متعلقها الذى هو المحتاج اليه . ومنه « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » معناه ولا يجدون فى قلوبهم تمنى شىء يحتاجون اليه مما أعطيه المهاجرون .. وهذه الاقسام كلها من مجاز التعبير بلفظ المتعلق عن المتعلق به أو من مجاز التعبير بلفظ المتعلق به عن المتعلق ومصحح المجاز فيه ما بينهما من النسبة

﴿ القسم الثانى ﴾

اطلاق اسم السبب على المسبب وهو أربعة أقسام

(القسم الاول) قوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » سمى عقوبة الاعتداء اعتداء لانه المسبب عن الاعتداء . ومنه قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » تجوز بلفظ الجناية عن القصاص فانه مسبب عنها والتقدير جزاء جناية قبيحة عقوبة قبيحة مثلها فى القبح وان عبرت بالسيئة عما ساء أى أحزن لم يكن من هذا الباب لأن الاساءة تحزن فى الحقيقة كالجناية . ومنه قوله تعالى « ومكروا ومكر الله » تجوز

بلفظ المكر عن عقوبته لأنه سبب لها .. ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقياً لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم خفية وهذا متحقق من الله تعالى لاستدراجه اياهم بما أجرى عليهم من نعمه مع ما أعد لهم من نقمه (الثانى) اطلاق اسم الكتابة على الحفظ فان الكتابة سبب لحفظ المكتوب وهو فى القرآن العظيم فى موضعين . أحدهما قوله تعالى « سنكتب ما قالوا » أى سنحفظه ولا ننساه حتى نجازيهم به . والآخر قوله تعالى « سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء » أى نحفظه عليهم فان الملائكة قد كتبوا ذلك لما قالوا وقتلوا الانبياء فاستعمل اللفظ المستقبل فى حفظه دون كتابته (وأما) قوله تعالى « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » فانه تجوز بالكتابة عن الثبوت والدوام فان الكتابة مستمرة باقية فى العادة (وأما) قوله تعالى « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » ففيه مذهبان . أحدهما أنه من مجاز الحذف تقديره إن المنافقين يخادعون رسول الله والله خادعهم فيكون خداعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقياً . وأما خدع الله إياهم فيجوز أن يكون من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب ويجوز أن يكون من مجاز التشبيه معناه أنه عاملهم معاملة الخادع بما أخفاه عنهم من إرادة إضرارهم وإهلاكهم ويجوز أن يكون حقيقة بما ذكرناه فى المكر ويتأتى أن يكون مخادعتهم لله من مجاز التشبيه بمعنى أنهم يعاملونه معاملة المخادع ويكون خدعهم من مجاز المعاملة ويجوز أن يكون من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب فيكون من مجاز المجاز فان مخادعتهم مجازية تجوز بها عن شبهها وكان اطلاق اللفظ من مجاز التشبيه (الثالث) اطلاق اسم السمع على القبول وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « ما كانوا يستطيعون السمع » معناه ما كانوا يستطيعون قبول ذلك والعمل به لأن قبول الشئ مرتب على استماعه ومسبب عنه ويجوز أن يكون نفى السمع لانتفاء فائدته فيصير كقولهم أنهم لا ايمان لهم أى لا وفاء ايمان لهم .. ومنه قول الشاعر

وان حلفت لا ينقض النأى عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

معناه ليس لمخضوب البنان وفاء يمين (الرابع) اطلاق اسم الايمان على ما نشأ عنه من الطاعة وهو فى القرآن كثير . فمن ذلك قوله تعالى « وما كان الله ليضيع إيمانكم »

معناه ما كان الله ليضيع أجر صلاتكم الى الصخرة قبل النسخ • ومنه قوله تعالى « أفتؤمنون ببعضِ الكتابِ وتكفرُون ببعضٍ » معناه أفتعملون ببعض التوراة وهو فداء الأسارى فتجوّز بالايمان عن العمل بما يوافق الكتاب لأنه مسبب عن الايمان وتتركون العمل ببعض وهو قتل اخوانكم واخراجهم من ديارهم • ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الايمانُ بضعٌ وسبعونَ شُعبةً أعلاها قولُ لا إله إلا الله وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق . جعل القول واماطة الأذى عن الطريق ايمانا لأنهما مسببان عن الايمان

القسم الثالث

اطلاق اسم المسبب على السبب وهو ثمانية أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ اطلاق اسم العقوبة على الاساءة والجناية • ومنه قوله تعالى « وإن عاقبتمْ فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقِبتم به » معناه وان أردتم معاقبة مسيء فعاقبوه بمثل ما بدأكم به من الاساءة فقوله ــ وان عاقبتم ــ من مجاز التعبير بلفظ الفعل عن ارادته وقوله ــ بمثل ما عوقبتم به ــ من مجاز التعبير بلفظ المسبب عن السبب وقوله ــ فعاقبوا ــ حقيقةٌ اكتنفها المجازان • وكذلك قوله « ذلكَ ومَن عاقَبَ بمثلِ ما عُوقِبَ به ثم بُغيَ عليه لينصُرَنهُ اللهُ » فعاقب حقيقةٌ وعوقب به من مجاز تسمية السبب باسم المسبب • ومن هذا النوع قول العرب كما تَدينْ تُدانُ معناه كما تفعل تجزى لأن الدين هو الجزاء فتجوّز به عن الجناية لأنه مسببٌ عنها •• وكذلك قول الشاعر

ولم يَبْقَ سِوى العُدْوَا ... نِ دِنّاهم كما دانوا

معناه جزيناهم بما فعلوا فدناهم حقيقةٌ ودانوا مجاز ﴿ القسم الثانى ﴾ اطلاق الأكل على الأخذ لمّا كان الأكل مسبباً عن الأخذ • ومنه قوله تعالى « ولاتأكلوا أموالَكم بينَكم بالباطل » معناه لا تأخذوا أموالكم بالسبب الباطل كالقمار ونحوه ﴿القسم الثالث﴾ اطلاق اسم الغلبة على المقاتلة التى هى مسببٌ عنها • ومنه قوله تعالى « إن يكنْ منكم

عشرون صابرون يَغلِبوا مِائتينِ » عبر بلفظ الغلبة عن المقاتلة لأن الغلبة مسببة عن المقاتلة ﴿ الرابع ﴾ اطلاق اسم الرجز على عبادة الأصنام • ومنه قوله تعالى « والرِّجزَ فاهجُرْ » تجوّز بالرجز وهو العذاب الشديد عن عبادة الأصنام لأن العذاب مسبب عنها ﴿ وأما ﴾ قوله تعالى « ويُذهبَ عنكم رِجزَ الشيطانِ » فهو من مجاز التعبير بلفظ المسبب عن سبب سببه لأن وساوس الشيطان سبب لمعصية الرحمن ومعصية الرحمن سبب لعذاب الديان فبان أن الوسوسة سبب للمعصية والمعصية سبب للعذاب ويجوز أن تجعل الوسوسة نفسها رِجزاً لمشقتها على أهل الايمان وكلما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز •• قال أبو عبيد الرجز والرجس هما العذاب الشديد • وكذلك ما أشبهه ﴿ الخامس ﴾ اطلاق اسم المغفرة على التوبة • ومنه قوله تعالى « واللهُ يدعو الى الجنة والمغفرةِ باذنهِ » تجوّز باسم المغفرة عن التوبة ﴿ السادس ﴾ اطلاق اسم الكبرياء على المُلك لأنها مسببةٌ عن الملك • ومنه قوله تعالى « وتكونَ لكُما الكبرياءُ فى الأرض • ﴿ السابع ﴾ اطلاق اسم القوة على السلاح لأن القوّة على القتال تكون عنها • ومنه قوله تعالى « وأعِدُّوا لهمْ ما استطعتم مِن قوَّةٍ » لأن القوة على قتالهم مسببة عن الأسلحة فسماها باسم مسببها أو يكون ذلك من مجاز الحذف تقديره وأعدوا لهم ما استطعتم من أسباب قوة أو من أدوات قوة ﴿ الثامن ﴾ اطلاق اسم الاعطاء والإيتاء على الالتزام فمن ذلك قوله تعالى « فلا جُناحَ عليكمْ اذا سَلَّمتمْ ما آتيتمْ بالمعروف » معناه اذا سلمتم ما التزمتموه بالمعروف لمّا كان التسليم مسبباً عن الالتزام عُبر به عنه • ومن ذلك قوله تعالى « ولا جُناحَ عليكم أنْ تنكِحوهنَّ اذا آتيتمُوهنَّ أُجورَهنَّ » أى اذا التزمتم لهن مهورهن •• ويحتمل أن يكون من مجاز الحذف تقديره اذا آتيتم أهلهن مهورهن ولا يدلّ قوله فانكحوهن باذن أهلهن على صحة النكاح بغير ولىّ لأنه لم يذكر المأذون له ويجوز أن يكون المراد الوكيل ويجوز ويحتمل أن تكون المرأة وحمله على الوكيل أولى لأن الغالب فى الأنكحة أنه يتولى ذلك الرجال دون النساء فيجب الحمل على الغالب لأن مباشرة المرأة النكاح فى غاية الندور فلا يجوز حمل الكلام عليه اذ لا يوجد لمثل هذا نظير فى كلام العرب من أنهم أرادوا بيان شئ والارشاد الى مصلحة فيبنوره بأند

أحواله مع الاستغناء عنه ويهملوا الأغلب مع مسيس الحاجة اليه

القسم الرابع

اطلاق اسم الفعل على غير فاعله لمّا كان سبباً له وهو أربعة أقسام

(الأول) نسبة الفعل الى من كان سبباً له . من ذلك قوله تعالى « قل هو من عند أنفسكم» وهو من عند الله على الحقيقة ولكنه نسب ما أصابهم من قتل اخوتهم الى سيبه . ومنه قوله تعالى « فلأنفسهم يَمْهَدُون » والماهد هو الله على الحقيقة ولكنه نسب اليهم تمهيد المرقد لتسببهم اليه بالعمل الصالح (الثانى) اطلاق نسبة الفعل على سبب سببه وهو فى القرآن كثير . ومنه قوله تعالى « ربَّنا مَن قدَّمَ لنا هذا فزِدْهُ عذاباً ضِعفاً فى النار » نسبوا صُلِيّ النار الى سبب سببه لأن الكبراء أمروهم وهم امتثلوه والمقدّم على الحقيقة هو الله تعالى وسبب كفرهم أمر رؤسائهم اياهم بالكفر . ومنه « فأخرجهما مما كانا فيه » ومنه قوله تعالى « كما أخرجَ أبويكم منَ الجنة » ، ومنه « فلا يُخرجنَّكما منَ الجنة فتشقى » المخرج والنازع على الحقيقة هو الله تعالى (الثالث) نسبة الفعل الى الآمر به وهو فى القرآن كثير . منه قوله تعالى « والسارق والسارقةُ فاقطعوا أيديهما » ومنه « الزانيةُ والزانى فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما » ومنه قوله تعالى « فاجلدوهم ثمانين جَلدةً » فان كان هذا أمراً للوُلاة فهو أمرٌ بالأمر باقامة الحدود وان كان أمراً لمستوفى الحقوق أو مباشرها فهو حقيقة (فأما) قوله رَجَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً والغامدية . وقوله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها . فكل ذلك من باب نسبة الفعل الى الآمر به . ومن ذلك قوله تعالى « ونادَى فِرعونُ فى قومه » أى أمر من ينادى فى قومه (الرابع) نسبة الفعل الى الآذن فيه وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً » الآخذ على الحقيقة هو الولىّ والمرأة الآذنة فيه وهذا أخذ مجازى

ونسبته اليهن مجازية أيضاً كما ذكرناه .. وقد اختلف فى الميثاق فقيل انه العقد وقيل انه قول الولىّ زوّجتك على ما أمر الله به من إمساك بمعروف أو تسريح باحسان . ومنه قوله تعالى « فلا تعضُلوهنّ أن يَنكِحنَ أزواجهنّ» وقوله تعالى « فان طلّقها فلا تحلُّ له من بعدُ حتى تنكحَ زوجاً غيرَهُ » نسب النكاح اليهن لاذنهن فيه وهذا على قول من قال ان المرأة العاقلة البالغة الثيب لا تنكح نفسها . وأما على قول من قال انها تنكح نفسها فهو حقيقة فيهن مجاز فيما سواهن

القسم الخامس

الاخبار عن الجماعة بما يتعلق ببعضهم وفى خطابهم بما يتعلق ببعضهم وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « ثم اتخذتمُ العجلَ من بعده وأنتم ظالمون » معناه ثم اتخذ العجل بعض أسلافكم فان جميع الخلف والسلف لم يتخذوا العجل إلهاً وانما وُجِد من بعضهم فصار هذا كقول امرئ القيس

فانْ تقتلونا نُقتّلكمْ وإنْ ... تقصدوا لِدَمٍ نقصدِ

معناه فان قتلتم بعضنا نقتّلكم إذ لا يتصوّر أن يقتلوهم بعد استيعاب جميعهم بالقتل وهذا الباب كله من مجاز الحذف وله قاعدة يتفرع عليها وهى ان كان البعض واحداً كان التقدير وإذ فعل أحدكم . ومثاله قوله تعالى « وإذ قتلتم نفساً » وان كان البعض أكثر من واحد كان التقدير واذ فعل بعضكم . ومثاله قوله تعالى « وإذْ قلتمْ يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى اللهَ جهرةً » وكان القائلون لذلك سبعين ومن زعم أنه نسب الفعل اليهم لانهم رضوا به لا يستقيم قوله لأنا نعلم أنهم لم يتفقوا على الرضى فى قتل النفس ولا باتخاذ العجل ولا بقولهم — لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة — ولا بقولهم « لن نصبرَ على طعام واحدٍ » وأيضاً فان نسبة الفعل الى الراضى به مجاز والى فاعله حقيقة فاذا حمل — على — عليهما كان حملا على حقيقة غالبة ومجاز مغلوب وذلك لا يجوز

القسم السادس

اطلاق اسم البعض على الكل وهو سبعة عشر قسما

(الأول) التعبير بالقيام عن الصلاة . ومن ذلك قوله تعالى « قم الليلَ إلا قليلا » أى صلّ الليل إلا قليلا . وقوله تعالى « لا تقمْ فيه أبداً » أى لا تصلّ فيه أبداً (الثانى) التعبير بالركوع عن الصلاة وهو فى قوله تعالى « واركعى مع الراكعين » أى صلى مع المصلين . وقوله تعالى « واذا قيلَ لهمُ اركعوا لا يَرْكعون » أى واذا قيل لهم صلوا لا يصلون (الثالث) التعبير عنها بالسجود . وذلك فى قوله تعالى « ومن الليلِ فاسجد له » أى فصلّ له . ومنه قوله تعالى « فاذا سَجدُوا فليكونوا مِن وَرائكم » أى فاذا صلوا فليكونوا من ورائكم . ومنه قوله تعالى « يَتلون آياتِ اللهِ آناءَ الليلِ وهمْ يسجدون » أى وهم يصلون لأن التلاوة منهىٌّ عنها فى السجود الحقيقى فلا يصح المدح فيما نهى عنه (الرابع) التعبير عنها بالقراءة فى قوله تعالى « وقرآن الفجر » وفى قوله « فاقرَأوا ما تيسرَ من القرآنِ » (الخامس) التعبير عنها بالتسبيح فى قوله « وسبّحهُ ليلاً طويلاً » وفى قوله « وسبّحْ بحمد ربّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ الغروبِ » وفى قوله « وَسبّحوهُ بُكرَةً وأصيلاً » وأمثاله فى القرآن كثير (السادس) التعبير عنها بالذكر فى قوله « واذكُرِ اسمَ ربك بُكرَةً وأصيلاً » وفى قوله « فاذا أمِنتمْ فاذكرُوا اللهَ كما علّمكمْ ما لم تكونوا تعلمون » معناه فاذا أمنتم فصلوا لله (السابع) التعبير عنها بالاستغفار فى قوله « وهم يستغفرون » وحمله بعضهم على الحقيقة (الثامن) التعبير بالذقن عن الوجه فى قوله تعالى « يخرُّون للاذقان سُجداً » وفى قوله « يخرُّون للأذقانِ يبكون » أى للوجوه (التاسع) التعبير بالأنف عن الوجه فى قوله تعالى « سَنسِمُهُ على الخرطوم » (العاشر) التعبير بالرقبة عن الجملة فى قوله تعالى « فتحريرُ رَقبةٍ » وفى قوله « وفى الرّقابِ » وفى قوله « فظلّتْ أعناقهم لها خاضعين » فان هذه الأفعال لا تختصّ بالرقاب بل تعمّ الأجساد وكذلك ما أشبهه

(الحادى عشر) التعبير باليدين عن الجملة وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « ذلك بما قدّمتْ يَداك » (الثانى عشر) التعبير باليمين عن الجملة . ومنه قوله تعالى « لأخذنا منه باليمين » (الثالث عشر) التعبير بالعضد عن الجملة فى قوله تعالى « سنشدّ عضُدَك باخيك » (الرابع عشر) التعبير بالأصابع عن الكف والارجل كقوله تعالى « فاضربوا منهم فوقَ الأعناق واضربوا منهم كلَّ بنان » (الخامس عشر) التعبير بالوجه عن الجسد . ومنه قوله عز وجل « وُجوهٌ يومئذٍ ناضرَةٌ الى ربها ناظرة » ومنه قوله تعالى « وُجوهٌ يومئذٍ عاملةٌ ناصبةٌ تَصلى ناراً حاميةً » عبر بالوجوه عن الأجساد لان العمل والنصب صفتان للأجساد (السادس عشر) التعبير بالمسجد الحرام عن الحرم كله فى قوله تعالى « انما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرامَ بعد عامهم هذا . (ويجوز) أن يكون من مجاز الحذف تقديره فلا يقربوا حرم المسجد الحرام (السابع عشر) التعبير بمكة عن الحرم كله فى قوله عليه الصلاة والسلام ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض لا يُنفَّرُ صيدها ولا يعضد شجرها . ومعلوم أن البلد نفسه لا صيد فيه مباح ولا شجر أيضاً (وأما) قوله تعالى « ثم محلها » فانه تجوّز بالبيت العتيق عن الحرم كله إذ لا يجوز النحر فيما أتصل بالبيت من المسجد المحيط (ويجوز) أن يكون من مجاز الحذف تقديره ثم محلها الى حرم البيت العتيق

القسم السابع

اطلاق اسم الكل على البعض وهو أحد عشر قسماً

(الأول) قوله تعالى « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » ومعلومٌ انه لم يرحلتهم وانما دائر وجوههم وما يبدأ منهم (الثانى) قوله تعالى « فأجلدوهم ثمانين جلدة » (الثالث) قوله تعالى « فأمسحوا برؤسكم » على قول من قال استيعاب مسح الرأس ليس بواجب (الرابع) قوله تعالى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » وانما جعلوا بعض أناملهم (الخامس)

قوله تعالى «ادخلوا مصر» ومعلومٌ انهم لم يستوعبوها (السادس) قولهم «خرجت من المسجد» ومثله فى القرآن كثير (السابع) وصف البعض بوصف الكل وهو فى قوله تعالى «يعلم خائنة الأعين» (الثامن) قوله تعالى «لنسفعنْ بالناصية ناصية كاذبة خاطئة» الخطأ صفة للكل فوصفت به الناصية (وأما) قوله كاذبة فالكاذب على الحقيقة هو اللسان ونسبة الكذب الى الانسان من مجاز وصفه بصفة بعضه وتجوز عن هذا المجاز بان وصفت به الناصية فيكون مجازاً عن مجاز (التاسع) نسبة الظن الى الوجوه فى قوله تعالى «تظن أن يُفعل بها فاقرة» فإن الظن وصفٌ للقلوب على الحقيقة ويضاف الى الأجساد على التجوز فيكون مجازاً عن مجاز (العاشر) وصف الوجوه بالخشوع فان محل الخشوع القلوب ثم توصف به الجملة ثم توصف الوجوه بصفة الجملة (الحادى عشر) وصفها بالرضى فى قوله تعالى «لسعيها راضيةٌ» وصف لها بصفة القلوب وهذا كله من مجاز القلوب

....

القسم الثامن

فى التجوز بوصف الكل بصفة البعض وهو أربعة أقسام

(الأول) من ذلك قوله تعالى «انا منكم وجلون» والوجل الخوف ومحله القلب ويدل عليه قوله تعالى «وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم» (الثانى) قوله تعالى «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً» والرعب انما يملأ القلوب فنسب الى الأجساد ووصف القلوب بالامتلاء مجازٌ أيضاً (الثالث) قولك زيدٌ عالمٌ وجاهلٌ وراغبٌ وخائفٌ وآمنٌ ومتفكرٌ وشاكٌ ومتذكرٌ وعاقلٌ ولينٌ وقاسٍ وقانعٌ فهذه كلها من أوصاف القلوب وقد وصفت بها الجملة (الرابع) قوله تعالى «كتاب فصلت آياته قرآناً عربيا لقوم يعقلون بشيراً ونذيراً» وصف القرآن بالبشارة والنذارة وكلاهما بعض من أبعاضه لاشتماله على الأمر والنهى والحدود والحلال والحرام وسائر الأحكام ونسبة البشارة والنذارة اليه مجازية أيضاً

القسم التاسع

اطلاق اسم الفعل على مقاربه ومساوقه وهو قسمان

(الأول) قوله تعالى «واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف» معناه واذا طلقتم النساء فقاربن انقضاء عدتهن وشارفنه فأمسكوهن بمعروف (الثانى) قوله تعالى «والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً» معناه والذين يقاربون الوفاة وترك الأزواج ويشارفونها .. وكذلك ما أشبهه



القسم العاشر

اطلاق اسم الشئ على ما كان عليه وهو قسمان

(الأول) من ذلك قوله تعالى «وآتوا اليتامى أموالهم» معناه الذين كانوا يتامى إذ لا يُتم بعد البلوغ (الثانى) قوله تعالى «ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن» معناه الذين كانوا أزواجهن لانها نزلت فى معقل بن يسار وأخته لما حلف أنه لا يزوجها من زوجها عبدالله بن رواحة

القسم الحادى عشر

اطلاق اسم الشئ بما يؤول اليه وهو قسمان

(الأول) من ذلك قوله تعالى «كتب عليكم القصاص فى القتلى» أى فيمن يقتل من القتلى (الثانى) قوله تعالى «انى أرانى أعصر خمراً» أى أعصر عنباً .. ومن ذلك قوله تعالى «ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً»

القسم الثانى عشر

اطلاق اسم المتوهم على المحقق وهو خمسة أقسام

(الأول) من ذلك قوله تعالى «يرونهم مثليهم رأى العين» أى فى ظنكم وحسبانكم (والثانى) قوله تعالى «وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون» أى فى ظن الناظر اليهم وحسبانه (الثالث) قوله تعالى «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم» ولم يصر كالعرجون القديم الا فى الحسبان والظن ورأى العين . . وكذلك تقديره منازل انما هى منازل من رأى العين فان القمر فى الفلك الأول والمنازل فى الفلك الثامن ولا يتصور نزوله فى شئ منها وانما يقع ذلك فى نظر الناظرين وحسبان الظانين (الرابع) قوله تعالى «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» أى يسبحون فى رأى العين فان الناظر الى الفلك يعتقده ساكناً والكواكب جارية فيه وليس كذلك (الخامس) قوله تعالى «فكان قاب قوسين أو أدنى» أى كان قاب قوسين أو أدنى فى ظن رائيه وحسبانه

القسم الثالث عشر

اطلاق اسم الشئ على الشئ الذى يظنه المعتقد والأمر على خلافه وهو ستة أقسام

(الأول) من ذلك قوله تعالى «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً» ذكر ذلك بالنسبة الى ظنهم وزعمهم إذ ليس له ضدٌّ ولا ندٌّ (الثانى) قوله تعالى «أين شركائى» وليس هذا اثباتاً للشركاء بل هو يتنزل على قول الخصم معناه أين شركائى بزعمكم وقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه «من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته لشريكى» معناه تركته لشريكى بزعمه (الثالث) قوله تعالى «ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون»

لم يقرّ فرعون برسالة موسى عليه السلام بل المعنى بزعمه أنه رسول (الرابع) قوله عز وجل «يا أيها الذى نزّل عليه الذّكرُ إنك لمجنون» ليس هذا إقراراً بتنزيل الذكر وانما المعنى يا أيها الذى نزل عليه الذكر بزعمه (الخامس) قوله تعالى[1]

القسم الرابع عشر

التضمين وهو أن يُضمن اسما معنى اسمٍ لافادة معنى الاسمين فتعديه تعديته فى بعض المواطن وهو أربعة أقسام

(الأول) قوله تعالى «حقيقٌ علىَّ أنْ لا أقولَ على اللهِ إلا الحقَّ» ضُمن حقيقاً معنى حريصٍ ليفيد أنه محقوق يقول الحق وحريص عليه (الثانى) من التضمين أيضاً أن تُضمّن فعلاً معنى فعلٍ آخر لافادة معنى الفعلين وتعدّيه أيضاً تعديته فى بعض المواطن وهو فى القرآن كثير . منه قوله تعالى «لا تُشرِكْ بى شيئاً» ضمن لا تشرك معنى لا تعدل ـ والعدل ـ التسوية أى لا تسوى بالله شيئاً فى العبادة والمحبة فانهم عبدوا الأصنام كعبادة الله وحبُّوها كحب الله ولذلك قال الذين فى النار «تالله إن كنا لفى ضلال مبينٍ إذْ نُسوّيكم بربّ العالمين» وما سوَّوْهم به الا فى العبادة والمحبة دون أوصاف الكمال ونعوت الجمال والجلال (الثالث) قوله عز وجل «إن كادَتْ لَتُبدِى به لولا أن رَبَطْنا على قلبها» ضمن لتبدى به معنى لتخبر به أو لتعلم ليفيد الاظهار معنى الاخبار لأن الخبر قد يقع سراً غير ظاهر (الرابع) قوله تعالى «عيناً يَشرَبُ بها عبادُ اللهِ» ضمن يشرب معنى يروى أو معنى يلتذ ليفيد الشرب والرىّ أو الشرب والالتذاذ جميعاً

---

(١) سقط من الاصل ذكر الآية والقسم السادس

القسم الخامس عشر

في مجاز اللزوم وهو ثمانية تحت كل قسم أقسام قد بيناها فيه

(الأول) التعبير بالاذن عن المشيئة لأن الغالب أن الاذن في الشيء لا يقع الا بمشيئة الآذن واختياره الملازمة الغالبة مصححة للمجاز . ومن ذلك قوله تعالى « وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا باذنِ اللهِ » أي إلا بمشيئة الله .. ويجوز أن يراد في هذا بالاذن أمر التكوين والمعنى وما كان لنفس أن تموت الا بقول الله موتي . ونظيره « فقال لهم اللهُ موتوا ثم أحياهم » فحذف تقديره فقال لهم الله موتوا فماتوا لدلالة قوله ـ ثم أحياهم ـ عليه . ومثله « وما كان لِنفسٍ أن تؤمنَ إلا باذنِ اللهِ » ومنه « وأُبرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ وأُحيِي الموتى باذن اللهِ » أي بمشيئة الله أو بأمر التكوين فان ملازمة المشيئة للأمر غالباً كملازمة مشيئة المريد غالباً (الثاني) التعبير بالاذن عن التيسير والتسهيل وهو في قوله تعالى « واللهُ يدعو الى الجنةِ والمغفرةِ باذنهِ » أي بتسهيله وتيسيره اذ لا يحسن أن يقال دعوته باذني ولا قمت وقعدت باذني هذا قول الزمخشري .. ويجوز أن يراد بالاذن ههنا الأمر أي يدعوكم الى الجنة والمغفرة بأمره (الثالث) تسمية المسافر بابن السبيل . وذلك في قوله تعالى « وابن السبيل » لملازمته السبيل وهو الطريق كما يلازم الولد أمه . ومنه قيل للطير ابن الماء لملازمته الماء (الرابع) نفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته للزومها عنه غالباً في مثل قوله تعالى « كيف يكونُ للمشركين عهد » أي وفاء عهد وإتمامُ عهد فنفى العهد لانتفاء ثمرته وهو الوفاء والاتمامُ . ومنه قوله تعالى « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم » نفى الايمان بعد اثباتها لانتفاء ثمرتها وفائدتها وهو البر والوفاء .. ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديرهُ انهم لا وفاء أيمان لهم (الخامس) اطلاق اسم الريب على الشك لملازمة الشك القلق والاضطراب فان حقيقة الريب قلق النفس بدليل قوله « نتربص بكم ريبَ المنون » أي مقلقات الدهور . وبدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الظبي الحاقف لا يريبه أحد وقوله صلى الله عليه وسلم ان فاطمة بضعة

مني يريبني ما يريبها .. ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي

* أمنَ المنونِ وريبِها تتوجعُ *

(السادس) التعبير بالمسافحة عن الزنا لان السفح صب المنيّ وهو ملازم للجماع غالباً لكنه خص بالزناء إذ لا غرض فيه سوى صبِّ المني بخلاف النكاح فان مقصوده الولد والتعاضدُ والتناصر بالأختان والأصهار والاولاد والأحفاد . ومثالهُ قوله تعالى « محصنين غير مسافحين » أي غير مزانين . وقوله تعالى « محصنات غير مسافحات » أي غير مزانيات (السابع) اطلاق اسم المحل على الحالّ فيه لما بينهما من الملازمة الغالبة كالتعبير باليد عن القدرة والاستيلاء وبالعين عن الادراك وبالصدر عن القلب وبالقلب عن العقل وبالافواه عن الألسن وبالألسن عن اللغات وبالقرية عن قاطنيها وبالساحة عن نازليها وبالنادي والنديّ عن أهلها وبالغائط وهو المكان المنخفض عما يخرج من الانسان لأنهم كانوا في الغالب يقضون الحاجة في الأماكن المنخفضة تستراً عن الناس (أما) التعبير باليد عن القدرة فهو في القرآن كثير من ذلك قوله تعالى « يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى » وقوله تعالى « تبارك الذي بيده الملك » وأما التعبير بالعين عن الادراك فهو في قوله تعالى « أم لهم أعين يُبصرون بها » أي يبصرون بادراكها أو بنورها (وأما) التعبير بالصدر عن القلب فهو في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « فلا يكن في صدرك حرج منه » أي في قلبك . ومنه قوله تعالى « وما تخفي صدورهم أكبر » (وأما) بالقلب عن العقل فهو في القرآن في موضعين . أحدهما قوله تعالى « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » والثاني في قوله تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها » أي لهم عقولٌ لا يفقهون بها .. ويجوز أن يكون من مجاز الحذف تقديره لهم قلوبٌ لا يفقهون بعقولها كما في قوله « ولهم آذانٌ لا يسمعون بها » أي لا يسمعون بأسماعها أو بادراكها (وأما) التعبير بالأفواه عن الألسن فهو في قوله تعالى « من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » أي بألسنتهم لان القول انما يكون باللسان ومنه قوله تعالى « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » (وأما) التعبير بالألسن عن اللغات فهو في القرآن كثير من ذلك قوله تعالى « فانما يسرناه بلسانك » أي بلغتك ومنه . قوله

تعالى « بلسان عربى مبين » أى بكلام عربى مبين (وأما) التعبير بالساحة عن نازلها ففى قوله تعالى « فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين » معناه فاذا نزل بهم (وأما) التعبير بالقرية عن قاطنيها ففى قوله تعالى « واسئل القرية التى كنا فيها » (وأما) التعبير بالنادى عن أهله ففى قوله تعالى « فليدع ناديه » (وأما) التعبير بالندى عن أهله ففى قوله « أى الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديًا » أى أحسن أهل مجلس (وأما) التعبير بالغائط وهو المكان المنخفض عما يخرج من الانسان ففى قوله تعالى «أوجاء أحدكم من الغائط» .. ومن مجاز الملازمة وهو التعبير بالارادة عن المقاربة لان من أراد شيئاً قربت مواقعته إياهُ غالباً وهو فى قوله تعالى « فوجدا فيها جداراً يريدأن ينقض فأقامه » أى قارب الانقضاض . ومنه قول الشاعر

يُرِيدُ الرُّمحُ صَدْرَ أبى رياحٍ ... وَيَرْغبُ عَنْ دِماءِ بنى عَقيلِ

(ومنه) التعبير بترك الكلام عن الغضب لان الهجران وترك الكلام يلزمان الغضب غالبا وهو فى القرآن العظيم فى موضعين . أحدهما قوله تعالى « ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم » والآخر قوله تعالى « ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة » (ومنه) التجوز بالاياس عن العلم لان الاياس من نقيض المعلوم ملازم للعلم غير منقلب عنه . من ذلك قوله تعالى « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا » (ومنه) التعبير بالدخول عن الوطء لان الغالب من الرجل اذا دخل بامرأته انه يطأها ليلة عرسها . ومثاله قوله تعالى « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم » ومنهُ وصف الزمان بصفة مايشتمل عليه ويقع فيه وهو فى القرآن العظيم كثيرٌ . من ذلك قوله تعالى « فذلك يومئذ يومٌ عسيرٌ » وصفه بالعسر والعسرُ صفةٌ للأهوال الواقعة فى ذلك اليوم ومنه قوله تعالى « فيأخذكم عذابُ يوم عظيم » وصف اليوم بالعظم وهوصفةٌ للعذاب الواقع فيه .. وأما قوله تعالى « فيأخذكم عذاب يوم عقيم » فانه مجاز تشبيه شبه اليوم فى انقطاع خيره بانقطاع ولادة العقيم . ومنه قوله تعالى « وقال هذا يومٌ عصيب » وصفه بكونه عصيباً وهو صفةٌ للشر الذى يقع فيه

القسم السادس عشر

التجوز بالمجاز عن المجاز

وهو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة الى مجاز آخر فيتجوز بالمجاز الأول عن الثانى بعلاقة بينه وبين الثانى . مثال ذلك قوله تعالى « ولكن لا تواعدوهنَّ سراً » فانه مجاز عن مجاز فان الوطء تجوز عنه بالسر لانه لا يقع غالباً الا فى السر فلما لازم السر فى الغالب سمى سراً وتجوز بالسر عن العقد لأنه سببٌ فيه فالمصحح للمجاز الأول الملازمة والمصحح للمجاز الثانى التعبير باسم المسبب الذى هو السر عن العقد الذى هو سببٌ كما سمى عقد النكاح نكاحاً لكونه سبباً فى النكاح وكذلك سمى العقد سراً لأنه سبب فى السر الذى هو النكاح فهذا مجاز عن مجاز مع اختلاف المصحح فمعنى قوله ولكن لا تواعدوهن سراً لا تواعدوهن عقد نكاح وكذلك قوله « ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله » قال مجاهدٌ ومن يكفر بلا إله الا الله فقد حبط عمله فان حمل قوله على ظاهره كان هذا من مجاز المجاز لأن قول لا إله الا الله مجاز عن تصديق القلب بمدلول هذا اللفظ والتعبير بلا إله الا الله عن الوحدانية من مجاز التعبير بالقول عن المقول فيه والأول من مجاز التعبير بلفظ السبب عن المسبب لأن توحيد اللسان مسبب عن توحيد الجنان

القسم السابع عشر

التجوز فى الاسماء وهو على سبعة أقسام

(الأول) اطلاق اسم الأسد على الشجاع (الثانى) التجوز بالبحر عن الجواد (الثالث) اطلاق اسم الفوز والحياة على الايمان والعرفان (الرابع) اطلاق اسم الظلمة والموت على الجهل والضلال (الخامس) اطلاق اسم السراج والنور على الهادى (السادس) اطلاق اسم الحطب على النميمة بإثارتها نار الحقد والغضب (السابع) اطلاق اسم الانسان على تمثاله وكذلك الحيوان والبلدان وقد تقدم جميع أمثلة ذلك إلا الحطب المعبر به عن النميمة فانه فى قوله تعالى « حمالة الحطب »

﴿ القسم الثامن عشر ﴾

التجوز فى الافعال وهو على عشرة أقسام وتحت كل قسم منها أقسام

(الأول) التجوز بالماضى عن المستقبل تشبيهاً له فى التحقيق والعرب تفعل ذلك لفائدة وهو أن الفعل الماضى اذا أخبر به عن المضارع الذى لم يوجد بعدُ كان أبلغ وآكد وأعظم موقعاً وأفخم بياناً لان الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان وجد وصار من الأمور المقطوعة بكونها وحدوثها • ومنه قوله تعالى « ويوم ينفخ فى الصور ففزعَ مَن فى السموات ومَن فى الأرض إلا ما شاء اللهُ وكلٌّ أتوهُ داخرين » فانه انما قال ــ ففزع ــ بلفظ الماضى بعد قوله ــ يُنفخ ــ وهو مستقبل للاشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والارض لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل بكونه مقطوعا به • ومن هذا الجنس قوله تعالى « وبَرَزُوا لله جميعاً » فبرزوا بمعنى يبرزون يوم القيامة وانما جىء به بلفظ الماضى لان ما أخبر الله به لصدقه وصحته فانه قد كان ووجد • ومثل ذلك قوله عز اسمه « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » فأتى ها هنا بمعنى يأتى وإنما حسن فيه لفظ الماضى لصدق إثبات الأمر ودخوله فى جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه فصار يأتى بمنزلة أتى ومضى • وكذلك قوله تعالى « ويومَ نُسيِّرُ الجبالَ وترَى الأرضَ بارزة وحشرْناهم فلم نُغادرْ منهم أحداً » فانه انما قال ــ وحشرناهم ــ ماضياً بعد ــ نُسيِّر • وترَى ــ وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كانه قال وحشرناهم قبل ذلك وهو فى القرآن العظيم كثير • قال الشيخ الامام عز الدين بن عبد السلام فى كتابه المعروف بالمجاز أكثر ما يكون هذا فى الشروط وأجوبتها وقد يجىء فى غيرها • مثاله فى غير الشرط قوله تعالى « وإذ قالَ اللهُ يا عيسى بن مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتخذونى وأُمىَ إلهين مِن دُونِ الله » ومنه « ونادى أصحاب الاعراف » ومنه « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » ومنه « ونادوا يامالك » ومنه « وقال قرينهُ هذا ما لدَىَّ

عتيدٌ » ومنه « وقالوا لجلودهم » • ومنه « إنا أعتدنا للظالمين ناراً » • ومنه « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا » وأمثاله فى القرآن كثيرٌ (وأما) مثاله فى الشرط فقوله تعالى « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا » معناه وإن تكونوا فى ريب • ومنه « وإن تبتم فهو خيرٌ لكم » معناه وإن تتوبوا فهو خير لكم • ومنه « فان كنت فى شك مما نزلنا اليك » معناه فان تك فى شك • ومنه « إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا » معناه إن تكونوا مؤمنين بالله فعليه توكلوا (وأما) فى جواب الشرط فقوله تعالى « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة » • ومنه « ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرًّا لظلوا من بعده يكفرون » قال الخليل معناه ليظلُّنّ • ومنه « وإن عدتم عُدنا » معناه وإن تعودوا الى قتال محمد عدنا الى نصره والشرط لا يكون إلا مستقبلاً والمرتب على المستقبل مستقبلٌ لا محالة وهذا من مجاز التشبيه شبه المستقبل فى الحقيقة وثبوته بالماضى الذى دخل فى الوجود بحيث لا يمكن رفعه (الثانى) التعبير بالمستقبل عن الماضى وهو فى القرآن العظيم كثير • من ذلك قوله تعالى « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » • ومنه « فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » معناه وفريقاً قتلتم • ويجوز أن يكون القول فى هاتين الآيتين حكاية حال ماضية مثله فى قوله تعالى « تُريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » وكما فى قوله تعالى « ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل » • ومنه قوله تعالى « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » ومنه « وقد كانوا يدعون الى السجود » ومنه « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه » معناه وإذ قلت وهو فى القرآن كثيرٌ (وانما) قصدت العرب بالاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل لأن الاخبار بالفعل المضارع اذا أتى به فى حالة الاخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضى وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التى يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضى والفرق بينه وبين القسم الذى قبله هو أن الفعل الماضى يخبر به عن المضارع اذا كان الفعل المضارع من الاشياء الهائلة التى لم توجد والأمور المتعاظمة التى لم تحدث فتجعل عند ذلك فيما قد كان ووجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه وأما الفعل المضارع اذا أخبر به عن الماضى فان الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه

يعاينها ويشاهدها ﴿ الثالث ﴾ التجوز بلفظ الخبر عن الأمر وهو فى القرآن العظيم كثيرٌ. من ذلك قوله تعالى « والوالداتُ يرضعنَ أولادهنُ حولين كاملين » ومنه قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرونَ أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعةَ أشهر وعشرا » • ومنه قوله تعالى « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » معناه آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ولذلك أجيب بالجزم فى قوله « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ » ولا يصح أن يكون جواباً للاستفهام فى قوله ــ هل أدلكم ــ لأن المغفرة وإدخال الجناتِ لايترتب على مجرد الدلالة وهذا من مجاز التشبيه شبه الطلب فى تأكيده بخبر الصادق الذى لابد من وقوعه واذا شبه بالخبر الماضى كان آكدَ وكذلك الدعاء والأمر والنهى بالخبر الماضى اذا أريد تأكيد ماعبر عنها بالخبر المستقبل فان بالغت فى التأكيد تجوزت عنها بالخبر الماضى ﴿ الرابع ﴾ التجوز بلفظ الخبر عن الدعاء وهو فى القرآن العظيم كثيرٌ • من ذلك قوله تعالى « لا تثريب عليكم اليومَ يغفر الله لكم » معناه اللهم أغفر لهم • ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يرحم الله أخى لوطاً لقد كان يأوى الى ركن شديد. ومن ذلك تشميت العاطس يرحمك الله وفى اجابته يهديكم الله ويصلح بالكم • المعنى اللهم ارحمه اللهم اهدهم ﴿ الخامس ﴾ التجوز بلفظ الخبر عن النهى وهو فى القرآن كثيرٌ. من ذلك قوله تعالى « وما تنفقون الا ابتغاءَ وجهِ الله » معناه ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله • ومنه قوله تعالى « لا تعبدون الا الله » معناه لا تعبدوا الا الله • ومنه قوله تعالى « لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » ﴿ السادس ﴾ التجوز بلفظ الأمر عن الخبر توكيداً للخبر لأن الامر للايجاب فيشبه الخبر به فى ايجابه وهو فى القرآن فى موضعين قوله تعالى « قلْ مَن كانَ فى الضلالة فليمددْ له الرحمن مداً » تقديره قل من كان فى الضلالة يمدد له الرحمن مداً أو مد له الرحمن مداً • الثانى « اتبعوا سبيلنا ولنحملْ خطاياكم » ﴿ السابع ﴾ التجوز بجواب الشرط عن الأمر وهو فى القرآن العظيم كثير • من ذلك قوله تعالى « إن يكن منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتين » معناه عند الجمهور فليغلبوا مائتين • ومنه « وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا » معناه فليغلبوا ألفاً

ومنه « فان يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين » معناه فليغلبوا مائتين « وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين » معناه فليغلبوا ألفين والمراد به التأكيد لانه خبر تجوز به عن الطلب ﴿ الثامن ﴾ التجوز بلفظ النهى عن أشياء ليست مرادةً بالنهى وانما المراد بها ما يقاربها أو يلازمها أو تكون مسببة عنهُ وهو فى القرآن العظيم كثيرٌ • فمن ذلك قوله تعالى « وَذرُوا البيعَ » نهى عن البيع فى اللفظ وهو مباحٌ وأراد ما يلزم عنه من ترك الواجب • ومنه قوله تعالى « وَلاَ تموتنَّ الاَّ وأنتمْ مُسلمونَ » النهى عن الموت نفسه لايصح لانه ينافى التكليف لكنه تجوز به عما يقارنه من الكفر فكأنه قال ولا تكفروا عند موتكم • ومنه « قولهم لا أرينَّك ههنا » معناه لاتحضرن فأراك فتجوز برؤيته عن سببها وهو الحضور • ومنه نهيه صلى الله عليه وسلم عن البيع على بيع الأخ ليس النهى عن نفس البيع لأنه مجتمعٌ بشرائط الصحة انما النهى عن أذية الأخ المقترنة بالبيع • ومنه النهى عن الخطبة على خطبة الأخ ليس النهى عن الخطبة نفسها وانما النهى عما يلزمها من تأذى الخاطب ﴿ التاسع ﴾ التجوز بالنهى لمن لا يصح نهيهُ والمراد به من يصح نهيه وهو فى القرآن كثيرٌ • فمنه قوله تعالى « وَلاَ تعدُ عَيْنَاكَ عنهمْ » النهى فى اللفظ للعينينَ والمراد بذلك ذُو العينين أى لا تنظر الى غيرهم • ومنه « لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » النهى فى اللفظ للاموال والأولاد وفى المعنى لذوى الأموال والأولاد • ومنه « لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد » النهى فى اللفظ للتقلب والمرادُ به النهى عن الاغترار بالتقلب • ومنه قوله « فَلاَ تغرَّنَّكمُ الحياةُ الدُّنيا » النهى فى اللفظ للحياة الدنيا والمراد به نهى المخاطبين عن الاغترار بها • ومنه قوله تعالى « وَلاَ تعجبْكَ أموَالُهم وَلاَ أولاَدُهمْ » النهى فى اللفظ للأموال والأولاد وفى المعنى نهى المخاطبين عن الاعجاب بهما • ومنه قوله تعالى « وَلاَ تأخذْكمْ بهمَا رأفةٌ فى دين الله » النهى للرأفة فى اللفظ وللمخاطبين فى المعنى • ومنه قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبنَ الذينَ ظلموا منكم خاصة » النهى لضمير الفتنة فى اللفظ وللمخاطبين فى المعنى لاتتعرضنَّ لاصابة الفتنة اياكم لسبب تقريرها وترك نكيرها والتقدير واتقوا تقدير فتنة لاتصيبن عقوبتها أو شؤمها أو وبالها الذين ظلموا

منكم خاصة (العاشر) التجوز بنهى من يصح نهيه والمنهى فى الحقيقة غيره وهو فى القرآن العظيم كثير • منه قوله تعالى «ولا يصدنك عن آيات الله» معناه ولا تصدن عن آيات الله بسبب صدهم إياك • ومنه «فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها» معناه فلا تصدن عنها • ومنه قوله تعالي «ولا يستخفنك الذين لا يوقنون» معناه ولا تخفن

القسم التاسع عشر

التجوز بالحروف بعضها عن بعض وهو عشرة أقسام

(الاول) هل يتجوز بها عن الأمر والنفي والتقدير وهو فى القرآن العظيم كثير •• أما التجوز بها عن الامر ففى مواضع • منها قوله تعالى «فهل أنتم مسلمون» معناه أسلموا • ومنه قوله تعالى «فهل أنتم منتهون» معناه فانتهوا •• أما التجوز بها فى النفي فهو فى مواضع • منها قوله تعالى «فهل ترى لهم من باقية» وقوله تعالى «فهل يهلك إلا القوم الفاسقون» معناه فما ترى لهم من باقية فلا يهلك الا القوم الفاسقون • وقوله تعالى «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام» معناه ما ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل ومثل هذا فى القرآن كثير • وأما قوله تعالى «هل من مزيد» فقيل انه نفي الاستزادة معناه لا مزيد فى وقيل انه طلب لها معناه زدنى •• وأما التجوز بها فى التقرير فهو فى القرآن العظيم فى آيتين • احداها قوله تعالى «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا» الثانية فى قوله تعالى «هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم» (الثانى) همزة الاستفهام ويتجوز بها عن النفي وعن الأمر والايجاب والتقرير والتوبيخ •• أما التجوز بها عن النفي فى القرآن العظيم منه كثير • من ذلك قوله تعالى «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» معناه لست مكره الناس حتى يكونوا مؤمنين • وقوله تعالى «أفأنت تنقذ من فى النار» معناه لست منقذ من فى النار • وقوله تعالى «أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى» معناه لست مسمع

الأصم ولا هادى الأعمى ومثله فى القرآن كثير •• وأما التجوز بها فى الايجاب فهو فى القرآن كثير • فمن ذلك قوله تعالى «أليس الله بكاف عبده» معناه الوعد بكفاية العباد • وقوله «أليس الله بعزيز ذى انتقام» وقوله تعالى «أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى» •• ومنها قول جرير

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

وقول الآخر

ألست أرى النجم الذى هو طالع ... عليها وهذا للمحبين نافع

وأما التجوز بها فى التقرير فهو فى القرآن كثير • من ذلك قوله تعالى «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله» وقوله تعالى «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» وقوله تعالى «آلذكرين حرم أم الأنثيين» •• وأما التجوز بها فى التوبيخ فهو فى القرآن كثير • فمن ذلك قوله تعالى «أفغير الله تتقون» وقوله تعالى «أتقولون على الله ما لا تعلمون» وقوله تعالى «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم» وقوله تعالى «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» (الثالث) التجوز - بفى - وله حقيقة تتحقق فى قسمين • أحدهما احتواء جرم على جرم كقوله تعالى «أفأنت تنقذ من فى النار» وقوله تعالى «وهم فى الغرفات آمنون» الثانى احتواء جرم على معنى كقوله تعالى «فى قلوبهم مرض» وقوله تعالى «ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول» وكقوله «إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه» وأمثاله فى القرآن كثير •• وأما التجوز بها فهو أنواع • الأول أن يجعل المعنى ظرفاً لتعلقه بمعنى آخر وذلك قوله تعالى «وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله» وهو طاعته واجتناب معصيته أو القتال فى سبيله ظرفاً لتعلق الجهاد والجهاد قائم بالمجاهد • ومن ذلك قوله تعالى «لا ريب فيه» ومن ذلك قوله تعالى «وإن الساعة لآتية لا ريب فيها» جعل الساعة والكتاب ظرفين لتعلق الريب لا لنفس الريب فان الريب حال فى المرتاب • ومنه قوله تعالى «ويستفتونك فى النساء» أى فى توريثهن جعل التوريث محلا لتعلق الاستفتاء ثم قال «قل الله يفتيكم فيهن» أى فى توريثهن فجعل التوريث

محلا لتعلق بيان الفتيا وهو قول المفتى • ومنه قوله تعالى « فهدَى اللهُ الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه من الحقّ باذنه » جعل الحق محلا لتعلق الاختلاف والاختلاف قائم بالمختلفين • ومنه قوله تعالى « فادّارَأتمْ فيها » أى فادّارأتم فى قتلها فجعل القتل محلا لتعلق الدرء • ومنه قوله تعالى « فذلِكنَّ الذى لُمْتُنَّنى فيهِ » جعل حبه أو مراودته ظرفا لتعلق لومهن لا لنفس اللوم فان لومهن قائم بهن •• الثانى التجوز بها عن الباء التى للسبب وهى فى القرآن العظيم كثير • فمن ذلك قوله تعالى « وليس عليكم جُنـاحٌ فيما أخطأتم به » أى بسبب ما أخطأتم • ومنه قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله » أى بسبب نصرة سبيل • وكذلك الحب فى الله والبغض فى الله أى بسبب تعظيم الله وله نظائر كثيرة ولما كان المسبب متعلقاً بالسبب جُعل السبب ظرفا لتعلق المسبب •• الثالث من التجوز به وهو أن يجعل الجرم محلا لتعلق المعنى وهو فى القرآن المجيد كثير • من ذلك قوله تعالى « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » جعل الأجرام محلا لتعلق الفكر لا لنفس الفكر فان الفكر قائم بالمتفكر • ومنه قوله تعالى « أوَلم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ » جعل السموات والارض والمخلوقات كلها محلا لتعلق النظر لا لنفس النظر فان الناظر قائم بالنظر حالٌّ فيه • ومنه قوله تعالى « أوَلم يتفكروا فى أنفسهم » ﴿ الرابع ﴾ من التجوز به أن يجعل المعنى محلا للجرم وهو عكس الأول فتجوز به عن كثرة ما جعل ظرفا مجازاً لما كان الحاوى أعظم من المحوى شبه به ما توالى أو كثر من المعانى ومنه فى القرآن شئ كثير • من ذلك قوله تعالى « إنّا لنراكَ فى ضلالٍ مبين » ومنه « صُمٌّ بُكمٌ فى الظلمات » أى صم وبكم فى الضلالات • ومنه قوله تعالى « فهم فى رَيبهم يَترَدَّدُون » ومنه قوله تعالى « ألا إنهم فى مِريةٍ من لقاء ربهم » وأما قوله تعالى « إنَّ المتقين فى جناتٍ ونعيمٍ • فى جنات ونهر • فى جناتٍ وعُيونٍ وفواكه » فمن جمع بين الحقيقة والمجاز جعل ـ فى ـ بالنسبة الى الجنان ظرفا حقيقياً وبالنسبة الى العيون والنهر والنعيم ظرفا مجازيا ومن لم يجمع بينهما يقدر ان المتقين فى جنات وفى نعيم وفى عيون وفى نهر فيكون فى الثانية مجازاً محضاً مشعراً بكثرة النعيم والانهار والعيون والفواكه ويدع الأولى على حقيقتها ولك أن

تجعل الجميع مجازاً على حذف لذات تقديره ان المتقين فى لذات جنات ونعيم وفى لذات جنات وعيون وفى لذات جنات ونهر وفى لذات وفواكه أو تقدر ان المتقين فى نعيم جنات وعيون وفواكه أو ما أشبهه ولا تقدر مثل هذا فى قوله ـ فى جنات ونعيم ـ اذ يبقى التقدير وفى نعيم نعيم وهو سمج لا يقدر مثله فى كتاب الله • وأما قوله تعالى « ألم ترَ أنّ اللهَ يَسجدُ له مَن فى السموات ومَن فى الأرض والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدَّوابُّ » فظاهره عند من جمع بين الحقيقة والمجاز لحكمه فيمن يعقل على السجود المعهود وفيما لا يعقل على الانقياد للقدرة والارادة • وأما قوله تعالى « أفى اللهِ شك » فالتقدير فيه أفى وحدانية الله شك فهو من جعل المعنى ظرفا لتعلق المعنى • وأما قوله تعالى « وهو اللهُ فى السموات وفى الأرض » وقوله « كلَّ يومٍ هو فى شأن » فليس الظرف هنا متعلق بجوهر ولا عرض وانما هذا من مجاز التشبيه عبر بكونه فى السموات والأرض عن علمه بما فيهن لأن من حضر مكانا لم يخف عليه ما فيه وأما قوله ـ كل يوم هو فى شأن ـ فهو يشبه « إنّ أصحابَ الجنـةِ اليومَ فى شُغلٍ فاكِهون » وكقولهم أنا فى شغلك وحاجتك ولا يخفى وجه التشبيه فيه ﴿ الخامس ﴾ التجوز ـ بعلى ـ وحقيقتها استعلاء جرم على جرم كقوله تعالى « وعلى الاعرافِ رجال » ومنه قوله تعالى « لتستوُوا على ظهورِه » وأما مجازها فعلى قسمين • أحدهما التجوز عن الثبوت والاستقرار كقوله تعالى « أولئك على هدىً من ربهم » وقوله تعالى « قل إنى على بَيّنةٍ من ربى » وقوله « وإنّا أو إيّاكم لَعلى هدىً » ومنه قوله تعالى « وإنك لَعلى خُلُقٍ عظيم » وهذا أيضاً من مجاز التشبيه شبه التمكن من الهدى والأخلاق العظيمة الشريفة والثبوت عليها لمن علا على دابة يصرّفها كيف شاء •• الثانى أن يجعل المعنى على الجرم تجوزاً كقوله تعالى « رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ » وكقوله « أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ » والغرض بذلك كثرة الصلاة والرحمة لأن ما علاك وجللك فقد أحاط بك • وأما قوله تعالى « وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوَى » فهو من نزول جرم على جرم ولا بد فيه من حذف تقديره وأنزلنا على أشجاركم أو على محالكم • وأما قوله تعالى « فخرَجَ على قومهِ فى زينتهِ » معناه

تخرج على نادى قومه أو على محل قومه • ومثله قوله تعالى « اخرُجْ عليهنَّ » فمعناه اخرج على مجلسهن أو مكانهن • ومثله قوله تعالى « كلما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندَها رزقا » معناه كلما دخل مكانها أو محرابها (السادس) ـ عن ـ وهى حقيقة فى مجاوزة جرم عن جرم وتعديته عنه ثم يستعمل فى المعانى على طريق التشبيه كقوله تعالى « ومَن أعرَضَ عن ذِكرى فانّ له معيشة ضنكا » شبه انصراف البصيرة عن تأمل ذكره بانصراف المجاوز عما يجاوزه • وكذلك قوله تعالى « فاعرض عنهم » إن حمل على ترك القتال كان المعنى فانصرف عن قتالهم وإن حمل على غيره فمعناه تجاوز عن أذيتهم وفى الحديث تجاوز عما تعلم المعنى ترك المؤاخذة لأن المتجاوز عن الشئ تاركٌ له وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم إن الله تجاوز لامتى عما حدثت به أنفسها (السابع) حرف ـ من ـ وهى حقيقة فى ابتداء غاية الأمكنة ويتجوز بها عن ابتداء الغاية فى الأزمنة مثل قوله تعالى « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » فاستعمالها غاية فى الأزمنة لشبهها بالاماكن وكذلك تجوز بها عن التعليل فى مثل قوله تعالى « مِمَّا خَطايَاهُمْ أغرقُوا » أى من أجل خطاياهم أغرقوا لان ابتداء غاية المعلول صادر عن علة فشبه ذلك بابتداء الغاية بالمكان (الثامن) حرف ـ ثم ـ ويستعمل حقيقة فى تراخى الزمان والمكان ثم يتجوز بها فى تراخى بعض الرتب عن بعض بالتباعد المعنوى فشبه التراخى المعنوى بالتراخى الزمانى والمكان وهو فى القرآن العظيم كثيرٌ • فمن ذلك قوله تعالى « ثم كان من الذين آمنوا » فجاء ـ بثم ـ للتراخى الذى بين الايمان والعمل الصالح فان الايمان أفضل من جميع أعمال الانسان فهو متراخ فى الفضل عن فك الرقاب وإطعام السغبان فهو مؤخر فى اللفظ مقدمٌ فى الفضيلة والرتبة على تباعد وتراخ يدل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل أى الأعمال أفضل قال الايمان بالله قال ثم ماذا قال بر الوالدين قال ثم ماذا قال الجهاد فى سبيل الله ويدل أن ـ ثم ـ هاهنا لتراخى الرتب لا لتراخى الزمان لأن الايمان شرط فى اعتبار فك الرقاب واطعام السغابى فلا يجوز أن يتقدم المشروط على شرط •• ومنه قال الشاعر

* إنّ مَنْ سَادَ ثم سَادَ أبُوهُ *

جاء بثم لتراخ بين السؤددين من الفضل • ومنه قوله تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » على قول بعضهم قال جئ بثم لتفاوت مابين نعمة التصوير ونعمة السجود لآدم قال فان اسجاد الملائكة له أكمل أحسان وأتم إنعام من التصوير • وقدر بعضهم ولقد خلقنا طينتكم ثم صورناكم فى ظهر أبيكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم •• وقال بعضهم نسبة الخلق والتصوير الينا من مجاز نسبة ما يتعلق بالواحد الى جماعة • ومثاله قوله عزوجل « براءةٌ من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين » نسب المعاهدةَ الى الجماعة والمرادُ بها معاهدةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم • ومثل قوله تعالى « ألاَ تقاتلونَ قوماً نكثوا أيمانهم » نسب النكث الى الكل وانما نكث بعضهم • ومثله قوله تعالى « وقالتِ اليهود عزير بن الله وقالتِ النصارى المسيح ابن الله » ولم تقل اليهود كلها ذلك وكذلك النصارى لأن بعضهم قال ذلك وبعضهم قال هو الله وبعضهم قال هو ثالث ثلاثة وقال بعضهم هو عبدالله ورسوله فنسب الى الفريقين ماوجد من بعضهم • ومثله قول امرئ القيس

* فانْ تَقتلونا نقتلكُمُ *

(وأما) من يقولُ إن ـ ثم ـ تستعمل فى تراخى بعض الاخبار عن بعض فلا يستقيم فى هذه الآية ولا فى قول الشاعر

* إنَّ من سادَ ثم سادَ أبوهُ *

لانّا نعلم أن الله تعالى ما راخى بين الاخبار فى قوله ـ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ـ وكذلك قول الشاعر ـ إن من سادَ ثم سادَ أبوه ـ يعلم أنه لم يقل ـ إن من سادَ ثم ـ وقف زماناً طويلاً متراخياً ثم قال ـ سادَ أبوه ـ وان استعمالها فى تراخى الأخبار بعيدٌ فى استعمال العرب لان التراخى الموجود فى كلامهم انما يقع فى مداولات الألفاظ لا بين أنفس الالفاظ وهذا انما يصح استعماله فى مقالاتٍ للاخبار فيها تعاقبٌ إن ثبت أنه قول من يعتمد على قوله فى هذا الشأن (التاسع) حرف ـ الباء ـ قال سيبويه هى للالصاق والاختلاط والالصاق أضرُب • أحدها حقيقيٌّ وهو الصاق جرم بجرم كقولك ألصقتُ القوس بالغِراء والخشبة بالجدار • والثانى مجاز الصاق المعنى بجرم

كقولك لطفت بزيد ورأفتُ بعمرو فكأنك ألصقت اللطف والرأفة به لتعلقهما به وكقولك مررت بزيد ولا بد فيه من حذف تقديره مررت بمكان زيد أو بمحل زيد وهو من مجازات التشبيه كأنك ألصقت المرور بالمكان . الثالث الصاق المعنى بالمعنى كقوله تعالى « أنَّ النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ » أى النفس مقتولة بقتل النفس والعين مفقوءة بفقء العين أتى بالباء ليكون المسبب وهو القصاص منسوبا الى الجناية نسبة التشبيه وهو جار فى جميع الأسباب (العاشر) حرفان وهما ـ لعل . وعسى ـ وهما مجاز تشبيه أو تسبب وحقيقتهما الترجى والتوقع فالله سبحانه تعالى وتنزه أن يوصف بحقيقتهما بل يصح حملهما على مجاز التشبيه والتسبب . أما مجاز التشبيه فلأن معاملته بالأمر والنهى والوعد والوعيد مشبه بمعاملة ملك عامَلَ عبيده بذلك على رجاء إجابتهم فان كل من سمع الملك يأمر وينهى ويعد ويوعد يرجو اجابة المأمول واثابته لاسيما اذا كان ذلك الملك كريماً صدوقا لا يخلف الميعاد . وأما مجاز التسبب فلأن رجاء الاجابة وما يترتب عليها من الفلاح مسبب عن لين الخطاب وحسن الترغيب والترهيب فكذلك أمر الرب ونهيه مع وعده وايعاده يوجبان لكل من سمعهما خوفا ورجاء لا يوجد مثلهما فى حق غيره . ويحقق ذلك أن الكلام المنفّر لا يتوقع منه اجابة ولا إنابة والكلام اللين المرغب يتوقع كل من سمعه الاجابة والانابة فلذلك قيل لموسى وهرون عليهما السلام « فقولا له قولاً ليناً لعلهُ يتذَكرُ أو يخشى » لما كان القول اللين سبباً للتذكر والخشية أمرهما به لتقوم عليه الحجة فهذا الرجاء المتعلق بكلامه . وأما الرجاء المتعلق بأفعاله فكما فى قوله سبحانه « واللهُ أخرَجكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم لاتعلمون شيئاً وجعلَ لكمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون » لما ذكر هذه النعم الجسام التى لا يتصور وجودها من غيره أردفها بقوله ـ لعلكم تشكرون ـ من جهة أن الشكر مرجو من المنعم عليه متوقع منه ولا سيما عند هذه النعم لانه عاملهم بهذه النعم معاملة الراجى كما عاملهم بالفتن معاملة الفاتن فوصفُه نفسه بكونه راجياً كوصفه نفسه بكونه فاتناً وكذلك نظائره

القسم العشرون

من أقسام المجاز الاستعارة وهى على أربعة أقسام . وقيل على قسمين وقيل على سبعة أقسام . وقد بيناها فى الوجه الثالث من الكلام عليها

....

اعلم وفقنا الله واياك أن اللفظ اذا استعمل فيما وُضع له فهو حقيقة . وان استعمل فى غير ما وضع له فان لم يكن لمناسبة بينه وبين ما وُضع له فهو الموكَل[1] وان كان لمناسبة بينهما فان حسن فيه أدات التشبيه فهو مجاز التشبيه وان لم يحسن فيه اظهار أدات التشبيه فهو الاستعارة .. واذا تقرر هذا فالكلام فى الاستعارة على وجوه . الأول هل هى من أنواع المجاز أم لا .. الثانى فى حدها .. الثالث فى أقسامها .. الرابع فى اشتقاقها .. الخامس فيما تهيأ به الاستعارة وما لا تتهيأ .. السادس فى الاستعارة التخييلية .. السابع فى الاستعارة المجردة .. الثامن فى الاستعارة المرشحة .. التاسع فى الاستعارة الحسنة .. العاشر فى الاستعارة القبيحة .. الحادى عشر فى بيان ما يُظن أنه استعارة وليس باستعارة .. الثانى عشر فى الاستعارة بالكناية .. الثالث عشر فيما تنزل به الاستعارة منزلة الحقيقة (أما الأول) فقد اختار الامام فخر الدين رحمه الله أن الاستعارة ليست من المجاز لعدم النقل وجمهور علماء هذا الشأن عدوها من المجاز لاستعمال اللفظ فى غير ما وضع له (وأما الثانى) فقد اختلفت عبارات علماء هذا الشأن فى حدها فقال على بن عيسى الاستعارة استعمال العبارة لغير ما وضعت له فى أصل اللغة وقد أبطل الامام فخر الدين ما قاله ابن عيسى فى حد الاستعارة من وجوه أربعة . الاول أنه يلزم أن يكون كل مجاز لغوى استعارة . الثانى يلزم أن تكون الاعلام المنقولة من باب المجاز . الثالث استعمال اللفظ فى غير معناه للجهل بذلك . الرابع أنه يتناول الاستعارة التخييلية على ما سيأتى .. وقال قوم الاستعارة جعل الشىء الشىء أو جعل الشىء للشىء لأجل المبالغة فى التشبيه . فالأول كما تقول لقيتُ أسداً وتعنى الشجاع

---

(١) كذا فى الاصل وكتب بهامشه لعله المنقول فليحرر

فقد جعلت الشجاع أسداً فهذا جعلُ الشيء الشيء • والثاني كقول الشاعر

* إذ أصبحت بيد الشمال زمامها *

وسيأتي •• وقال المتقدمون من أرباب هذه الصناعة الاستعارة الاستدلال بالشيء المحسوس على المعنى المعقول • وهذا هو أحد أنواع الاستعارة فان الاستعارة على أقسام وسيأتي بيانه •• وقال قوم الاستعارة ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح المشبه •• وقال الامام فخر الدين رحمه الله الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه • فقوله ـ ذكر الشيء باسم غيره ـ احترازاً عما اذا صرح بذكر المشبه كقولك زيد أسد فانك ما ذكرت زيداً باسم الاسد بل ذكرته باسمه الخاص فلا جرم أن ذلك لم يكن استعارة • وأما قوله ـ واثبات ما لغيره له ـ ذكره لتدخل فيه الاستعارة التخييلية • وقوله ـ لأجل المبالغة في التشبيه ـ ذكره لتميز به عن المجاز (وأما الثالث) فقد اختلفت عبارات أرباب هذه الصناعة في أقسامها فقال قوم أقسامها أربعة • الاول أن يكون المستعار والمستعار منه محسوسين • الثاني أن يكونا معقولين • الثالث أن يكون المستعار معقولا والمستعار منه محسوسا • الرابع أن يكون على العكس •• أما استعارة المحسوس للمحسوس فهي على قسمين أحدها أن يكون الاشتراك في الذات والاختلاف في الصفات والثاني أن يكون العكس • فمثال الاول أن يكونا حقيقتان تتفاوت إحداها في الفضيلة أو النقص والقوة والضعف فينقل اللفظ الموضوع للأكمل في ذلك النوع الى الانقص • مثاله استعارة الطيران للعدو فانهما يشتركان في الحقيقة وهي الحركة المكانية إلا أن الطيران أسرع من العدو فلما تساويا في الحقيقة واختلفا في القوة والضعف في السرعة لا جرم نقلوا اسم الكامل في السرعة الى الناقص فيها فسموا العدوَ طيراناً • وقد يقع في هذا الجنس ما يظن أنه مستعار ولا يكون كذلك وذلك اذا كانت جهة الاختلاف خارجة عن مفهوم الاسم كقول بعضهم

وفي يدك السيفُ الذي امتنعت به   صفاةُ الهدى من ان تدقّ فتخرقا

فالظاهر ان الخرق حقيقة في الثوب مجاز في الصفاة ولكن التحقيق يأباه لان الشق يستعمل في الخرق فيقال شققت الثوب والشق عيب في الثوب وهذه الملاقاة على وجه

الحقيقة فلما قام الشق مقام الخرق وجب ان يقوم الخرق مقام الشق ظاهراً والا لو كان للخرق مفهوم سوى مفهوم الشق لكان لفظ الخرق مشتركا بينهما وهو خلاف الاصل فثبت أن الخرق والشق لفظان مترادفان ولما كان الشق حقيقة في الصفاة كان الخرق المرادف له حقيقة أيضاً فيه • نعم لو قلت خرق الحشمة لم يكن من الحقيقة في شيء لانه ليس هناك شق فبهذا الطريق عرفنا أن الخرق ليس اسما للتفرق من حيث انه لاشق هناك كما تقدم خلاف ماتقدم من حيث أن الشق حاصل في الثوب بل هذه الخصوصية خارجة عن مفهوم لفظ الخرق ولما كانت لفظة الخصوصية التي بها تتميز تفرق أجزاء الحجر بعضها من بعض عن تفرق أجزاء الثوب غير داخلة في مفهوم الخرق كان استعمال الخرق في الموضعين حقيقة ولو قدرنا دخول تلك الخصوصية في الخرق كان استعماله في الحجر على طريق الاستعارة فهذا هو القانون في هذا الباب بعد أن لا تضايق في المثال هذا كله اذا كان الاشتراك في الحقيقة والاختلاف في العوارض والصفات •• وأما اذا كان بالعكس وهو أن يكون الاشتراك في الصفات والاختلاف في الحقيقة فمثل قولهم رأيت شمساً ويريدون انسانا يتهلل وجهه كالشمس فيشاركه في الوصف •• وأما القسم الثاني وهو استعارة اسم شيء معقول لشيء معقول وهذا أيضاً انما يكون في أمرين يشتركان في وصف عدمي أو ثبوتي وأحدهما بذلك الوصف أولى وفيه أكمل فينزل الناقص منزلة الكامل ثم ان المشتركين إما أن يكونا متعاندين أو لا يكونا كذلك فان تعاندا فاما أن يكون التعاند بالثبوت أو الانتفاء أو بالتضاد • مثال الاول استعارة اسم المعدوم للموجود أو الموجود للمعدوم • أما الأول فعند ما لا يحصل من ذلك الموجود فائدة مطلوبة فيكون ذلك الموجود مشاركا للمعدوم في عدم الفائدة لكن المعدوم بذلك أولى فيستعار لذلك الموجود اسم المعدوم • وأما الثاني فعند ما تكون الآثار المطلوبة من الشيء باقية عند عدم الشيء فيكون عند ذلك المعدوم مشاركا للموجود بتلك الفوائد لكن الموجود أولى بذلك فيستعار لذلك المعدوم اسم الموجود • وأما اذا كان التعاند بالتضاد حقيقة كان أو ظاهراً فمثاله تشبيه الجهال بالأموات لأن المقصود بالحياة الادراك والعقل فاذا عُدما فقد عُدمت الآثار المطلوبة من الحياة فتصير تلك الحياة مساوية

للموت فى عدم الفائدة المطلوبة والموت أولى بذلك فتنزل الحياة منزلته • ثم الضدان اذا كانا متقابلين الأشدُّ والأضعف فى أحد الطرفين اسم الأزيَد وفى الطرف الآخر اسم الأنقص • فشرطُ مساوى التشبيه مثلا كل من كان أقلَّ علماً وأضعف قوّة كان أولى أن يستعار له اسم الميت . ولما كان الادراك أقدم من الفعل فى كونه خاصية للانسان لا جرَم كان الأقل علما أولى باسم الميت أو الجماد من الأقل قوّة باسم الحياة فالاشرف علماً أولى بذلك لقوله تعالى «أوَمَن كان ميتاً فأحييناه» هذا اذا كانا متقابلين أما اذا لم يكونا كذلك وهو أن يكونا موجودين يشتركان فى وصف معقول إلا أن ذلك الوصف لأحدهما أولى فينتزل الناقص منزلة الكامل مثل قولهم فلان لقى الموت اذا كان لقى شيئاً من الشدائد لانها مشاركة للموت فى الكراهية لكن الموت أولى بها فتنزل تلك الشدائد منزلة الموت لاشتراكها فى المكروهية وعلى هذا قوله تعالى « ويأتيهِ الموتُ من كلّ مكان وما هو بميتٍ » (وأما الثالث) فهو أن يستعار للمعقول اسم المحسوس وهو كاستعارة الحجة للنور الذى هو محسوس بالبصر واستعارة العدل للقسطاس المدرك بحاسة العين (وأما الرابع) فهو استعارة اسم المعقول للمحسوس وهو غير جائز إلا على التأويل الذى نذكره فى باب التشبيه إن شاء الله تعالى

﴿ فصل ﴾

وهذه جملة مما احتوى عليه الكتاب العزيز من أقسام الاستعارة وصنوفها نذكرها مفصلة مبينة على حكم ما تقدم من الاقسام الأربعة إذ الغرض من هذا الكتاب معرفة ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان وأصناف البديع وفنون البلاغة وعيون الفصاحة وأجناس التجنيس •• أما ماجاء فى الكتاب العزيز من استعارة المحسوس للمحسوس فآيات كثيرة • منها قوله تعالى « واشتَعَلَ الرَّأسُ شيباً » اذ المستعار منه النار والمستعار له الشيب والجامع بينهما الانبساط ولكنه فى النار يقوى • وفى هذه الآية ثلاث فوائد أُخر غير الاستعارة (الفائدة الأولى) أنه سلك فى الآية طريق ما أسند فيه الشىء الى الشىء وهو لشىء آخر لما بينه وبين الأول من التعلق فيرفع ذكر ما أسند اليه

ويؤتى بالذى الفعل له فى المعنى منصوباً بعده مبيناً ان ذلك الاسناد الى ذلك الأول انما كان من أجل هذا (الفائدة الثانية) بيان ما بينهما من الاتصال كقولهم طاب زيد نفساً وتصبب عرقا وأشباههما فيما تجد الفعل فيه منقولا عن الشىء الى ما ذلك الشىء من سببه فانّا نعلم أن الاشتعال للشيب فى المعنى وهو للرأس فى اللفظ كما أن طاب للنفس وتصبب للعرق وإن أسند الى ما أسند اليه والدليل على أن شرفَ هذه الآية بسبب ذلك أنّا لو تركنا هذا الطريق وأسندنا الفعل الى الشيب صريحاً فقلنا اشتعل شيب الرأس أو الشيب فى الرأس لانتفا ذلك الحسن • فان قلتَ فما السبب فى ان كان اشتعل اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له هذا الفضل • فنقول السبب فيه أن يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس أنه شمل وشاع وأخذ به من نواحيه وعم بجملته حتى لم يبق من السواد شىء الا القليل فهذه الفائدة لا تحصل اذا قيل اشتعل الشيب فى الناس لا يوجب اللفظ أكثر من ظهور الشيب فيه • بيانه أنك تقول اشتعل النار فى البيتِ فلا يفيد أكثر من اصابتها جانبا • ومثاله من التنزيل قوله تعالى « وفجرنا الارضَ عُيونا » فالتفجير للعيون فى المعنى لكنه وقع فى اللفظ على الارض ليفيد أن الارض بالكلية صارت عيونا (الفائدة الثالثة) تعدية الرأس بالالف واللام وإفادة معنى الاضافة من غير الاضافة وهو أحد ما أوجب المزية ولو قيل واشتعل رأس لذهب الحسن •• ومن هذا الباب قوله تعالى « وتركنا بعضهم يموجُ فى بعضٍ » أصل الموج حركة الماء فاستعمل فى حركتهم على سبيل الاستعارة • وقوله عز وجل « والصبح اذا تنفس » للظهور •• وأما استعارة المحسوس للمحسوس لشبه عقلى فكقوله تعالى « اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » المستعار له الريح والمستعار منه المرأة العقيم والجامع بينهما المنع من ظهور النتيجة . ومنه قوله تعالى « وآيةٌ لهمُ الليلُ نسلَخُ منهُ النهارَ » المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلدته والجامع أمر عقلى وهو ترتيب أحدهما على الآخر • ومنه قوله تعالى « فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغن بالامس » أصل الحصيد للنبات والجامع الهلاك وهو أمر عقلى • وقوله « خامدين » أصل الخمود للنار • ومنه

قوله تعالى « وإنه في أم الكتاب » وهو أفصح من أن يقال في أصل الكتاب .. وأما استعارة المحسوس للمعقول فكقوله تعالى « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » فالقذف والدمغ مستعاران . ومنه قوله تعالى « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » . ومنه قوله تعالى « فنبذوه وراء ظهورهم » . ومنه قوله تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم » وكل خوض ذمه الله في القرآن فلفظه مستعار من الخوض في الماء . ومنه قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر » استعارة لبيانه عما أوحى اليه لظهور ما في الزجاجة عند انصداعها . ومنه قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه » البنيان مستعار وأصله للحيطان . ومنه قوله تعالى « ويبغونها عوجا » العوج مستعار . ومنه قوله تعالى « لتخرج الناس من الظلمات الى النور » وكل ما في القرآن من الظلمات والنور مستعار . ومنه قوله تعالى « فجعلناه هباء منثورا » . ومنه قوله تعالى « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » الوادي مستعار وكذلك الهيمان وهو على غاية الافصاح . ومنه قوله تعالى « قالتا أتينا طائعين » جعل للسموات والارض قولا وطاعة . ومنه قوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » الآية .. وأما استعارة المعقول للمعقول فمنه قوله تعالى « من بعثنا من مرقدنا » استعار الرقاد للموت وهما أمران معقولان والجامع عدم ظهور الافعال . ومنه قوله تعالى « ولما سكت عن موسى الغضب » والسكوت والزوال أمران معقولان .. وأما استعارة المعقول للمحسوس فمنه قوله تعالى « إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية » المستعار منه التكبر والمستعار له الماء والجامع الاستعلاء المضر . ومنه قوله تعالى « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » والعتو هاهنا مستعار . ومنه قوله تعالى « تكاد تميز من الغيظ » فلفظ الغيظ مستعار . ومنه قوله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » وهو أفصح من مضيئة . ومنه قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » هذا الذي اختاره الامام فخر الدين ومن قبله من المحققين .. وقال قوم الاستعارة على قسمين . الاول ان يعتمد نفس التشبيه وهو أن يشترك شيئان في وصف واحد أحدهما أنقص من الآخر فيعطى الناقص اسم مبالغة في تحقيق

ذلك الوصف له كقولك رأيت أسدا وأنت تعني رجلا شجاعا وعنت لنا ظبية وأنت تعني امرأة وتجيء الاقسام الاربعة وقد تقدمت . الثاني أن تعتمد لوازمه وهو عند ما تكون جهة الاشتراك وصفا انما يثبت بكماله في المستعار منه بواسطة شيء آخر فيثبت ذلك الشيء في المستعار له مبالغة في اثبات المشترك ويسمى استعارة تخييلية كقول لبيد

وغداة ريح قد وزعت وقرة ... إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

استعار اليد للشمال وليس هناك مشار اليه يمكن أن يجرى اسم اليد عليه كما أجرى الأسد على الرجل لكنه خيل الى نفسه أن الغداة في تصريف الشمال على حكم طبيعتها كالانسان المتصرف في بعيره وزمامه ومقادته في يده وتصرف الانسان انما يكمل باليد فاثبت لها اليد تحقيقا للغرض وحكم الزمام في الاستعارة للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال . وكذلك قول تأبط شرا يصف سيفا

اذا هزه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك

لما شبه المنايا عند هزه السيف بالمسرور وكمال الفرح والسرور انما يظهر بالضحك الذي تتهلل فيه النواجذ لاجرم اثبته تحقيقا للوصف المقصود والا فليس للمنايا ما ينقل اليه اسم النواجذ . وكذلك له في الحماسة

سقاه الردى سيف اذا سل أومضت ... اليه ثنايا الموت من كل مرقد

.. ومن ذلك قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » تحقيق هذا الخلاص عن التشبيه فإن من وضع في نفسه أن كل اسم يستعار فلا بد أن يكون هناك شيء تمكن الإشارة اليه تناوله في حال المجاز كما يتناوله في حال الحقيقة .. وقال ابن الاثير تقسم الاستعارة الى قسمين . الأول يجب استعماله وهو ما كان بينه وبين ما استعير له تشابه وتناسب ولنضرب له أمثلة يستدل بها عليه . فمن ذلك قوله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » وهذا الوصف إنما هو على ما يظهر للعين لا على حقيقة المعنى لان الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه وإضاءته بغروب الشمس وطلوعها وليسا على الحقيقة شيئين ينسلخ أحدهما من الآخر إلا أنهما في رأي العين كأنهما كذلك والسلخ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض فلما كانت

هوادى الصبح عند طلوعه كالملتحمة باعجاز الليل أجرى عليهما اسم السلخ وكان ذلك لائقاً فى بابه وهو أولى من قوله يخرج لأنّ السلخ أدل على الالتحام المتوهم من الاخراج • الثانى ما لا يجب استعماله وسيأتى بيانه •• وقال قوم الاستعارة على سبعة أقسام • الأول الاستعارة للمناسبة وهى على أربعة أقسام كما تقدم • الثانى الاستعارة التخيلية وقد تقدم بيانها • الثالث الاستعارة المجردة • الرابع الاستعارة المرشحة • الخامس الاستعارة البديعة • السادس الاستعارة القبيحة • السابع الاستعارة فى الكناية وقد بينا متقدماً بعضها وسنبين الباقى إن شاء الله تعالى ﴿ الوجه الرابع ﴾ من التقسيم الأول فى اشتقاقها وهى مشتقة من العارية التى حقيقتها فى الاجرام ولهذ قال ابن الاثير الاستعارة هى أن تريد تشبيه الشئ بالشئ فتدع الافصاح بالتشبيه واظهاره وتجئ على اسم المشبه به فتعبر به عن اسم المشبه تجريه عليه كقولك رأيت رجلاً هو كالأسد فى شجاعته وقوّة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول — رأيت أسداً — والسين التى فى الاستعارة ليست سين الالتماس والطلب التى هى فى قولهم استعان اذا طلب المعونة واستجار اذا طلب الجيرة وانما هى كالتى فى قوله تعالى «فاستجاب لهم ربهم» • وكقول الشاعر

* فلم يستجبهُ عند ذاك مجيبُ *

﴿الوجه الخامس﴾ فيما تصح منه الاستعارة وفيما لا تصح •• قال الامامُ فخر الدين وجماعةٌ من المحققين إن الاسماء على ثلاثة أقسام. اسماء أعلام. واسماء مشتقةٌ. واسماء أجناس •• فأما الاسماء الأعلام فلا استعارة فيها لأن المشابهة بين الأصل والفرع معتبرة فى الاستعارة وهى غير معتبرة فى الأعلام •• وأما الاسماء المشتقة فالاستعارة أيضاً لا تدخلها دخولاً أولياً وهل تتحقق فى الفعل أم لا • فنقول الفعل شأنه الدلالة على ثبوت المصدر لشئ فى زمان معين فالاستعارة تقع أولاً فى المصدر بواسطة ذلك فى الفعل فاذا قلت نطقت الحال وهذا انما يصح لان الحال مشابهة النطق فى الدلالة على الشئ فلا جرم استعير النطق لتلك الحالة فالاستعارة أولاً واقعةٌ على المصدر بواسطته فى الفعل فإذاً الاستعارة فى الحقيقة ليست إلاّ فى المصدر فاذا عرفت ذلك تبين لك أنّ الاسماء المشتقة أيضاً كذلك فإن الاسم المشتق هو الذى يدل على ثبوت المشتق منه لشئ مع عدم

الدلالة على زمان ذلك الثبوت فظهر منه أن الاستعارة إنما تقع وقوعا أولياً فى أسماء الاجناس •• وتلخيص هذا الكلام أن المعنى يستعار أولا بواسطة استعارة اللفظ وأن الاستعارة تقع فى المصدر ثم بواسطةٍ فى الفعل واستعارة الفعل أما من جهة فاعله كقولك نطقت الحال بكذا ولعبت به الهموم وأما من جهة مفعوله كقول ابن المعتز

جُمِعَ الحقُّ لنا فى إمام   قتلَ الجوعَ وأحيا السماحَ

أو من جهة مفعوليه كقول القطامى

نُقْرِيهِمُ لهذَمياتٍ نقدُّ بها   ما كانَ خاطَ عليها كلُّ زرَّاد

أو لكليهما كقول الحريرى

وأقرِى المسامعَ إما نطقتُ   بيانا يقودُ الحرُونَ الشَّموسا

أو من جهة الفاعل والمفعول كقوله تعالى « يكادُ البرقُ يخطفُ أبصارَهم » •• وقال ابن الاثير فى جامعه اعلم أن الاستعارة قد جاءت فى الاسماء والصفات والافعال جميعا تقول رأيت ليوثا. ولقيت صُما عن الخير. وأضاء الحق • الاّ أنه قد استعمل الضرب الثانى الذى ذكرناه وهو قولنا — زيد أسد — فى باب الاستعارة وأورده جماعة من العلماء مثل قُدامة والجاحظ وأبى هلال العسكرى والغانمى وأبى محمد بن سنان الخفاجى فى تصنيفاتهم فى باب الاستعارة ولم يذكروا أن الأصل فيه أنه تشبيه بليغ فما أعلم هل ذلك لخفائه عليهم أو أنهم عرفوه ولم يذكروه وهو الأصل المقيس عليه فى التشبيه الذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان وقد أوردناه نحن فى كتابنا هذا فى باب الاستعارة تشبيهاً بالقوم واستنانا بسننهم لأنهم السابقون فى هذا الفن بالتصنيف إلا أن موضعه باب التشبيه فاعرف ذلك ﴿ الوجه السادس ﴾ الاستعارة التخييلية وقد تقدم الكلام فيها ونزيد ذلك وضوحا وهو أن علماء البيان قالوا ان أكثر الآيات التى يتمسك بها أهل التشبيه من هذا • فمنها قوله تعالى « واخفضْ لهما جَناحَ الذلّ من الرَّحمةِ » اثبات الجناح للذل استعارة تخييلية •• روى أن أبا تمام لما نظم قوله (هو حبيب بن أوس الطائى)

لا تَسقِنى ماءَ الملامِ فاننى   صبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائى

جاءه رجل بقصعة وقال اعطنى قليلا من — ماء الملام — فقال أبو تمام لا أعطيكه حتى تأتينى

بريشة من ـ جناح الذل ـ فأفخم الرجل • ومن ذلك أيضاً قوله تعالى « سنفرغُ لكم أيها الثقلان » • ومنه قوله تعالى « ذَرْني ومَن خلَقتُ وَحيداً » • ومنه قوله تعالى « إلاّ أن يَعفونَ أو يَعفو الذى بيدِه عُقدَةُ النكاحِ » • ومنه قوله تعالى « واعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعاً » وفى القرآن العظيم من ذلك كثير (الوجه السابع) الاستعارة المجردة وهى أن تنظر الى المستعار من غير نظر الى غيره كقوله تعالى « فأذاقها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخوف » وكقول زهير

* لدَى أسدٍ شاكي السلاح مقذَّف *

لو نظر الى المستعار منه لقال ـ فكساهم الله لباس الجوع ـ ولقال زهير ـ لدى أسد وافى المخالب. أو وافى البراثن ـ (الوجه الثامن) الاستعارة المرشحة وهى أن تنظر الى جانب المستعار فتراعى جانبه وتواليه ما يستدعيه وتضم اليه ما يقتضيه مثل قول كثيّر

* رَمتني بسهمٍ ريشُهُ الكُحلُ لم يَضر *

وقول النابغة

* وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همِّهِ *

المستعار فى كل واحد منهما وهو الرمى والازاحة منظور اليه فى لفظى ـ السهم. والعازب ـ (الوجه التاسع) الاستعارة البديعة البالغة وهى أن تتضمن المبالغة فى التشبيه مع الايجاز وغالب استعارات الكتاب العزيز كذلك وفى أشعار فصحاء العرب منها كثير (الوجه العاشر) الاستعارة القبيحة وليس فى الكتاب العزيز منها شئ وأما فى أشعار العرب وغيرهم فكثير •• ومن قبيح الاستعارة قول أبى تمام

سبعونَ ألفاً كآسادِ الشرَى نَضِجَتْ   أعمارُهم قبلَ نضجِ التين والعنبِ

وهذا البيت ليس فيه وجه من وجوه الحسن وقد روى فى غير هذه الرواية ـ نضجت جلودهمُ قبلَ ـ وعلى هذه الرواية ليس فى البيت استعارة قبيحة فان القتلى أنضجت الشمس جلودهم كما تنضج التين والعنب •• وكذلك قوله

* أيا مَن رَمى قلبي بسهمٍ فأدخلاَ *

أقام ـ أدخلَ ـ مقام أنفذ • وفى رواية ـ فأقصدَا ـ وفى رواية ـ فأنفذَا ـ فهى

من روى فأقصدا وأنفذا فهى استعارة حسنة •• ومما يزيد الاستعارة حسناً وهو أصل فى هذا الباب أن يجمع بين عدة من الاستعارات قصداً لالحاق الشكل بالشكل لاتمام التشبيه كقول امرئ القيس فى وصف ليل طويل

فقلتُ له لمّا تمطّى بصلبِهِ   وأردفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ

لمّا جعل لليل صلباً قد تمطى به بيّن ذلك فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من جميع جوانبه (الوجه الحادى عشر) الاستعارة بالكناية وبيان ما تتنزل به الاستعارة بالكناية منزلة الحقيقة •• أما الاستعارة بالكناية فهى اذا لم يصرح بذكر المستعار بل بذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه كقول أبى ذؤيب

واذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها   ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فكأنه حاول استعارة السبع للمنية لكنه لم يصرح بها بل بذكر لوازمها تنبيهاً بها على المقصود (الثانى عشر) ما تتنزل به الاستعارة منزلة الحقيقة وهو أن يذكر لفظاً يوهم به أن الاستعارة أصلا كقول أبى تمام

ويصعَدُ حتى يظنَّ الجهو   لُ بأنَّ له حاجةً فى السماء

لمّا استعار العلوّ لزيادة العلوّ فى الفضل والقدر ذَكرَه ذِكرَ من يذكر علو مكان •• وكقول ابن العميد

قامتْ تُظلّلني من الشمس   نفسٌ أعزُّ على من نفسى
قامتْ تظللنى ومن عجبٍ   شمسٌ تظللنى من الشمس

ومدار هذا النوع على التعجب وقد يجيئ على عكسه كقوله

لاتعجبوا من بلا غلالتـهِ   قدْ زرّ أزرارُه على القمرِ

وهذا إنما يتم بالحكم الجِدّى بكونه قمراً ليكون من شأنه أن يبلى الكتان (الوجه الثالث عشر) شروط الاستعارة الكاملة •• قال ابن الاثير لابد للاستعارة من ثلاثة أشياء . مستعار . ومستعار منه . ومستعار له . فاللفظ المستعار قد نقل من أصل الى فرع للابانة والمستعار منه والمستعار له لفظان حمل أحدهما على الآخر فى معنى من المعانى هو حقيقى للمحمول عليه مجازى للمحمول • مثال ذلك قوله تعالى « واشتعلَ الرأسُ شيباً » فهذا

مستعار ومستعار منه ومستعار له فالمستعار هو الاشتعال وقد نقل من الاصل الذى هو النار الى الفرع الذى هو الشيب قصداً للابانة وأما المستعار منه فهو النار والاشتعال لها حقيقة وأما المستعار له فهو الشيب والاشتعال له مجاز

القسم الحادى والعشرون

التشبيه والكلام عليه من وجوه

الاول هل هو من المجاز أو لا •• الثانى بيان الغرض بالتشبيه •• الثالث فى حده •• الرابع فى معرفة الاشياء التى يكون منها التشبيه •• الخامس فى أقسامه •• السادس فى ذكر أدوات التشبيه ما يكون بأداة وما يكون بغير أداة •• السابع فى تشبيه الشيئين بالشئ الواحد •• الثامن فى ذكر ما حسن به موقع التشبيه •• التاسع فى الشرط الذى لا يكون التشبيه حسناً الا به •• العاشر فيما يجوز عكسه من التشبيه وما لا يجوز •• الحادى عشر التشبيه فى الهيئات التى تقع عليها الحركات •• الثانى عشر الفرق بين الاستعارة والتشبيه ﴿أما الاول﴾ فالذى عليه جمهور أهل هذه الصناعة أن التشبيه من أنواع المجاز وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير اليه • وذهب المحققون من متأخرى علماء هذه الصناعة وحذاقها الى أن التشبيه ليس من المجاز لانه معنى من المعانى وله حروف وألفاظ تدل عليه وضعاً كان الكلام حقيقة أو مجازاً فاذا قلت زيد كالاسد • وهذا الخبر كالشمس فى الشهرة • وله رأى كالسيف فى المضاء • لم يكن مثل نقل اللفظ عن موضوعه فلا يكون مجازاً ﴿ وأما الثانى ﴾ فالغرض بالتشبيه وفائدته الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسب من فضيلة الايجاز والاختصار والدليل على ذلك قولنا ـ زيد أسد ـ فان الغرض بهذا القول أن نبين حال زيد وأنه متصف بشهامة النفس وقوة البطش والشجاعة وغير ذلك مما جرى هذا المجرى إلا إنا لم نجد شيئاً يدل عليه سوى جعلناه شبيها بالأسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به مقصورة عليه فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف

وأبين من أن لو قلنا زيد شهم شجاع قوى البطش جرئ الجنان وأشباه ذلك لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات فى المشبه به فانه معروف بها مشهور بكونها فيه ﴿ وأما الثالث ﴾ فقد اختلفت عبارات أهل هذا الشأن فى حد فقال قوم حده أن يثبت للمشبه حكما من أحكام المشبه به •• وقال قوم حده الدلالة على اشتراك شيئين فى معنى من المعانى وأن أحدهما يسدّ مَسدّ الآخر وينوبُ منابه سواء كان ذلك حقيقة أو مجازاً أما الحقيقة فهو أن يقال فى شيئين أحدهما يشبه الآخر فى بعض أوصافه كقولنا ـ زيد أسد ـ فهذا القول صواب من حيث العرف وداخل فى باب المبالغة الا أنه لم يكن زيد أسد على الحقيقة ﴿ وأما الربع ﴾ فقال المحققون من علماء هذا الشأن الاشياء التى يكون منها التشبيه لا يخلو إما أن تكون صفة حقيقية أو حالة اضافية • فأما الأول فلا يخلو إما أن يكون كيفية جثمانية أو نفسانية والاول لا يخلو اما أن تكون صفة محسوسة أو لا تكون محسوسة فان كانت محسوسة فاما أن تكون محسوسة أولا أو ثانياً والمحسوسات الاول هى مدركات السمع. والبصر. والشم. والذوق. واللمس • فالاشتراك فى الكيفية المبصرة مثل تشبيه الورد بالخد لاشتراكهما وكذلك تشبيه الوجه بالنهار والشعر بالليل • والاشتراك فى كيفية مسموعة كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج فى قول الشاعر

كأنَّ أصواتَ منْ ايغالِهنَّ بنا   أواخر المَيْسِ أصواتُ الفراريج

التقدير ـ كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من ايغالهن بنا ـ فَصَل بين المضاف والمضاف اليه • والاشتراك فى كيفية مذوقة كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر • والاشتراك فى كيفية مشمومة كتشبيه بعض الرياحين برائحة الكافور والمسك والاشتراك فى كيفية ملموسة كتشبيه لين ناعم بالخز والحرير والخشن بالمِسح من الشَّعَر هذا اذا كان فيه الاشتراك محسوساً أولا • أما اذا كان محسوساً ثانياً • فالمحسوسات الثانية هى الاشكال . والمقادير . والحركات • والاشكال إما مستقيمة أو مستديرة فالتشبيه لأجل الاشتراك فى الاستقامة مثل تشبيه المستوى المنتصب بالرمح والقد بالقضيب والغصن • وان كان الاشتراك فى الاستدارة فكتشبيه الشئ المستدير بالكرة تارة وبالحلقة أخرى • وان كان الاشتراك فى المقادير فكتشبيه عظيم الجثة بالجبل والفيل

وان كان فى الحركة مع اعتدال الاستقامة فكتشبيه الذاهب على الاستقامة بنفوذ السهم وأما اذا كان الاشتراك فى كيفية جثمانية غير محسوسة فهو كالاشتراك فى الصلابة والرخاوة • وأما اذا كان الاشتراك فى كيفية نفسانية فهو كالاشتراك فى الغرائز والاخلاق مثل الكرم . والحلم . والقدرة . والعُلى . والذكر . والفطنة . والتيقظ والمعرفة • وأما اذا كان الاشتراك فى حالة الاضافية لا فى كيفية حقيقية فهو مثل قولك ـ هذه حجة كالشمس ـ فاشتراكهما ليس فى شىء من الكيفيات الحقيقية ولكن فى أمر إضافىّ وهو أن كل واحد منهما مزيل للحجاب •• ثم ان هذه الاضافات قد تكون جلية او قد تكون خفية وربما يبلغ الجلى فى القوة الى أن يقرب من القسم الاول • مثال الجلى تشبيه الحجة بالشمس • وكذلك قولهم فى صفة الكلام ألفاظ كالماء فى السلاسة • وكالنسيم فى الرقة • وكالعسل فى الحلاوة • يريدون أن اللفظ اذا لم تتنافر حروفه تنافراً يثقل على اللسان ولم يكن غريباً حوشياً بل كان مألوفاً ثم ان القلب يرتاح له والنفس تنشرح به فلسرعة وصوله الى النفس صار كالماء الذى يسوغ فى الحلق وكالنسيم الذى يسرى فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة ولأجل اهتزاز[1] النفس به أشبه العسل الذى يلذ طعمه ويميل الطبع اليه •• هذا المثال أشد حاجة الى التفسير من تشبيه الحجة بالشمس ولكنه مع ذلك غير بعيد عن الفهم وأما المتوغل فى البعد عن الطبع وشدة الحاجة الى التأويل فكقول من ذكر بنى المهلب هم كالحلقة المفرغة لا ينتهى طرفاها ألا ترى أنه لا يفهم المقصود من ذلك إلا من له طبع يرتفع عن طبع العامة •• ومن وجوه التشبيه أيضاً التشبيه بالوجه المعقول وهو عندهم أقوى وأظهر من التشبيه بالمحسوس لأن تشبيه المحسوس بالمحسوس يمكن أن يكون لأجل الاشتراك فى وصف محسوس ويمكن أن يكون لأجل الاشتراك فى وصف معقول ويمكن أن يكون لأجلهما جميعاً • مثال الأول تشبيه الخد بالورد • ومثال الثانى قوله عليه الصلاة والسلام ايّاكم وخضراء الدِّمَن الحسنَ الظاهر القبيح الباطن وهو أمر عقلى • وكذلك تشبيه الرجل النبيه بالشمس فان النباهة صفة عقلية وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام أصحابى كالنجوم المعنى به أنه يهتدى بهم فى أمور الأديان

(١) كذا فى الاصل ولعله التذاذ فليحرر

كما يهتدى بالنجوم فى الليالى المظلمة فالشبه فى أمر عقلى • ومثال الثالث تشبيه الشخص الرفيع القدر الحسن الوجه بالشمس • وأما الاقسام الثلاثة أعنى تشبيه المعقول بالمعقول والمعقول بالمحسوس والمحسوس بالمعقول فيمتنع أن يكون وجه المشابهة غير عقلى لأن وجه المشابهة لو كان مشتركا بين الجانبين لكان المعقول الموصوف به محسوساً من ذلك الوجه وهو محال فثبت أن التشبيه بالوصف المعقول أعم من التشبيه بالوصف المحسوس واذا علم هذا وتبيَّن الوجه الذى يكون منه التشبيه تعيَّن ذكر أقسام التشبيه مبينة منزَّلة على ما قدَّمناه ﴿ وأما الخامس ﴾ فقد أطبق جمهور علماء هذه الصناعة على أن أقسامه أربعة • الاول تشبيه محسوس بمحسوس • الثانى تشبيه معقول بمعقول • الثالث أن يكون المشبه معقولا والمشبه به محسوساً • الرابع أن يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولا • وقد زاد ابن الاثير قسما خامساً وسماه غلبة الفروع على الاصول وسيأتى بيانه •• أما الأول وهو تشبيه المحسوس بالمحسوس فكقوله تعالى «والقمرَ قدَّرناهُ منازلَ حتى عاد كالعُرجون القديم» وقوله تعالى «كأنهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ» ومن شرط هذا النوع أن يكون المشبه والمشبه به مشتركين من وجهٍ مختلفين من وجهٍ ولا يخلو إما أن يكون اشتراكهما فى الذات واختلافهما فى الصفات واما أن يكون بالعكس •• فالاول مثل تشبيه العدْو بالطيران لانه ليس الاختلاف بينهما الا بالسرعة وبالبطء •• والثانى كتشبيه الشعر بالليل والوجه بالنهار •• وأما القسم الثانى وهو تشبيه المعقول بالمعقول فهو كتشبيه الموجود العارى عن الفوائد بالمعدوم أو تشبيه الشىء الذى تبقى فوائده بعد عدمه بالموجود • ومنه قول الشاعر

فرحتُ وآمالى كحظى كواسفٌ وعزمى يحاكى سعيَهُ فى المكارم

•• وأما القسم الثالث الذى هو تشبيه المعقول بالمحسوس فهو كقوله تعالى «والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ» • وقوله «مَثلُ الذين اتخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ كمثَلِ العنكبوتِ اتخذَتْ بيتاً» • وقوله تعالى «مثلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ فى يومٍ عاصفٍ» وأيضاً مثل تشبيه الحجة بالشمس وبالنور الذى هو محسوس بالبصر وليس لأحد أن يقول الحجة أيضاً مسموعة • قلنا المفيد هو المعانى العقلية

الحاصلة فى الذهن ووجه المشابهة أن القلب مع الشبه كالبصر مع الظلمة فى أن البصر فى الظلمة لا يفيد لصاحبه مكنة السعى ولو سعى فربما دُفع الى الهلاك فتردّى فى أهوية ومن الأمثلة تشبيه العدل بالقسطاس .. وأما القسم الرابع وهو تشبيه المحسوس بالمعقول فهو غير جائز لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية اليها ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً واذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا وللأصل فرعا وهو غير جائز وكذلك لو حاول محاول المبالغة فى وصف الشمس بالظهور أو المسك بالطيب فقال الشمس فى الظهور كالحجة والمسك فى الطيب كخلق فلان كان سُخفاً من القول مع أنه قد ورد فى الكلام الفصيح وأشعار العرب والمتأخرين منه ما لا يحصى . فمن ذلك قول بعضهم

وكأنّ النجومَ بينَ دُجاها ... سُننٌ لاحَ بينهنّ ابتداعُ

.. وكقول بعضهم

ولقد ذكرتُك والظلامُ كأنه ... يومُ النوى وفؤادُ من لم يعشق

.. وقول بعضهم

كأنّ انتضاضَ البدرِ من تحتِ غيمه ... نجاةٌ من البأساء بعدَ وقوعِه

.. وقول التنوخى

أما ترى البردَ قد وافتْ عساكرُه ... وعسكرُ الحرِّ كيف انصاعَ منطلقا

فانهضْ بنارٍ الى فحمٍ كأنهما ... فى العين ظُلمٌ وانصافٌ قد اتفقا

جاءتْ ونحن كقلبِ الصبِّ حين سلا ... برداً فصرنا كقلبِ الصبِّ إذ عشقا

.. وقال آخر

رُبَّ ليلٍ كأنه أملى فيــــك وقد رُحتُ عنكَ بالحرمانِ

.. وقول الصاحب حين أهدى العطر الى القاضى أبى الحسن

يا أيها القاضى الذى نفسى له ... فى قربِ عهدِ لقائه مشتاقه

أهديتُ عطراً مثلَ طيبِ ثنائه ... فكأنما أهدى له أخلاقه

ومثل هذا فى أشعارهم كثير لا يحصى والذى يجمع بين هذا وبين القواعد العقلية أن

هذه الاشياء المعقولة لتقررها فى الذهن وتخيلها فى العقل صارت بمنزلة المحسوسات فلما نزلت منزلة المحسوسات صح التشبيه وقويت وصار المعقول للمبالغة أثبت فى النفس وأقوى من المحسوس فصار لذلك أصلا يشبّه به . ومن هذا قوله تعالى « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » ولهذا قال امرؤ القيس يُشبه نصول الرماح

* ومسنونةٍ زرقٍ كأنيابِ أغوالِ *

فانهم وان كانوا لم يشاهدوا الغول وأنيابها لكنهم لما اعتقدوا فيها أى فى أنيابها غاية الحدّة حسن التشبيه والصحيح أن المحسوس أعرف من التشبيه بالوصف المعقول لثلاثة أوجه . الأول ان أكثر الغرض من التشبيه التخييل الذى يقوم مقام التصديق فى الترهيب والترغيب والخيال أقوى على ضبط الكيفيات المحسوسة منه على الأمور الاضافية . الثانى أن الاشتراك فى نفس الصفة أسبق من الاشتراك فى مقتضاها . الثالث أن المشابهة فى الصفة قد تبلغ الى حيث يتوهم أن أحدهما الآخر . وأما المشابهة فى مقتضى الصفة لا تبلغ الى هذا الحد لأن من المستحيل أن لا يجد العاقل فصلا بين ما يقتضيه ذوق العسل فى نفس الذائق وبين ما يحصل بالكلام المقبول فى نفس السامع .. وأما القسم الخامس فقال ابن الاثير ومن أقسام التشبيه قسم يقال له غلبة الفروع على الأصول وهو ضربٌ من الكلام ظريف لا يكاد يوجد منه شئ الا والغرض به المبالغة .. فمما جاء من ذلك قول ذى الرُّمة

ورملٍ كأوراك العذارى قطعتُه ... اذا ألبسته المظلمات الحنادس

.. ومثل ذلك قول بعضهم

فى طلعة البدر شئٌ من ملاحتها ... وفى القضيب نصيبٌ من تثنيها

والغرض بهذا النوع المبالغة فى وصف المشبه به كأن هذا المعنى ثبت له وصار أصلا

(وأما السادس) فى أدوات التشبيه فأدواته اسماء وأفعال وحروف . أما الاسماء فمثل بسكون الثاء وتحريكها وشبه بسكون الباء وتحريكها وأشباهُ ذلك . واما الأفعال فحسبت وخلت ويحسب ويخال ونظائرها . وأما الحروف فالكاف مفردة واذا أضيف اليهما ما يجرى مجرى ذلك وقد نطق بذلك كله الكتاب العزيز والسنة . أما الأسماء فقال الله تعالى

« مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً » . وقال تعالى « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ » . وقال تعالى « مثلُ الفريقين كالاعمى والاصمّ والبصير والسميع » وقال تعالى « فأتوا بسورةٍ من مثله » . وقال تعالى « فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم » . وقال تعالى « وأوتوا به متشابهاً » . وقال تعالى « إن البقرَ تشابه علينا » وفى الحديث الصحيح فمن أين يكون الشبهُ والشبّهُ . وأما الافعال فكقوله تعالى « يحسبه الظمآن ماءً » . وقال تعالى « يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » . وأما الحروف فكقوله تعالى « كالذى ينفقُ ماله رئاء الناس » . وقوله تعالى « كرمادٍ اشتدت به الريح » . وقوله تعالى « كدأب آل فرعون » وأما ـ كأنّ ـ فكقوله تعالى « كأنه رؤس الشياطين » وفى القرآن من هذا كثير . وأما فى كلام العرب الفصحاء منهم وأشعارهم فشئٌ كثير أضربنا عن ذكره لكثرته وشهرته .. وقال ابن الاثير وقد وقع فى القرآن العزيز التشبيه بغير أداة فى مواضع كثيرة . منها قوله تعالى « صمٌّ بكمٌ عمى فهم لا يرجعون » . وقوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » وهو أبلغ فى التشبيه .. قال جهور علماء هذا الشان التشبيه يكون بأداة تارة وتارة بغير أداة لكن اذا كان بغير أداة كان أبلغ وأوجز لان قولنا ـ زيد أسد ـ يعطى ظاهره من المعنى أنّا أخبرنا عن زيد انه أسد وذكرنا أنه هو الا أن حرف التشبيه فى ذلك مقدر واذا قلنا ـ زيد كأنه أسد ـ فيكون قد أظهرنا فيه حرف التشبيه الذى كان مخفياً فى الاول فيصير حينئذ تشبيهاً لزيد بالاسد والاول كان قد جعل هو الاسد وحرف التشبيه يقدر فيه تقديراً فمن هذا الوجه كان الأول أبلغ وأشد وقعاً فى النفس . وأما كونه أوجز فلأن قولنا ـ زيد أسدٌ ـ أخص من قولنا ـ زيدٌ كأنه الأسد ـ وان كان المعنيان سواء

(وأما السابع) فى تشبيه الشيئين بالشئ الواحد اعلم وفقنا الله وإياك أن علماء علم البيان قالوا أصل التشبيه أن يشبه شيئاً بشئ وقد يشبه الشيئين بالشئ الواحد وانما جاز ذلك لأنّ المشبه قد يأخذ صفة من صفات نفسه وصفة غيره ثم يشبههما بشئ آخر كقول الشاعر

صدغُ الحبيب وحالى كلاهما كالليالى

وقد وقع تشبيه الشيئين بالشئ الواحد وانما جاز ذلك لانه لا يخلو الشيئان فى تشبيه أحدهما

بالآخر من ثلاثة أقسام . اما تشبيه معنى بمعنى . واما تشبيه معنى بصورة . واما تشبيه صورة بصورة وكل واحد من هذه الاقسام الثلاثة لا يخلو من ثلاثة أقسام . إما تشبيه مفرد بمفرد .. واما تشبيه مركب بمركب . واما تشبيه مفرد بمركب . فأما تشبيه المفرد بالمفرد فكقول البحترى

تبسمٌ وقُطوبٌ فى ندىً ووغىً كالغيث والبرقِ تحتَ العارض البَردِ

. ومنه قوله تعالى « واتل عليهم نبأ الذى آتيناهُ آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب » الآية . وأما تشبيه المركب بالمركب فقوله تعالى « إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما تأكل الناس والانعام » الى قوله « كأن لم تَغن بالأمس » الآية . فشبه حال الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض وذلك تشبيه معنىً بصورة وهو أبدع ما يجئ فى هذا القسم . ومثله فى حق المنافقين « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يُبصرون » تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد ناراً فى ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله واتقى ما يخاف وأمن فبينما هو كذلك اذ طفئت ناره فبقى مظلماً خائفاً متحيراً وكذلك المنافق اذا أظهر كلمة الايمان استنار بها واعتز بعزها وأمن على نفسه وماله وولده فاذا مات عاد الى الخوف وبقى فى العذاب والنقمة . ويجوز أن يكون المعنى أنهم لما وصفوا ـ بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ـ عقب ذلك بهذا التمثيل مثّل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ـ والضلالة ـ التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ثم قال الله ـ صمٌّ بكمٌ عمى ـ كانت حواسهم سليمة لكن لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة الى الحق وأبوا أن ينطقوا به بألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جُعلوا كأنما أصابت هذه الحواسَ منهم الآفات وهذا من عجائب التشبيه وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم ـ ليوث ـ للشجعان ـ بحور ـ للكرام .. وبعض علماء هذه الصناعة يجعلون ما كان على مثال قوله تعالى « صم بكم عمى » استعارة وليس كذلك لأن المستعار مذكور

.. ومن هذا القسم قول الشاعر

بكيتُ عليه حين لم يبلغِ المنى ... ولم يروَ من ماءِ الحياةِ المكدّرِ

ومنه قول المتنبي

كأنّ الجفونَ على مُقلتي ... ثيابٌ شُقِقن على ثاكِلِ

.. وأما تشبيه المفرد بالمركب فمن ذلك قول بعضهم

كأنّ السُّهى انسانُ عينٍ غريقةٍ ... من الدّمعِ يبدُو كلما ذَرَفتْ ذَرْفا

(وأما الثامن) فى ذكر مايحسن به موقع التشبيه .. قال أئمة هذا الشأن ان كثرة التقييدات يعظم بها حسن موقع التشبيه وتكون أدخل فى التشبيه من غيرها لانها عقلية . مثال ذلك قوله تعالى « انما مثلُ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه من السماء » الى قوله « كأن لم تغن بالأمس » وهذه فيها عشر جمل قيد بعضها ببعض حتى صارت جملة واحدة وهى مع ذلك لا يمتنع أن تكون صور الجُمَل معناها حاصلا يمكن أن يشار اليها واحدة واحدة ثم أن التشبيه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض فانك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه .. وقد يقع من التشبيه جُمل لا يخل اسقاط بعضها بالتشبيه وهى كل جملة جمعت أغراضاً كثيرة كل واحد منها منفرد بنفسه ولهذا النوع خاصيتان . الأولى أنه لا يجب فيها الترتيب ألا ترى أنك اذا قلت زيد كالأسد بأساً . والبحر جوداً . والسيف مضاء والبدر بهاء ــ لم يجب عليك أن تحفظ فى هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً وهو كقول بعضهم

ياهلالاً يُدعى أبوهُ هلالا ... جلّ باريك فى الورى وتعالى

أنتَ بدرٌ حُسناً وشمس علوّاً ... وحُسامٌ حَزماً وبحر نَوالا

.. الثانية اذا سقط البعض فانه لايتغير حال الباقى كقولهم يصفو ويكدر ويحلو ويمر ولو تركت ذكر الكدورة والمرارة لو وجدت المعنى فى تشبيهك بالماء فى الصفاء والعسل فى الحلاوة باقياً على حاله . وقد وقع فى بعض الاشعار مايظن أن فيه تشبيهات مجموعة وليس كذلك بل هو تشبيه واحد وذلك كقول الشاعر

كما أبرَقتْ قوْماً عِطاشاً غمامةٌ ... فلما رَجوها أقشعتْ وتجلت

(وأما التاسع) فهو فى الشرط الذى لايكون التشبيه حسناً الا به وهو أن يكون التشبيه جلياً ويكون بحال يتبادر الذهن اليه والى ادراكه ولا يحتاج الى اطالة فكرة ولا امعان نظر فان الغرض بالتشبيه بيان حسن موقع التشبيه وظهور مزية المشبه بحسن حال المشبه به أو قبحه ولذلك هجنوا تشبيه من شبه الشمس بالمرآة فى كف الأشل وكتشبيه البرق بأصبع السارق فى قول بعضهم

أرِقتَ أم نمتَ لِضَوء بارقِ ... مُؤتلقاً مثلَ الفؤادِ الخافق

كأنه إصبَعُ كف سارِقِ

(وأما العاشر) فيما يجوز عكسه من التشبيه ومالا يجوز . فأما الذى لا يجوز عكسه فكل تشبيه كان الغرض به الحاق الناقص بالزائد مبالغة فى اثبات الحكم للناقص فهذا يمتنع عكسه وهو كما اذا شبهت شيئاً أسود بما هو الاصل فى شدة السواد كخافيتى الغراب والقار امتنع فيه العكس لان تنزيل الزائد منزلة الناقص تضاد المبالغة فى الاثبات . وأما الذى يجوز عكسه فهو الجمع بين شيئين فى مطلق الصورة أو الشكل أو اللون فالعكس مستقيم فيه فهو كتشبيه الصبح بغرة الفرس لا لاجل المبالغة فى الضياء بل لاجل وقوع منير فى مظلم وحصول بياض فى سواد مع كون البياض قليلا بالاضافة الى السواد وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة والدينار الخارج من السكة كقول ابن المعتز فهذا حسن مقبول وان عظم التفاوت بينهما لانك لم تضع التشبيه على مجرد النور وانما قصدت الى مستدير يتلألأ ويلمع ثم خصوص جنس اللون الموجود فى المرآة المجلوة والدينار للتخلص من حمى المسبك يوجد فى الشمس فأما مقدار النور بأنه زائد أو ناقص والجرم عظيم أو صغير فمما لم يتعرض له وعلى هذا خرج قوله تعالى « الله نور السموات والارض مثلُ نورهِ كمشكاةٍ فيها مِصباحٌ المصباحُ فى زُجاجةٍ الزّجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّى » الآية فانه سبحانه وتعالى لم يرد بالتشبيه بهذه الزجاجة الموصوفة بهذه الصفة المشاركة بين نوره وبين نور هذه الزجاجة اذ لامناسبة بينهما بل كان ذلك من التشبيه الذى ينعكس بل الذى يتعين عكسه (وأما الحادى عشر) فى الهيئآت التى تقع عليها الحركات فهى عنده

أرباب هذا العلم على قسمين . أحدهما أن تعرف تغيرها من الاوصاف كالشكل واللون . الثانى أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها .. فمن الاول قول ابن المعتز

والشمسُ كالمرآةِ فى كفِّ الأشلِ

أراد أن يريك مع الاستدارة والاشراق الحركة التى تراها فى للشمس اذا أنعمت التأمل ثم ما يحصل فى نورها من أجل تلك الحركة وذلك أن للشمس حركة متصلة دائمة ولنورها بسبب ذلك تموج واضطراب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الاشل لان حركته تدوم وتتصل ويكون لها سرعة وبدوام الحركة يتموج نور المرآة وتلك حال الشمس لانك ترى شعاعها كأنه يهم أن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذى تراه الى الانقباض كانه يجمعه من جوانب الدائرة الى الوسط . وقد لمح هذا المعنى ابن سناء الملك فى أبيات هجا فيها الشمس قال فيها

لا كانتِ الشمسُ فكمْ أصْدأتْ ... صفحةَ خدٍّ كالحسامِ الصَّقيل
وكم وكم صدَّتْ بوادى الكرى ... طيفَ خيالٍ زارَنى من خليل
تكذبُ فى الوعدِ وبُرهانه ... أن سرابَ القفرِ منها سليل
وتحسبُ النهرَ حساماً فترتا ... عُ وتحكى فيه قلبَ الذليل

ومما يشبه التشبيه الاول وان صور فى عين المرآة قول المهلب بن أبى صفرة الوزير

الشمسُ منْ مُشرقها قدْ بدتْ ... مُشرقةً ليسَ لها حاجبُ
كأنها بُوتقةٌ أحميتْ ... يجولُ فيها ذهبٌ ذائب

وذلك أن الذهب الذائب يتشكل بشكل البوتقة على النار فانه يتحرك فيها حركة على الحد الذى وصفت لك وما فى طبع الذهب من النعومة وفى أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم يمنعه أن يقع فيها غليان كما فى الماء فيرتفع وسطه ارتفاعا شديداً وجملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ويكون فيها ما ذكرناه من الانبساط الى الجوانب ثم انقباض ومنها قوله

كأنَّ فى غُدرانها حواجبا

أراد ما يبدو فى صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ثم إنك تراها تمتد امتداداً ينقص من انحنائها وتحدبها وكأنها تنتقل من التقوس الى الاستواء وذلك أشبه شىء بالحواجب اذا بدت . والثانى ما يكون التشبيه فى هيئة الحركة فقط مجردة من كل وصف يقاربها وهناك أيضاً لابد من اختلاط حركات كثيرة فى جهات مفترقة مختلفة وكلما كان التقارب أكثر كان التركيب فى الهيئة المتحركة أكثر . وقد يقع التشبيه أيضاً بالسكون كقول الاخطل فى وصف مصلوب

كأنهُ عاشقٌ قد مدَّ صفحتَهُ ... يومَ الوداعِ الى توديعِ مُرتحلِ
أو نائمٌ منْ نعاسٍ فيه لوثته ... مواصلٌ لتمطيهِ من الكسلِ

فالطفه بسبب ما فيه من التفصيل ولو قال كأنه متمط من نعاس واقتصر عليه كان قريب التناول . وقد وقع فى القرآن العظيم آيات كثيرة شبه فيها الحركات بالحركات والسكون بالسكون . فمن ذلك قوله تعالى « وترى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهى تمرُّ مرَّ السحابِ » . وقوله « يكادُ البرقُ يخطفُ أبصارَهم » . وقوله تعالى « يومَ نطوى السماءَ كطىِّ السجلِّ للكتبِ » شبه سرعة سير الجبال مع سكون بسرعة سير السحاب مع سكون أيضاً وشبه سرعة وميض البرق بسرعة يد المختطف وشبه حركة التفاف جرم السماء بحركة التفاف جرم الكتاب بعضه على بعض وكذلك السكون . ومنه قوله تعالى « واتركِ البحرَ رهواً » والرهو الساكن شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل عند سكونها تقول العرب جاءت الخيل رهواً أى ساكنة فشبه البحر بها وذلك أنه قام فرقاه ساكنين فقال لموسى عليه الصلاة والسلام دع البحر ساكنا قائماً ماؤه كما أخبر الله سبحانه وتعالى « فأوحينا الى موسى أنِ اضربْ بعصاكَ البحرَ فانفلق فكانَ كلُّ فرقٍ كالطودِ العظيمِ » . (وأما الثانى عشر) فهو الفرق بين الاستعارة والتشبيه . ذهب جماعة من أهل هذا الشأن الى أن التشبيه والاستعارة شيئان وفرق الحذاق وقالوا إن التشبيه حكم إضافى لابد فيه من ذكر مشبه ومشبه به فانك اذا قلت ـ رأيتُ أسداً ـ فهو استعارة لم تذكر شيئاً حتى تشبهه بالأسد ولو كان تشبيهاً لتعيَّن أن تقول زيد أسد أو زيد كالأسد ولم يكن غرضك فى قولك زيد أسد إلا المبالغة

في مدح زيد بالشجاعة .. فرق ثان أن التشبيه لا يكون إلا بأداة التشبيه غالباً والاستعارة لا تحتاج الى أداة فانك اذا قلت — لعبتْ به يد الصبا — لم يكن كقولك — فلان له خلق كالصبا — .. فرق ثالث أن الاستعارة أوجز من التشبيه فانك اذا قلت — زيد أسد — أوجز من قولك — زيد في بسالة الأسد — فثبت على هذا التقدير أن التشبيه أحد غرضي الاستعارة

﴿ فصل ﴾

ومنها التمثيل .. قد أطلق علماء هذه الصناعة اسم التشبيه على كل تمثيل منتزع من أمور مجتمعة بتقييد البعض بالبعض وهو قريب من الاستعارة ومنه في القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « مَثَلُ الذين يُنفقون أموالَهم في سبيلِ اللهِ كمَثَلِ حبةٍ أنبتتْ سبعَ سَنابلَ في كلِّ سُنبلةٍ مائةُ حبةٍ » . وقوله تعالى « مَثَلُ ما يُنفقون في هذه الحياةِ الدُّنيا » الآية . ومن ذلك قوله تعالى « فمَثَلُه كمَثَلِ الكلبِ إنْ تحملْ عليه يلهثْ أو تتركْه » . وقوله تعالى « مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها » الآية ومثله في القرآن كثير .. ومن هذا النوع المثل السائر ومعنى السائر أنه كثر استعماله واستعماله على أن الثاني بمعنى الأول لأن ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعينة انها بمنزلة من قيل له هذا القول والأمثال كلها حكايات لا تغيَّر وهي أكثر من أن تحصى وقد صنف العلماء فيها كتباً وشرحوا معانيها والخوض في ذكرها يطول وقصدت الاختصار لا الاكثار .. ومن الامثال السائرة في الكتاب العزيز قوله تعالى « ليس لها من دون اللهِ كاشفةٌ » . وقوله تعالى « وترى الجبالَ تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحابِ » . وقوله تعالى « صبغةَ اللهِ ومن أحسنُ من اللهِ صبغةً » .. ومنه في السنة قوله صلى الله عليه وسلم الآن حمي الوطيس ورسول الله صلى الله عليه وسلم أول من فاه بهذا المثل ثم صار مثلا سائراً . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم إياكم وخضراء الدِّمَن . وفي غضون كلامه صلى الله عليه وسلم من هذا كثير .. وأما أشعار العرب فقد ورد فيها من ذلك كثير منها ما في البيت مثل واحد ومنها ما في البيت مثلان ومنها

ما فيه ثلاثة ومنها ما فيه أربعة ومنها ما فيه خمسة ومنها ما فيه ستة .. فأما ما فيه مثل واحد فكقول أبي فراس

تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ... ومَن طلبَ الحسناءَ لم يُغلِها المَهرُ

.. وقول أبي تمام

فلو صورتَ نفسكَ لم تزدْها ... على ما فيكَ من كرمِ الطباعِ

.. ومما جاء من الشعر فيه مثلان قول بعضهم

الله أنجحُ ما طلبتَ بهِ ... والبرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحلِ

في كل قسم منه مثل قائم بنفسه غير محتاج الى صاحبه .. ومنه قول الحطيئة

مَن يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ جوازيَهُ ... لا يذهبُ العُرفُ بين اللهِ والناسِ

.. وقول أبي فراس

ومَن لم يُوقِّ اللهُ فهو مُضيَّعٌ ... ومَن لم يُعزَّ اللهُ فهو ذليلُ

.. وقول المتنبي

وكلُّ امرئٍ يولي الجميلَ محبَّبٌ ... وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العزَّ طيِّبُ

.. وأما ما فيه ثلاثة أمثال فكقول زهير بن أبي سلمى

وفي الحلمِ إدهانٌ وفي العفوِ ذلةٌ ... وفي الصدقِ منجاةٌ من الشرِّ فاصدقِ

.. وأما ما فيه أربعة أمثال فكقول بعض العرب

فالهمُّ فضلٌ وطولُ العيشِ مُنقطعٌ ... والرزقُ آتٍ ورزقُ اللهِ مُنتظَرُ

.. وأما ما فيه خمسة فكقول الشاعر

خاطرْ تفُزْ وارتدْ تجدْ واكرمْ تَسُدْ ... وانقدْ تقُدْ واصغرْ تعُدَّ الأكبرا

.. وأما ما فيه ستة فكقول ابن اللبانة الأندلسي

تهْ أحتملْ واستطلْ أصبرْ وعزَّ أهُنْ ... وولِّ أقبلْ وقلْ أسمعْ ومُرْ أُطعِ

— والمثل — جمعه أمثال وسمي المثل مثلا لأنه ماثل بخاطر الانسان أي شاخص يتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو والشاخص المنتصب وهو من قولهم طللٌ ماثل أي شاخص وهذا رسمه اللغوي والذي تقدم في أول الباب حده الصناعي

القسم الثانى والعشرون

من المجاز

الايجاز والاختصار

وهو على قسمين وجيز بلفظه ووجيز بحذف (فأما الوجيز) بلفظه فهو عند أرباب هذه الصناعة أن يكون اللفظ بالتشبيه الى المعنى أقل من القدر المعهود عادة وسبب حسنه أنه يدل على التمكن فى الفصاحة والملكة فى البلاغة وحصول ملاذ كثيرة دفعة واحدة واللفظ لا يخلو إما أن يكون مساوياً لمعناه وهو المقدر أو أقل منه وهو المقصور .. أما المقدر فكقوله تعالى « إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والاحْسَانِ وإيتاءِ ذِي القُرْبى وَيَنهَى عنِ الفَحشاءِ والمُنْكَرِ والبَغي يَعِظُكُم لَعلَّكُم تَذَكَّرُون » أمر الله فى أول هذه الآية بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ونهى فى وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغى ووعظ فى آخرها وذكر فجمع فى هذه ضروباً من البيان وأنواعاً من الاحسان فذكر العدل والاحسان والفحشاء والمنكر بالألف واللام التى هى للاستغراق أى استغراق الجنس المحتوى على جميع أنواعه وضروبه وجمع فيها بين الطباق اللفظى والطباق المعنوى أما اللفظى ففى قوله — ان الله يأمر وينهى — . وأما المعنوى ففى قوله — العدل والاحسان وإيتاء ذى القربى — وقوله — الفحشاء والمنكر والبغى — فان الثلاثة الأواخر أضداد الثلاثة الأول لان الثلاثة الأول من الفعل الحسن والثلاثة الأواخر من القبيح فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية ثم بين خصوصية ذوى القربى باعادة الايصاء عليهم والايتاء لهم مع أن الامر بالاحسان قد تناولهم وبدأ بالعدل لانه فرض وتلاه بالاحسان لانه مندوب اليه وقد يجب فاحتوت الآية على حسن النسق وعطف الجمل بعضها على بعض فقدم العدل وعطف عليه الاحسان الذى هو جنس عام وخص منه نوعا خاصاً وهو ايتاء ذى القربى ثم أتى بالامر مقدماً وعطف عليه النهى بالواو ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات فى العطف بحيث لم يتأخر فى الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم عليه ما يجب تأخيره ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ودعا الى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا

وأشتات من الاوامر والنواهى والمواعظ والوصايا مالو بث فى اسفار عديدة لما اسفرت عن وجوه معانيها ولا احتوت على أصولها ومبانيها — سبحان من لا يشبه خلقه ذاتاً ولا كلاماً ولا إحكاماً ولا أحكاماً . وفى القرآن العظيم من هذا النمط كثير وقد وقع آيات كثيرة قلّت حروفها وكثرت معانيها وظهرت دلائل الاعجاز فيها مثل قوله تعالى « فإما تخافنَّ من قومٍ خيانةً فانبذ اليهم على سواء » . وقوله تعالى « ومن يُطعِ الله ورسوله وَيخشَ الله ويتّقهِ فأولئكَ هم الفائزون » . وقوله تعالى « من كفر فعليه كفرُه » . وقوله تعالى « قُتِلَ الانسانُ ما أكفرَهُ » . ومن ذلك فى السنة كثيرٌ كقوله صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات والمجالس بالامانات . وكقوله الضعيف أمير الركْبِ يعنى أنه ينبغى متابعته فى السير كما ينبغى متابعة أمير الركب وقد صرَّح بذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم سيروا سير أضعفكم . ومن ذلك فى أشعار العرب وخطبهم كثير وكثرته وشهرته أغنت عن ذكره (وأما المقصور) فاما أن يكون من نقصان لفظه عن معناه لاحتمال لفظه معان كثيرة أو لا يكون كذلك . الثانى كما فى قوله تعالى « خُذِ العفو وأمرْ بالعرْف واعرِضْ عن الجاهلين » . وكذلك قوله تعالى « أولئك لهم الامن وهم مهتدون » . وكقوله تعالى « ولكم فى القِصاص حَياةٌ » وهذا أحسن من قولهم القتل أنفى للقتل لوجوه سبعة . الاول أن قولهم القتل أنفى للقتل فى ظاهره متناقض لانه جعل حقيقة الشئ منافية لنفسه وان قيل ان المراد منه ان كل واحد من افراد هذا النوع ينفى غيره فهو أيضاً ليس أنفى للقتل قصاصاً بل أدعى له وانما يصح اذا خصص فقيل القتل قصاصاً أنفى للقتل فيصير كلاما طويلا مع أن التقييدات بأسرها حاصلة فى الآية . الثانى أن القتل قصاصاً لا ينفى القتل ظلماً من حيث انه قتل بل من حيث أنه قصاص وهذه الجملة غير معتبرة فى كلامهم . الثالث أن حصول الحياة هو المقصود الاصلى ونفى القتل انما يراد لحصول الحياة والتنصيص على الغرض الاصلى أولى من التنصيص على غيره . الرابع أن التكرار عيب وهو موجود فى كلامهم دون الآية . الخامس أن حروف — فى القصاص حياة — اثنا عشر وحروف — القتل أنفى للقتل — أربعة عشر . السادس أنه ليس فى كلامهم كلمة يجمع فيها حرفان متلاصقان متحركان الا في موضع

واحد بل ليس فيها الاسباب حقيقة متوالية وقد عرف أن ذلك مما ينقص من سلاسة الكلام بخلاف الآية . السابع أن الدافع لصدور القتل عن الانسان كراهته لذلك وصارفه القوى عنه حتى انه ربما يعلم أنه لو قَتَل قُتِلَ ثم لا يرتدع وانما رادعه القوى هو إما الطمع فى الثواب أو الذكر الجميل واذا كان كذلك فليس أنفى الاسباب للقتل هو القتلُ بل الانفى لذلك هو الصارف القوى . وقوله تعالى — فى القصاص حياة — لم يجعل القصاص مقتضياً الحياة على الاطلاق بل الحياة منكرة والسبب فيه ان شرعية القصاص تكون رادعة عن الاقدام على القتل غالباً . ثم لتعلم أن فى هذا التنكير فائدة أخرى لطيفة وهى أن الانسان اذا علم أنه اذا قَتَلَ قُتِلَ ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه فصارت حياة هذا الموهوم قتله فى المستقبل مستفادة بالقصاص وصار كأنه قد حيي فى بقى عمره ولذلك وجب التنكير وامتنع التعريف من جهة أن التعريف يقتضى أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها وليس الأمر كذلك . ومثل هذا التنكير قوله تعالى « ولَتجِدَنَّهم أحرَصَ الناس على حَياةٍ » وفائدة التنكير أن الحريص لابدّ وأن يكون حيا وحرصه لا يكون على الحياة الماضية والراهنة بل على الحياة المستقبلة ولمّا لم يكن الحرص متعلقاً بالحياة على الاطلاق بل بالحياة فى بعض الاحوال لا جرَم جاءت بلفظ التنكير .. واعلم أن للتنكير فى قوله تعالى — فى القصاص حياة — فائدة أخرى وهى أن الرجل قد يرتدع بالقصاص حتى لا يقدم على القتل لكن من الجائز أن لا يكون للانسان عدوٌّ فيقصد قتله حتى يمنعه خوف القصاص وحينئذ لا تكون حياة ذلك الانسان لأجل الخوف من القصاص ولما دخل الخصوص فى هذه القصة وجب أن يقال حياة ولا يقال الحياة وكذلك يقال شفاءٌ ولا يقال الشفاء فى قوله تعالى « يخرُجُ من بُطونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانهُ » حيث لم يكن شفاءً للجميع .. ومن بديع هذا النوع أن أبا جعفر المنصور سأل معن بن زيا أيما أحبّ اليك دولتنا أو دولة بنى أمية فقال ذلك اليك ومعناه أن زيادة هذه المحبة ونقصانها بيدك لانها على قدر احسانك . والفرق بين هذا القسم وبين المتقدم وهو أن يكون نقصان اللفظ لاجل احتماله معانى كثيرة وذلك كاللفظ المشترك أو الذى له مجازات أو حقيقة ومجاز اذا

أريدت معانيه كما فى قوله تعالى « إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلّونَ على النبىّ » والصلاة من الله تعالى رحمة ومن الملائكة استغفار . وكذلك قوله تعالى « إنَّ اللهَ يَسجدُ له مَن فى السموات ومَن فى الارضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدّوابُّ » والسجود من الناس وضع الجبهة على الارض وهو حقيقة شرعية وأيضا الخشوع وهو حقيقة لغوية ومن غير الناس الانقياد لصنع الله تعالى وهو مجاز .. ومن ذلك قول المتنبى

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَن باتَ حاسداً ... لمَن باتَ فى نعمائهِ يتقلّبُ

وهذا يحتمل ثلاثة معان . الأول من بات فى نعماء المحسود . الثانى من بات فى نعماء الحاسد . والثالث من بات فى نعماء غير الحاسد والمحسود فيكون ذلك مدحا للذى يبيت فى نعمائه وبيانه أن كل أحد يتمكن من تحصيل تلك النعمة بمدح هذا المنعم فيكون حينئذ ممن أنعم عليه (وأما الوجيز بالحذف) فالكلام عليه من وجوه . الأول المعنى الذى حسن الحذف من أجله . الثانى فى فائدته . الثالث فى شرطه . الرابع فى أقسامه . الخامس فى توابعه . السادس فيما يقبح منه .. أما الأوّل فان المعنى الذى حسن الحذف من أجله طلب الايجاز والاختصار وتحصيل المعنى الكثير فى اللفظ القليل .. وأما الثانى ففائدته زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد وأكثر وكان ذلك أحسن .. وأما الثالث فشرطه أن يكون فى اللفظ دلالة على المحذوف وإلا لم يتمكن من معرفته فيكون اللفظ مخلا بالفهم وتلك الدلالة قد تحصل من اعراب اللفظ وذلك كما اذا كان منصوبا فيعلم أنه لابد له من ناصب واذا لم يكن ظاهراً لم يكن بُد من أن يكون مقدَّراً وذلك كقولنا — أهلاً وسهلاً ومرحباً — ومعناه وجدتَ أهلا وسلكتَ سهلا وصادفتَ رُحباً . ومنه فى القرآن كثير كقوله تعالى « الحمدَ لله » على قراءة من قرأ بالنصب . وقوله تعالى « واتقوا اللهَ الذى تساءلون به والأرحامَ » والتقدير أحمدُ الحمدَ أو أقرأ الحمد واحفظوا الأرحام . وقوله تعالى « صِبغةَ اللهِ ومَن أحسنُ من اللهِ صبغةً » وقوله تعالى « مِلّةَ إبراهيمَ » وفى القرآن منه كثير وفى الكلام الفصيح منه كثير وكثرته تغنى عن ذكره . غير أن سيبويه ذكر منه أشياء جعلها حجة فى الباب . من ذلك

قول العرب ـ اللهم ضبعاً وذئباً ـ أى اجمل فيها ضبعاً وذئباً • وقول بعضهم حين قيل له لِمَ أفسدتم مكانكم فقال ـ الصبيانَ بأبى ـ أى لُمِ الصبيان • ومنه ما قدمناه أولا وهو أهلا وسهلا ومرحباً • وقد تحصل تلك الدلالة بالنظر فى المعنى والعلم بأنه إنما يتم بمحذوف مقدَّر وهذا يكون أحسن من الاول لزيادة غموضه كما فى قولهم فلان يَحُلُّ ويَرْبُط ومعناه أنه يحل الأمور ويربطها أى ذو تصرف • وقد عقد بعض علماء هذه الصناعة عقداً فقال اللفظ المحذوف إما أن يكون مفرداً أو مركباً فان كان مفرداً فسيأتى بيانه وان كان مركباً فإما أن يكون كلاماً مفيداً أو لا يكون كذلك فهذه ثلاثة أقسام الاول أن يكون كلاماً مفيداً وهذا أحسن والكلام المفيد المحذوف قد يكون قليلا وهو على وجهين • أحدهما أن يكون المحذوف استفهاماً ويسمى ما يدلّ عليه استئنافا وهذا إما أن يكون باعادة اسم أوصفة أولا يكون كذلك اما الذى باعادة اسم فكما اذا أعقب اسم من تقدَّم الحديث عنه كقولنا أحسنتَ الى زيدٍ زيدٌ أحقّ باحسانك . وقولنا ـ زيدٌ أحق باحسانك ـ جواب عن سؤال كأنه قيل وما وجه الاحسان الى زيد فقيل زيد أحق باحسانك فيكون هذا السؤال محذوفا •• وأما الذى باعادة صفة فكقولنا أحسنتَ الى زيد صديقك القديم هو أحق بذلك • تقديره وما وجه الاحسان الى زيد فتقول ـ لانه صديقك القديم ـ وهذا أحسن من اعادة الاسم لاشتماله على سبب الاحسان •• وأما الذى ليس كذلك فكقوله تعالى « الٓمٓ ذلك الكتابُ لا رَيبَ فيه » الى قوله « وأولئك هم المفلحون » فقوله ـ أولئك على هدىً من ربهم وأولئك همُ المفلحون ـ استئناف وهو جواب لسؤال مقدَّر كأنه قيل وما يحصل لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات فقيل انهم على هدى من ربهم وانهم مفلحون وكذلك قوله تعالى « إنى آمنتُ بربكم فاسمعونِ قيلَ ادخلِ الجنةَ » فقوله ـ قيل ادخل الجنة ـ جواب عن سؤال كأنه قيل وما فُعلَ بهذا فقيل قيل له ادخل الجنة وانما لم يقل قيل له لأن ذلك معلوم • وكذلك قوله تعالى « قلْ يا قومِ اعملَوا على مَكانتكم » فان قرئ « فسوفَ تعلمون » لم يكن فيه استئناف وان قرئ سوف تعلمون كان ذلك كأنه قيل وم يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملتَ أنت على مكانتك

فقيل « سوف تعلمون مَن يأتيهِ عذابٌ يخزيهِ » • وثانيها أن لا يكون المحذوف استفهاماً وذلك كما اذا كان مسبباً وقد دلّ عليه سببه كقوله تعالى « وما كنتَ بجانبِ الغربىّ إذْ قضينا الى موسى الأمرَ وما كنتَ من الشاهدِين » كأنه قال وما كنت من الشاهدين لما جرى لموسى عليه ولكنا أوحينا اليك وسبب هذا الوحى أنّا أنشأنا قرونا الى زمانك فتطاولَ عليهمُ العُمُرُ أى مدة الفترة فنُسى ما كان جرى فأوحينا اليك فيكون المحذوف هو السبب والمذكور الدال عليه هو سببه • وكذلك قوله تعالى « وما كنتَ بجانب الطورِ إذْ نادَينا » •• (وأما الرابع فى أقسامه) أما أقسامه فقد تظافرَت أقوال أرباب علم البيان على أن المحذوفات على قسمين حسنة وقبيحة • أما القبيحة فهو أن يخلّ المحذوف بالمعنى أو يحطه عن رتبته وسيأتى بيانه • وأما الحسنة فهى على قسمين . جملٌ . ومفردات • فأما الجمل فهى على قسمين . موجزة . ومطولة •• فالموجزة مثل قوله تعالى « واللائى يَئِسْنَ من المحيضِ من نسائكم إنِ ارتبتمْ فعِدَّتُهُنَّ ثلاثةُ أشهرٍ واللائى لم يَحِضنَ » تقديره واللائى لم يحضن فعدتهن كذلك • وقد تقدم فى الفصل الذى قبل هذا من نظائره كثير والقرآن العظيم مشحون به •• وأما الجمل المطولة فكقوله تعالى « إذهبْ بكتابى هذا فألقِهِ اليهمْ » الآية . فأعقبه بقوله حكاية عنها « قالتْ يا أيها الملأُ إنى أُلقيَ إلىَّ كتابٌ كريمٌ » تقديره فأخذ الكتاب فألقاه اليهم فرأته المرأة بلقيس وقرأته ـ وقالت يا أيها الملأُ ـ ومن ذلك قوله تعالى « يا يَحيى خذِ الكتابَ بقُوّةٍ وآتيناهُ الحُكمَ صبيًّا » فيه محذوف مطوّل تقديره فلما وُلد يحيي ونشأ وترعرع قلنا له ـ يا يحيي خذ الكتاب بقوة ـ •• ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « لن نَبرَحَ عليه عاكِفين حتى يرجع الينا موسى قال يا هرونُ ما مَنعكَ إذْ رأيتَهُمْ ضلّوا ألاّ تتَّبعنى أفعصيت أمرى » تقديره فلما جاءهم موسى ووجدهم على تلك الحالة ـ قال يا هرون ـ • ومن ذلك قوله تعالى « فلما رآهُ مُستقِرًّا عندَهُ قال هذا من فضل ربى » الى قوله « قال نكّرُوا لها عرشَها » • ومن ذلك قوله تعالى « أفَمَن شرَحَ اللهُ صدرَهُ للاسلام فهو على نورٍ من ربهِ » فيه محذوف تقديره أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى

قلبه وتركه على ظلمة من كفره ودل على المحذوف قوله تعالى «فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم عن ذكرِ اللهِ» وذلك فى القرآن العظيم كثير جداً (وأما المفردات) فهى ثلاثة أقسام . أسماءٌ . وأفعالٌ . وحروفٌ . أما الاسماء فهى أنواعٌ . الاول حذف الفاعل وقد اختلف فى حذفه فنص على منع حذفه ابن جنى وكثير من النحويين والحق جوازه اذا وُجد ما يدلّ عليه كقوله تعالى «كلاّ اذا بلغتِ التراقىَ» تقديره اذا بلغت الروح التراقى . ومنه قوله تعالى «حتى توارتْ بالحجابِ» تقديره حتى توارت الشمس ومن ذلك قوله تعالى «فلما جاء سليمانَ» تقديره فلما جاء الرسول سليمان . الثانى حذف المفعول وهو على ثلاثة أقسام . الاول حذفه من كل فعل ليس له مفعول معيَّن بل يكون المقصود من الكلام بيان حال الفاعل فقط . ومنه قوله تعالى «هل يستوى الذين يعلمونَ والذين لا يعلمون» أى هل يستوى ذو العلم ومن لا علم له . وفى مثل هذا يتعين أن لا يُعدّى الفعل لفظاً ولا تقديراً ويكون حاله كحال غير المتعدى فان عدّيته تخصه بما تعدّيه اليه فينقص الغرض . ومن ذلك المحذوف من الافعال التى لها مفعول معيَّن وحذفه لأمور . الأول أن يكون المراد بيان حال الفاعل وأن ذلك دأبه لا بيان حال المفعول . مثاله قوله تعالى «ولمّا وردَ ماءَ مدينَ وجدَ عليه أمّةً من الناس يسقون» الى قوله «فسقى لهما» فحذف المفعول من أربعة مواضع إذ لو أضافه الى الغنم مثلا لتوهم أن الانكار انما جاء من ذود الغنم لا من مطلق الذود كما تقول مالك تمنع أخاك . وكلٌّ مخلٌّ بالمقصود ومثله قول الشاعر

همُ خلطونا بالنفوسِ وألجؤا ... الى حُجُراتٍ أدفأتْ وأظلّتِ

أراد ألجؤنا وأظلتنا وأدفأتنا فحذف فكأنه قد أبهم أمره ولم يقصد شيئاً يقع عليه فلو قال أدفأتنا وأظلتنا لكان الأمر مختصاً بهم وبطل الغرض . الثانى أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره ايهاماً بأنك لا تقصد ذكره كقول البحترى

شجوُ حُسّاده وغيظُ عُداهُ ... أنْ يرى مُبصرٌ ويسمعَ واعِ

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنه ويسمع واعٍ أخباره .. الثالث أن يحذف لكونه مبيناً كقولك — أصغيتُ اليك — أى أذنى . و — أغضيتُ عنك — أى جفنى .. وقال

ابن الاثير حذف المفاعيل على قسمين . الاول حذف مفاعيل غلب حذفها على اثباتها كمفعول المشيئة والارادة فى باب الشرط وباب لَوْ أو كمفعول الاقسام . فأما حذف مفعول المشيئة والارادة فى باب لو وباب الشرط ففى القرآن العظيم منه كثير . منها قوله تعالى «ولو شاء اللهُ ما اقتتلوا» تقديره ولو شاء الله أن لا يقتتلوا ما اقتتلوا فحذف مفعول المشيئة لدلالة ما بعده عليه . ومنه قوله تعالى «ولو شاء لهداكم» تقديره ولو شاء الله هدايتكم كلكم لهداكم أجمعين . ومنه قوله تعالى «ولو شاء اللهُ ما فعلوهُ» ومثله فى القرآن كثير . وقد(١) ومنه قوله تعالى «لو أردنا أن نتخذَ لهواً لاتخذناهُ من لدُنّا» . ومنه قوله تعالى «لو أرادَ اللهُ أنْ يتخذَ ولداً» .. وقد ظهر مفعول المشيئة فى قول الشاعر

ولو شئتُ أنْ أبكي دماً لبكيتُهُ ... عليكَ ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوسعُ

.. وأما حذف مفعول الافساد فمنه قوله تعالى «إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المفسدين» . وقوله تعالى «وإذا قيلَ لهم لا تفسدوا فى الأرضِ قالوا إنما نحنُ مُصلحون» . وقوله تعالى «يُفسدون فى الأرضِ ولا يُصلحون» . وقوله تعالى «ولا تفسدوا فى الارضِ بعد إصلاحِها» وهو كثير .. الثانى ما يحذف لدلالة السياق عليه . فمنه قوله تعالى «يَبسُطُ الرزقَ لمَن يشاء ويَقدِرُ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون» تقديره ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله القابض الباسط . وقوله تعالى «وما يخادعون إلاّ أنفسَهم وما يَشعُرُون» تقديره وما يشعرون أنهم لأنفسهم يخادعون ونحوه (ونذكر) هاهنا قاعدة ينبنى عليها حكم الفاعل والمفعول وهو أن العرب ينظرون الى مقصود الافادة فى هذا الباب ونحوه فان كان المقصود نسبة الفعل الى الفاعل اقتصروا عليه فقالوا — فلان يُعطى ويمنع ويصل ويقطع . والله يحيى ويميت — لانه ليس الغرض ذكر المعطى والممنوع والموصول والمقطوع والمحيا والممات ولكن الغرض وصف الفاعل بهذه الافعال . فان كان الغرض ذكر المفعول لا غير لم يتعرّضوا للفاعل كقوله تعالى

---

(١) كذا فى الأصل .. والظاهر أنه أراد وأما حذف مفعول الارادة فى باب الشرط وباب لو ففى القرآن منه كثير ومنه الخ

«قُتِلَ الخرّاصون» . وقوله تعالى «قُتِلَ الانسانُ ما أكفَرَه» . وقوله تعالى
«كُبِتوا كما كُبِتَ الذين من قبلهم» . وقوله تعالى «أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا»
وقوله تعالى «لُعِنوا بما قالوا» ليس الغرض من هذا ذكر الكابت ولا القاتل ولا
اللاعن ولا المبسل وانما الغرض نسبة القتل واللعن والكبت والابسال الى المذكورين
. وان تعلق الغرض بالفاعل والمفعول أتوا بهما كقوله تعالى «خَلَقَ اللهُ السمواتِ
والارض» . وقوله «وخَلَقَ كلَّ شئ» . وقوله «بل لعَنَهمُ اللهُ بكفرهم» .
وقوله «فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم» .. ومن ذلك حذف ضمائر الموصولات . ومنه
قوله تعالى «أهذا الذي بَعَثَ اللهُ رسولا» تقديره أهذا الذي بعثه الله رسولا .
وقوله تعالى «إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنمَ» تقديره إنكم وما
تعبدونه أو تعبدونهم . وقوله تعالى «وما ذَرَأ لكم في الارض» تقديره وماذرأه .
وقوله تعالى «وما خلقَ اللهُ من شئ» تقديره خلقه الله . ومنه في القرآن العظيم
كثير .. الثالث حذف المضاف تارة والمضاف اليه أخرى وإقامة أحدهما مقام الآخر
.. أما حذف المضاف فكقوله تعالى «واسألِ القريةَ التي كنّا فيها» وكذلك «إذا
فُتِحتْ يأجوجُ ومأجوجُ» أي فتحت سُدَدُهم . وربما نكرت المحذوف كما في قوله
«فقبضتُ قبضةً من أثرِ الرسولِ» يريد من أثر حافر فرس الرسول .. ومنه
قول الشاعر

اذا قامتا تضوّعَ المسكُ منهما ... نسيم الصّبا جاءت بريّا القرنفل

.. وأما حذف المضاف اليه فهو أقلّ استعمالا . ومنه قوله تعالى «للهِ الأمرُ من قبل
ومن بعدُ» أي من قبل ذلك ومن بعده .. الرابع حذف الصفة تارة وحذف الموصوف
أخرى . أما حذف الصفة فكقول النبي صلى الله عليه وسلم لا صلاة لجار المسجد إلا
في المسجد . أي لا صلاة تامة أو كاملة . وأما حذف الموصوف فأكثره في النداء
والمصدر .. أما النداء ففي قوله تعالى «ياأيها الساحر» تقديره يا أيها الرجل الساحر
. وكذلك «يا أيها الذين آمنوا» تقديره يا أيها القوم الذين آمنوا . وقوله تعالى
«يا أيها المؤمنون» تقديره يا أيها القوم المؤمنون .. وأما المصدر فكقوله تعالى

«ومَن تابَ وعَمِلَ صالحاً» وقد يجئ في غير النداء كما في قول البحتري

في أخضرٍ ماس على اصفر ... يختالُ في صبغتهِ وَرْسُ

يريد على فرس أصفر .. الخامس حذف الشرط تارة وحذف الجزاء أخرى واقامة
أحدهما مقام الآخر .. أما حذف الشرط فكقوله تعالى «يا عبادي الذين آمنوا إنّ
أرضي واسعةٌ» أي فاذا كنتم في أرض لا تمكنوا فيها من عبادتي فإياي فاعبدون في
غيرها . وقوله تعالى «فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففديةٌ» أي فان
لم يحلق فعليه فدية .. وأما حذف جزاء الشرط فكقوله تعالى «قل أرأيتم ان كان
من عند الله وكفرتم به» معناه ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين.
ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى «إنّ اللهَ لا يهدي القومَ الظالمين» .. السادس
حذف القسم تارة وجوابه أخرى .. أما حذف القسم فكقولك لأضربن زيداً . أي
والله لأضربنّ زيداً . وكقوله تعالى «وإن منكم إلا وارِدُها» تقديره وإن منكم والله
إلا واردها . ولهذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله لن يَرِدَ النار الا تحلة القسم . ومنه
قوله تعالى «لتُبلَوُنّ في أموالكم وأنفسكم» . وقوله تعالى «لترَوُنّ الجحيمَ» وهو في
القرآن العظيم كثير .. أما حذف جواب القسم فكقوله تعالى «والشفعِ والوترِ
والليلِ اذا يَسْرِ هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْر» معناه وحق هذه لأعذبن هؤلاء .
يدل على المحذوف قوله تعالى «ألم ترَ كيف فعلَ ربُّك بعادٍ» . وقوله تعالى «ق والقرآنِ
المجيدِ بل عجبوا أن جاءهم مُنذرٌ منهم فقالَ الكافرون هذا شئٌ عجيبٌ» معنى
ـ ق والقرآن المجيد ـ لتبعثنّ ويدل على ذلك قوله «أإذا مِتنا وكنّا تراباً ذلك رَجعٌ
بعيدٌ» .. السابع حذف جواب ـ لو ـ وهو في القرآن كثير . من ذلك
قوله تعالى «ولو ترى إذ فزِعوا فلا فوتَ وأُخِذوا من مكانٍ قريب» تقديره
لرأيت أمراً هائلا ونحو ذلك . وكذلك قوله تعالى «لو أنّ لي بكم قوةً أو آوي الى
رُكنٍ شديدٍ» تقديره لمنعتكم ونحو ذلك . وكذلك قوله تعالى «ولو أن قرآناً
سُيّرت به الجبالُ» تقديره لكان هذا القرآن .. الثامن حذف جواب ـ لولا ـ
كقوله تعالى «ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنّ اللهَ توابٌ حكيمٌ» تقديره لما

أنزلَ عليكم ستر هذه الفاحشة . وكذلك قوله تعالى « ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّ اللهَ رؤوفٌ رحيمٌ » تقديره لعجل لكم العذاب . ويدل على المحذوف فى هاتين الآيتين ما تقدمهما .. التاسع حذف جواب — لمّا — وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « فلما أسلما وتلَّهُ للجبين وناديناهُ أن يا ابراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا » تقديره كان ما كان من اغتباطهما بما أنعم الله عليهما من دفع ذلك البلاء .. العاشر حذف جواب — أمّا — كقوله تعالى « فأما الذين اسودَّتْ وُجوهُهم أكفرتمْ بعد إيمانكم » تقديره فيقال لهم — أكفرتم بعد ايمانكم — .. الحادى عشر حذف جواب — اذا — كقوله تعالى « واذا قيلَ لهمُ اتقوا ما بين أيديكم وما خلفَكم لعلّكم ترُحمون وما تأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربهم الاّ كانوا عنها مُعرِضين » تقديره — واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون — أعرضوا — وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الاّ كانوا أيضاً عنها معرضين — (قال المصنف عفا الله عنه) هذه الأجوبة المحذوفة بعضها يصلح أن يكون فى باب حذف الجمل وبعضها يصلح أن يكون فى باب الافعال لكن الأئمة أوردوها هكذا فأوردناها كما أوردوها والمتأمل اللوذعى لايخفى عليه ذلك .. الثانى عشر حذف المبتدأ تارة والخبر أخرى .. أما حذف المبتدأ فكقول المستهل — الهلال والله — معناه هذا الهلال . وكذلك قول من شمّ رائحة طيبة — المسك والله — وكذلك من رأى شخصاً فقال — عبدُ الله وربِ الكعبة — أى هذا عبد الله . وحذف المبتدأ فى القرآن العظيم كثير . منه قوله تعالى « وقالوا ساحرٌ كذّابٌ » تقديره فقالوا — هذا ساحر كذاب — ومنه « الاّ قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ . وقالوا أساطيرُ الأوّلين » .. وأما حذف الخبر فكقول بعضهم — خرجتُ فاذا السبعُ — تقديره قائم أو رابض . وهو فى القرآن كثير . من ذلك قوله تعالى « وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم . والمحصَناتُ من المؤمناتِ » تقديره والمحصنات من المؤمنات كذلك وقول الله تعالى « فصبرٌ جميلٌ » شاهد للوجهين يجوز أن يكون من باب حذف الخبر ومن باب حذف المبتدأ فان جعلته من حذف المبتدأ كان التقدير فالأمر أو فأمرى صبر جميل وان جعلته من باب حذف الخبر يكون التقدير

فصبر جميل أجمل .. وقد يحذفان جملة وهو قليل . ومنه قوله تعالى « واللائى يئسن من المحيضِ من نسائكم إنِ ارتبتم فعِدّتهُنَّ ثلاثةُ أشهرٍ واللائى لم يَحِضنَ » تقديره واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر (وأما الافعال) فحذفها على قسمين . الأول مادل على حذفه بيان مفعوله كما فى قوله تعالى « ناقةَ اللهِ وسُقياها » وكقول النبى صلى الله عليه وسلم لجابر وقد تزوّج — هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك — أى هلا تزوجت جارية بكراً . وكذلك قولهم — أهلكَ والليلَ — أى أدرك أهلك وبادر الليل . ومنه فى القرآن كثير . الثانى ما لا يدل عليه مفعوله ولكن يعرف بالنظر كقوله تعالى « وعُرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا » . وقوله تعالى « ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم » معناه فقيل فقد جئتمونا . وكذلك « ويومَ يُعرَضُ الذين كفروا على النارِ أذهبتم طيّباتِكم » وكذلك « فأجمِعوا أمرَكم وشركاءَكم » والمراد فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم . وكذلك قوله تعالى « فاذا لقيتمُ الذين كفروا فضربَ الرِّقابِ » أى فاضربوا رقابهم ضربا . وكذلك قوله تعالى « وقالَ الملِكُ ائتونى به أستخلِصهُ لنفسى فلمّا كلّمَهُ قالَ إنك اليومَ » تقديره فأتوه به — فلما كلمه — (وأما) حذف فعل الأمر فله مثال واحد كقوله تعالى « انما أمِرتُ أن أعبُدَ ربَّ هذه البلدة » . وقوله تعالى « أفغيرَ اللهِ أبتغى حَكما » تقديره قل — أفغير الله أبتغى حكما — (وأما الحروف) أعنى حذف الحروف التى لها معان وليست حروف الهجاء التى تكلم النحويون على اثباتها وحذفها وابدالها لأنهم أرادوا بذلك تصحيح الألفاظ وردّها الى أصولها وليس هذا من غرضنا فى هذا الكتاب انما غرضنا الحروف التى يفيد حذفها واثباتها معنىً لم يكن .. وهى عند علماء البيان على قسمين . مفردة ومركبة (فالمفردة) مثل — الواو — التى حذفها مع ما فيه من الايجاز يجعل للكلام بلاغة ويكون فى معناه أشد وذلك لأن اثباتها يقتضى تغاير المعطوف والمعطوف عليه فاذا حُذِفت أشعر ذلك بأن الكل كالشئ الواحد . ومن ذلك قول أنس بن مالك رضى الله عنه — كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ينامون ثم يصلون لا يتوضؤن — اثبات الواو أدل على عدم الوضوء من قوله — لا يتوضؤن — . ومن هذا النوع قوله تعالى « يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم » تقديره ولا يألونكم خبالا وقد بدت البغضاء . وقد ثبت الواو فيما من شأنه أن لا يكون فيه واو فيكون ذلك أيضاً أبلغ وأحسن كما فى قوله تعالى « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتابٌ معلوم » ﴿ وأما المركب ﴾ فكثير وهو على أقسام . الاول حذف – لا – فى قوله تعالى « تالله تفتأ تذكرُ يوسف » تقديره لا تفتأ تذكر يوسف أى لا تبرح . ومنه قوله تعالى « وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعامُ مسكين » تقديره وعلى الذين لا يطيقونه على قول بعض المفسرين . ومثله فى القرآن العظيم كثير . ومنه قول امرىء القيس

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً   ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

معناه لا أبرح قاعداً . الثانى حذف – لو – وهو فى قوله تعالى « ما اتخذ اللهُ من ولد وما كان معهُ من إلهٍ إذاً لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولعلا بعضُهم على بعض » تقديره لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق . وقوله تعالى « وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطُّه بيمينك اذاً لارتابَ المبطلون » معناه لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون . ومن هذا النوع قول الشاعر

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبح ابلى   بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذاً لقام بنصرى معشرٌ خُشُنٌ   عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

تقديره اذاً لو كنت منهم لقام بنصرى

﴿ الحذف القبيح ﴾ وسبب قبحه اخلاله بالمعنى . قال ابن الاثير ومن الحذف أيضاً المخل بالمعنى وهو يطلق على ما يحذف من أصل اللفظ وهو اسقاط بعض حروفه ولا يجوز استعماله فى القرآن العظيم ولا فى التأليف لكنه يجوز فى الشعر لأن العرب قد أوردته فى أشعارها واستعملته فى كلامها فحذفت بعض الالفاظ استخفافا حذفا لا يخل بالباقى وتعرّض بالشبهة . فمنها قول علقمة

كأنّ ابريقهم ظبىٌ على شرفٍ   مُفدَّمٌ بسبا الكتان ملثومُ

فقوله – بسبا الكتان – يريد بسبائب الكتان . وكذلك قول لبيد

* درسَ المنا بمتالعٍ فأبان *

أراد المنازل . وعلى نحو من هذا جاء قول أبى دؤاد

يذرينَ جندلَ جائرٍ بجنوبها   فكأنما تذكى سنابكها الحُبا

أراد الحباحب – والحباحب – طائر على مثال الجندب الصغير يرى منه نور ضعيف ليلا . وهذا وأمثاله قليل جداً واياك أيها المؤلف أن تستعمله فى كلامك وان كان جائزاً وقد ورد فى أشعار العرب مثله ﴿ قال المصنف عفا الله عنه ﴾ هذا الذى ذكره ابن الاثير فيه نظر لانه قد صح عن ابن عباس وجماعة من أكابر الصحابة والسلف الصالح أن هذه الحروف التى فى أوائل السور كل حرف منها دال على كلمة حذف أكثرها ودل هذا المنطوق به على المحذوف . وقالوا ان معنى « الم » أنا الله الملك . وقالوا فى « كهيعص » أن الكاف من كافٍ والهاء من هاد . واستدلوا على ذلك بأن العرب استغنت بذكر حرف من الكلمة عن ذكرها فى كثير من كلامها وأشعارها ففهمت المراد من ذلك الحرف . ومنه قول الشاعر

جاريةٌ قد وعدتنى أن تا   تدهنَ رأسى وتفلى أو تا

أراد أن تأتى وتدهن رأسه وتفلى أو تمسح . وقال آخر

نادوهم أن ألجموا ألا تا   قالوا جميعاً كلهم ألا فا

.. وقال آخر

قلتُ لها ألا قفى قالت قاف   لا تحسبنّ أنا نسينا الالحاف

أى قف أنت . ومثل هذا فى أشعار العرب وكلامهم كثير واذا كثر استعماله كان من الكلام الفصيح معدوداً وحسن فى التركيب وكلما بعد غور الكلمة واستعجم معناها كان فهمه بأول وهلة دليلا على صحة الأفهام وجودة الغرائز وسلامة الطباع وحسن موقع اللفظ به

﴿ فصل ﴾

ومن أنواع المحذوف أن يكون اللفظ مركباً ولكن ليس بكلام وذلك كقوله

تعالى « قال كذلك قال ربكِ هو علىَّ هيّنٌ ولنجعله آيةً للناس » تقديره وجعلناه لنجعله آية للناس فيكون المحذوف ههناهو السبب والدال عليه هو سببه ٠٠ وقد يكون بعكس هذا كما فى قوله تعالى « فاذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ باللهِ من الشيطانِ الرجيم » تقديره واذا أردت قراءة القرآن فالمحـذوف هنا الارادة وهى سبب القراءة ويجوز أن يكون التقدير واذا قرأت القرآن وحضرك الشيطان فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم

القسم الثالث والعشرون

﴿ فى التقديم والتأخير ٠ والـكلام عليه من وجوه ثلاثة ﴾

الاول فى ذكر المعنى الذى أتى به من أجله ٠ الثانى فى هل هو من المجاز أم لا ٠ الثالث فى أقسامه ﴿ أما الاول ﴾ فانهم أتوا به دلالة على تمكنهم فى الفصاحة وملكتهم للكلام وتامهم به وتصرفهم فيــه على حكم ما يختارونه وانقياده لهم لقوة ملـكتهم فيه وفى معانيه ثقة بصفاء اذهانهم وغرضهم فيه أن يكون اللفظ وجيزاً بليغاً وله فى النفوس حسن موقع وعذوبة مذاق ﴿ وأما الثانى ﴾ فقد اختلف أرباب علم البيان فيه ٠٠ فقال قوم هو من المجاز لأن فيه تقديم مارتبته التأخير كالمنقول وتأخير مارتبته التقديم كالفاعل والمفعول به فى نقل كل واحد منهما على رتبته وحقه ٠٠ وقال قوم ليس هو من المجاز لأن المجاز نقل مما وضع له الى ما لم يوضع له ﴿ وأما الثالث ﴾ فقال علماء هذا الشان اقسامه أربعة ٠٠ وقالوا التقديم والتأخير لايخلو إما أن يكون موجباً لزيادة فى المعنى أولا يكون كذلك وإما أن يكون ما قدم الاولى به التقديم أوالاولى به التأخير أويتكافأ الامران فيه ٠٠ أما الاول فهو ما يلزم فيه زيادة معنى فلايخلو إما أن يكون المقصود بتقديمه زيادة المعنى خاصة كقوله تعالى « إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ » فانّ المقصود بتقديم ـ اياك ـ تعظيم الله سـبحانه وتعالى والاهتمام بذكره مع افادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله تعالى ليصير الكلام حسناً متناسقاً ولو قال نعبدك ونستعينك لم يكن الكلام متناسباً ٠ وكذلك

قوله تعالى « وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ الى ربها ناظرةٌ » فان هـذا مع افادته ان نظرها لا يكون الا الى الله تعالى يفيد فى جودة انتظام الكلام ٠ وكذلك قوله تعالى « والتفت الساقُ بالساقِ الى ربّك يومئذٍ المساقُ » ٠ وأما ما يراد بتقديمه زيادة المعنى فقط ٠ فمنه تقديم المفعول فى قوله تعالى « قلْ أفغيرَ اللهِ تأمرونى أعبدُ أيها الجاهلونَ » ٠ وكذلك « بل اللهَ فاعبـدْ وكن منَ الشاكرين » فان المراد هاهنا بتقديم المفعول لتخصيصه بالعبادة ولو أخره ما أفاد ذلك فانه لو قيل ضربتُ زيداً لم يشعر ذلك باختصاص زيد بالضرب ولا كذلك لو قيل زيداً ضربت ٠ ومنه تقديم الخبر على المبتدأ كما فى قوله تعالى « وظنوا أنهم ما نعتهمْ حصونهم من الله » ولو قال وظنوا أن حصونهم من الله مانعتهم لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها اياهم ٠ وكذلك « أراغبٌ أنت عن آلهتى يا ابراهيم » ولو قال أأنت راغب عنها ما أفاد زيادة الانكار على ابراهيم بالرغبـة عنها ٠ وكذلك « واقتربَ الوعدُ الحقُّ فاذا هى شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا » ولم يقل فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة وكان يستغنى عن الضمير لأن هذا لايفيد اختصاص الذين كفروا بالشخوص ولا اختصاص الذين كفروا بالضمير ٠ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى البحر ـ هو الطهور ماؤه الحل ميتته ـ ٠ وكذا تقديم الظرف فى الهيئات كقوله تعالى « إنّ الينا إيابهـم ثم إنّ علينا حسابهمْ » ٠٠ وتقديم الجار والمجرور كقوله تعالى « له الملكُ وله الحمدُ » فان هذا يفيد اختصاص ذلك بالله تعالى ٠٠ وأما اذا كان الظرفُ فى النفى فان تقديمه يفيد تفضيل المنفى عنـه كما فى قوله تعالى « لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون » أى ليس فى خمر الجنة ما فى خمر غيرها من الغول ٠ وأما تأخيره فانما يفيد النفى فقط كما فى قوله تعالى « الم ذلك الكتاب لاريب فيه » وكذلك اذا قلت لاعيب فى الدار كان معناه نفى العيب عن الدار واذا قلت لافى الدار عيب كان معناه انها تفضل على غيرها بعدم العيب ٠٠ وأما الثانى فهو مالا يلزم تقديمه زيادة فى المعنى ومع ذلك يكون تقديمه أحسن وهذا انما يكون كذلك لامر يتعلق بالمتقدم والمتأخر أو لأمر خارج عنهما ٠ والذى لأمر يتعلق بهما اما أن يكون ذلك بالنسبة الى شئ خارج عنهما أولا يكون كذلك ٠ فالاول كما اذا كان التقدم أدل على قدرة الخالق من التأخر كقوله تعالى « فمنهمْ من

يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » . والثاني اما ان يكون للمتقدم تأثير في وجود المتأخر أو لا يكون كذلك[1] . والثاني كما اذا كان المتقدم أكثر وجوبا كما في قوله تعالى « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » والاول اما أن يكون المتقدم في الوجود المتأخر بالذات أو بالعرض . أما الذي بالذات فكما في قوله تعالى « وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا » فانه قدم الانعام لان صلاح حالها سبب لصلاح حال الناس . وأما الذي بالعرض فكما في قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » فانه قدم العبادة لانها وسيلة الى تحصيل الاستعانة . وأما الذي يكون كذلك لأمر خارج عن المتقدم والمتأخر فاما أن يكون ذلك لأجل كلام تقدم أو لا يكون كذلك . والذي لاجل الكلام المتقدم إما أن يكون لتعلق المذكور أولا به أو لتعلقه هو بالمذكور أولا . والأول كما في قوله تعالى « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء » فانه قدم الارض لأن هذا بعد قوله تعالى « ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه » وهذا الخطاب لأهل الأرض وعملهم يكون في الارض . والثاني إما أن يكون ذلك لما يتعلق بمعنى الكلام الاول أو بلفظه . والمتعلق بمعناه كما في قوله تعالى « فمنهم شقي وسعيد » فانه قدم الشقي لان المراد بهذا وما قبله التخويف . والمتعلق بلفظه كما في قوله تعالى « فأما الذين شقوا ففي النار » ثم قال « وأما الذين سعدوا ففي الجنة » فان تقديم حال الاشقياء هاهنا لاجل تقديمه أولا الشقي . والذي يكون كذلك لا لاجل المتقدم اما أن يكون لأجل حال في الكلام نفسه أو لا يكون كذلك . والثاني كما في قوله تعالى « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فان تقديم الاناث هنا انما كان لأن المقصود بيان أن الخلق كله بمشيئته سبحانه وتعالى لا على وفق العباد . والاول كما اذا كان يتم بذلك السجع وذلك كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » ولو قال ثم صلوه الجحيم لأفاد المعنى ولكن كان يفوت السجع فلذلك كان الاحسن تقديم الجحيم . وقيل

(١) بياض في الاصل

ان هذه الصورة تفيد أيضاً الاختصاص كما في القسم الاول .. قال الامام فخر الدين وهو الذي يظهر لي وان منعه الآخرون فهذه أسباب عشرة وقد يجتمع في شيء واحد عدة منها فيكون تقديمه أولى واذا تعارضت أسباب روعي أقواها وان تساوت كان المتكلم بالخيار في تقديم أي الامرين معاً . وأما الثالث فهو الذي لا يلزم تقديمه زيادة في المعنى ويكون الاحسن تأخيره فاذا قدم كان ذلك مفاضلة معنوية وذلك كتقديم الصفة على الموصوف والعلة على المعلول ونحو ذلك . وهذا لا يمكن وروده في القرآن لركته وسماجته . مثاله قول الفرزدق

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

معناه وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه . وقال أيضاً

الى ملك ما أمه من محارب   أبوه ولا كانت كليب تصاهره

معناه الى ملك أبوه ما أمه من محارب أي ما أم أبيه منهم . وقال أيضاً

وليست خراسان الذي كان خالد   بها أسد اذ كان سيفاً أميرها

معناه ليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً اذ كان أسد أميرها . والغرض مدح خالد وذم أسد المتولي بعده ﴿ وأما الرابع ﴾ فهو ما يتكافأ تقديمه وتأخيره وهذا كالحال فانه يقدم كقولك — جاء راكباً زيد — ويؤخر كقولك — جاء زيد راكباً — وهما سواء . وكذلك المستثنى كقولنا — ما قام إلا زيداً أحد . وما قام أحد إلا زيداً — . وقد وقع في الكتاب العزيز آيات فيها تقديم وتأخير جارية على نمط ما تقدم . من ذلك قوله تعالى « حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » . وقوله تعالى « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر » على قول من قال إن الذكر هاهنا القرآن .. وقال بعض العلماء في قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » أن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه هم بها وهذا حسن لكن في تأويله قلق ولا يضطر الى هذا التأويل إلا على قول من قال ان الانبياء معصومون من الكبائر والصغائر . وأما على قول من قال ان الصغائر يجوز وقوعها منهم . فلا يضطر الى هذا التقديم والتأخير .. ومنه أيضاً قوله تعالى « اقتربت

الساعةُ وانشقَّ القمرُ » • وقوله تعالى « فجعله غُثاءً أحوَى » والتقدير فجعله أحوى غثاء • ومنه قول الشاعر

طافَ الخيالُ وأين منكَ لِمَاما   فارْجعْ لزَوْرِكَ بالسلامِ سلاما

تقديره طاف الخيال لماماً وأين منك •• وقال الفرزدق

نُفَلِّقُ ها مَن لم تَنَلْهُ سُيوفنا   بأسيافِنا هامَ الملوكِ القَماقمِ

تقديره نفلق بأسيافنا هام الملوك القماقم ومن لم تنله سيوفنا ـ وها ـ للتنبيه تقديره تنبهوا لهذا المعنى • وانما دعاه الى التقديم والتأخير ايقاع اللبس على السامع وجعله من باب الالغاز

القسم الرابع والعشرون

فى الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظة واحدة

والجمع بينهما عند من رآه مجازاً لانه استعمال اللفظ فى غير ما وضع له فانه وضع للحقيقة وحدها ثم استعمل فيها وفى المجاز • وله أمثلة

أحدها فى قوله تعالى « أولئك عليهم لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » ـ ولعنة الله ـ ابعاد ـ ولعنة الملائكة والناس ـ دعاؤهم بالابعاد وقد جمعهما فى لفظة واحدة ومن لا يرى ذلك يقدر أولئك عليهم لعنة الله ولعنة الملائكة فيكون من مجاز الحذف • والثانى منه قوله تعالى « إنَّ اللهَ وملائكتهُ يُصلّون على النبيّ » ـ الصلاة ـ حقيقة فى الدعاء مجاز فى اجابة الدعاء لان الاجابة مسببة عن الدعاء فصلاة الملائكة حقيقة لانها دعاء وصلاة الله من مجاز التعبير بلفظ السبب الذى هو الدعاء عن المسبب الذى هو الاجابة وقد جمع بينهما فى قوله ـ ان الله وملائكته يصلون على النبى ـ فيكون الضمير فى ـ يصلون ـ لله والملائكة وجمعه معهم فى الضمير مستكره فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكر على بعض خطباء العرب قوله ـ ومن يعصهما فقد غوى ـ

وقال بئس خطيب القوم أنت • وقد جمع بينهما عليه الصلاة والسلام فى قوله ـ أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ـ وفى قوله عليه الصلاة والسلام ـ فان الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم ـ وانما أنكر على الاعرابى الجمع لاعتقاده التسوية بينهما والرسول عليه الصلاة والسلام آمنٌ من ذلك • ومن لا يرى الجمع بين الحقيقة والمجاز يقدر ان الله يصلى على النبى وملائكته يصلون على النبى فيكون يصلون على النبى حقيقة فى حق الملائكة ويكون يصلى المقدرة مجازاً فى حق الله • وكذلك القول فى قوله تعالى « هو الذى يصلى عليكم وملائكته » فى الجمع بين الحقيقة والمجاز وافرادهما • ومثل هذا قوله تعالى « واللهُ ورسولهُ أحقُّ أن يُرضوهُ » لو قال أحق أن يرضوهما لكان جامعاً بين الله ورسوله فى الضمير وبين الحقيقة والمجاز فان رضى الرسول عليه الصلاة والسلام حقيقى ورضى الله تعالى مجازى • ومن لا يرى ذلك يقول والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كقول الشاعر

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عنـــدك راضٍ والرَّأىُ مختلفُ

وهذه الاربعة وعشرون قسما التى ذكرناها من أقسام المجاز تحت كل قسم منها أقسام كثيرة يَعرف ذلك من تأملها ونظر فيها • وحيث انتهى الكلام فى الفصاحة والبلاغة والحقيقة والمجاز فلنأخذ فى ذكر ما تضمنه الكتاب العزيز من فنون البلاغة وعيون الفصاحة وضروب علم البيان وبدائع البديع وأجناس التجنيس •• ولنبدأ من ذلك فيما يتعلق بالمعانى ثم نتلوه بما يتعلق بالالفاظ والاعتماد فى ذلك معونة الله تعالى وتوفيقه وتيسيره وهدايته الى الصواب والارشاد الى مايؤدى الى جزيل الثواب وحسن المآب •• أما ما يختص بالمعانى فينقسم الى أقسام

القسم الأول

(التناسب • ويسمى التشابه أيضاً)

وهو ترتيب المعانى المتآخية التى تتلاءم ولا تتنافر • والقرآن العظيم كله متناسب

لا تنافر فيه ولا تباين .. ومنه قول النابغة

الرفقُ يُمنٌ والأناةُ سَعادةٌ فاستأن فى رفق تنالُ نجاحا
واليأسُ عمافاتَ يُعقِبُ راحةً ولرُبَّ مَطعمةٍ تعودُ ذِباحا

ويسمى التشابه أيضاً .. وقيل التشابه أن تكون الالفاظ غير متباينة ولكن متقاربة فى الجزالة والمتانة والدقة والسلاسة وتكون المعانى مناسبة لالفاظها من غير أن يكسى اللفظ الشريف المعنى السخيف أو على الضد بل يصاغان معاً صياغة تتناسب وتتلاءم حتى لا يكون الكلام كما قيل

وبعضُ قَريضِ القومِ أولادُ عَلةٍ يُكلُّ لسانَ الناطقِ المتحفّظِ

﴿ قال المصنف عفا الله عنه ﴾ المناسبة عند أرباب هذا الشأن على قسمين • معنوية. ولفظية • فالمعنوية أن يبتدئ المتكلم بمعنىً ثم يتم كلامه بما يناسبه فى المعنى دون اللفظ • ومنه قوله تعالى « وَرَدَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللهُ المؤمنين القتال وكان اللهُ قوياً عزيزاً » أخبر سبحانه فى فاصلة الآية بأنه قوىٌ عزيز ليدل على أن تلك الريح التى أصابت المشركين ليست اتفاقا وليست هى من أنواع السحر بل هى من ارساله على أعدائه كعادته وسنته فى أمثاله من نصره لعباده المؤمنين مرّة بالقتال كيوم بدر ومرّة بالريح كيوم الاحزاب ومرة بالرعب كبنى النضير وأن النصر من عند الله لا من عند غيره ولهذا لم ينصرهم حين خالفوا نبيهم يوم أُحد وحين أعجبتهم كثرتهم يوم حنين وبعد ذلك كانت العاقبة لهم • وقد صرّح سبحانه وتعالى فى قوله « وما النصرُ الآ من عندِ اللهِ » • وقوله تعالى « إنْ يَنصُرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى يَنصُرُكم من بعده » ولو اقتصر على الآية ولم يذكر فيها ـ واللهُ قوى عزيز ـ لخفى هذا المعنى وغمض والتبس الامر فيه وأشكل .. وأما المناسبة اللفظية فهى أيضاً على قسمين • تامة. وغير تامة • فالتامة أن تكون الكلمات مع الابراز مقفاة • والاخرى ليست بمقفاة فالتقفية غير لازمة للمناسبة .. فمن المناسبة التى ليست بمقفاة قوله تعالى « قَ والقرآنِ المجيدِ بل عجبوا أنْ جاءهم مُنذرٌ منهمْ فقالَ الكافرون هذا شىءٌ عجيبٌ » وما سوى هذه التامة كقوله سبحانه وتعالى « نَ والقلمِ وما يَسطرُونَ ما أنت

بنعمةِ ربّك بمجنونٍ وإنَّ لك لأجراً غيرَ ممنون » .. ومن التامة فى السنَّة قول النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يَرقى به الحسن والحسين عليهما السلام أعيذ كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة ومن كل عين لامَّة فقال صلى الله عليه وسلم ـ لامَّة ـ ولم يقل ملمة • وقوله صلى الله عليه وسلم ـ مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى بحسن المناسبة • ومثله قوله صلى الله عليه وسلم ـ ارجعنَ مأزورات غير مأجورات والمستعمل ـ موزورات ـ لانه من الوزر غير مهموز فلفظ به صلى الله عليه وسلم لمكان المناسبة اللفظية التامة • وأما ماجاء من السنة الغير مقفاة فكقوله صلى الله عليه وسلم ان أحبكم الىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافاً فناسب صلى الله عليه وسلم بين ـ أخلاق وأكناف ـ مناسبة أبراز دون تقفية • ومما جمع بين المناسبتين قوله صلى الله عليه وسلم فى بعض أدعيته اللهم انى أسألك رحمة تهدى بها قلبى • وتجمع بها أمرى • وتلم بها شعثى • وتصلح بها غائبى • وترفع بها شاهدى • وتزكى بها عملى • وتلهمنى بها رشدى • وترد بها الفى • وتعصمنى بها من كل سوء اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء • ومنزل الشهداء • وعيش السعداء • والنصر على الاعداء فناسب صلى الله عليه وسلم بين ـ قلبى وأمرى ـ مناسبة غير تامة بالزنة دون التقفية ثم ناسب بين ـ الشهداء والسعداء ـ مناسبة تامة بالزنة والتقفية

القسم الثانى

﴿ التكميل ﴾

وهو أن يأتى المتكلم أو الشاعر بمعنى من معانى المدح أو غيره من فنون النظم والنثر ثم يرى مدحه فيه اقتصاد وقصور عن الغرض وانه يحتاج الى تكميل يزيده بياناً وايضاحاً فيكمله بمعنى آخر • فمن ذلك قوله تعالى « فسوْفَ يأتِى اللهُ بقومٍ يُحبّهم ويُحبّونهُ أذلَّةٍ على المؤمنينَ أعزّةٍ على الكافرينَ » فانظر الى هذه البلاغة فانه سبحانه

وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين وان كانت صفة مدح إذ وصفهم بالرياضة لاخوانهم المؤمنين والانقياد لامرهم كان المدح غير كامل فكمل مدحهم بأن وصفهم بالعزة على الكافرين فأتى بوصفهم بالامتناع منهم والغلبة لهم • وكذلك قوله تعالى « محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم »

• ومثاله من النظم قول كثير عزة

ولو أنّ عزة خاصمتْ شمس الضحى ... في الحسن عند موفقٍ لقضى لها

القسم الثالث

(التتميم)

وهو أن تردف الكلام بكلمة ترفع عنه اللبس وتقربه الى الفهم وتزيل عنه الوهم وتقرره في النفس • فمن ذلك قوله تعالى « ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم » • وقوله تعالى « ثلاثةِ أيامٍ في الحجّ وسبعةٍ اذا رجعتم تلك عشرةٌ كاملةٌ » ومثاله في القرآن كثير • ومثاله قول امرئ القيس

كأن قلوبَ الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البالي

•• وقال آخر

كأنّ قلوبَ الطير حولَ خبائنا ... وأرحلنا الجزعُ الذي لم يثقّب

تمّمَ المعنى بقوله — الحشفُ البالي • والجزع الذي لم يثقب —

القسم الرابع

(التقسيم)

وهو آلة الحصر ومظنة الاحاطة بالشيء • مثل قوله تعالى « والله خلق كلَّ دابة من

ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين » الى قوله « ما يشاء » ومنه قوله تعالى « له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً » • ومثله في القرآن كثير وخصوصاً في سورة براءة • ومثله في كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى

وأعلمُ ما في اليوم والامس قبلَه ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

•• وذكر ابن الأثير في جامعه أن أرباب علم البيان لم يريدوا بالتقسيم القسمة العقلية كما يذهب اليه المتكلمون فان القسمة العقلية تقتضي أشياء مستحيلة كما قالوا الجواهر لا يخلو إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة أو لا مجتمعة ولا مفترقة أو مجتمعة ومفترقة معاً أو بعضها مجتمع وبعضها مفترق ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الاقسام جميعها وان كان من جملتها ما يستحيل وجوده فان الشيء لا يكون مجتمعاً مفترقاً في حالة واحدة • وانما أرادوا بالتقسيم ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده وهو أن يأتي المؤلف الى جميع أقسام الكلم المحتملة فيستوفيها غير تارك منها قسماً واحداً • فمن ذلك قوله تعالى « ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات باذنِ اللهِ » فانه لا يخلو العالم جميعه من هذا التقسيم إما عاصٍ ظالم لنفسه وإما مطيع مبادر الى الخيرات وإما مقتصد بينهما وهذا من أصح التقسيمات وأكملها فاعرفه •• ومن هذا المعنى قوله تعالى « وكنتم أزواجاً ثلاثةً فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنة وأصحابُ المشئمةِ ما أصحابُ المشئمةِ والسابقون السابقون » الآية • اعلم أن هذه الآية مماثلة في المعنى لما سبق ذكره — وأصحاب المشئمة — هم الظالمون لأنفسهم — وأصحاب الميمنة — هم المقتصدون — والسابقون — هم السابقون بالخيرات • وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى « هو الذي يريكم البرقَ خوفاً وطمعاً » ألا ترى الى براعة هذه القسمة فان الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع وليس لهم ثالث • وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة المنتصبين في صدرها يعجبون بقول بعض العرب في هذا المعنى ويقولون ان ذلك من أصح التقسيمات وهو قوله — النعم ثلاث • نعمة في حال كونها • ونعمة ترجى مستقبلة • ونعمة تأتي غير محتسبة • فأبقى الله عليك ما أنت فيه • وحقق ظنك فيما ترتجيه • وتفضل عليك بما لم تحتسبه — فقالوا انه ليس في

أقسام النعم التى يقع الانتفاع بها قسم رابع سوى ما ذكره الاعرابى وهذا القول فاسد وهو أن فى أقسام النعم التى قسمها ههنا نقصاً لا بد منه وزيادة لاحاجة اليها أما النقص فاغفاله ذكر النعمة الماضية وأما الزيادة فقوله بعد النعمة المستقبلة التى تأتى غير محتسبة وهذا خطأ فان النعمة التى تأتى غير محتسبة هى داخلة فى قسم المستقبلة وذلك أن النعمة المستقبلة تنقسم الى قسمين . أحدهما يرجى حصوله ويتوقع بلوغه . والآخر لا يحتسب ولا يشعر بوجوده . فقوله ـ ونعمة تأتى غير محتسبة ـ يوهم أن هذا القسم غير المستقبل وهو داخل فى جملته ولو قال ـ ونعمة مستقبلة ـ من غير أن يقول ـ ونعمة تأتى غير محتسبة ـ لكان قوله كافياً إذ النعمة التى ترتجى والنعمة التى لا تحتسب يدخلان تحت قسم المستقبل وكان ينبغى أن يقول ـ النعم ثلاث . نعمة ماضية . ونعمة حال كونها . ونعمة تأتى مستقبلة . فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبقى عليك النعمة التى أنت فيها ووفر حظك من النعمة التى تستقبلها ـ ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبّق به مفصل الخطاب فافهم ما ذكرناه وقس عليه .. وقف اعرابى على مجلس الحسن فقال رحم الله من أعطى من سعة . أو آسى من كفاف . أو آثر من قلة فقال الحسن ما ترك لأحد عذراً فانصرف الاعرابى بخير كثير .. ومن هذا الضرب ما ذكره أبو هلال العسكرى فى كتابه وذلك أنه أخذ على جميل قوله

لو أنّ فى قلبى كقدْرِ قُلامةٍ حُبّاً وصلتكِ أو أتتكِ رسائلى

فقال أبو هلال ان إتيان الرسائل داخل فى جملة الوصل . وليس الأمر كما وقع له فان جميلا انما أراد بقوله ـ وصلتك ـ أى أتيتك زائراً أو قاصداً أو كنتُ راسلتك مراسلة والوصل لا يخرج عن هذين القسمين إما رسالة أو زيارة .. وقال ابن الاثير ومن أعجب ما شاهدته فى هذا الباب ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى وهو قول العباس بن الاحنف

وِصالكم هَجرٌ وهَجرُكم قِلىً وعطفكم صدٌّ وسِلمكم حربُ

ثم روى المشار اليه عن أبى القاسم الآمدى أنه قال ان بعض نقدة الكلام من البلغاء لما سمع هذا البيت قال والله هذا أحسن من تقسيمات اقليدس . ومن العجب كيف

ذكر الغانمى ذلك فى كتابه وفاته النظر فيه مع تقدمه فى هذه الصناعة . وأعجب منهما جميعاً استحسان ناقد الكلام لهذا التقسيم ألا ترى أن هذا البيت يبنى عليه شئ آخر من جنسه فانه لو أضيف اليه بيت غيره فقيل

ولينُكم عُنفٌ وقربُكم نوى وإعطاؤكم منعٌ وصدقكم كذبُ

لجاز ذلك ويحتمل أن يزاد على هذا البيت بيت آخر ثالث ورابع ولو كان التقسيم فى البيت الاول صحيحاً لما احتمل أن يضاف اليه شئ آخر البتة لأن من صحة التقسيم أن لا يحتمل الزيادة .. ومن نحو هذا قول بعضهم فى حق مكسورين فى الحرب فمن بين جريح مضرّج بدمائه . وهارب لا يلتفت الى ورائه فان الجريح قد يكون هارباً والهارب قد يكون جريحاً ولو قال ـ فمن بين قتيل ومأسور وناج ـ لصح له التقسيم لأن المكسورين فى الحرب الذين دارت عليهم الدائرة لا يخرجون عن هذه الاقسام الثلاثة فاما قتيل أو مأسور أو ناج وأما الجريح فانه يدخل فى جملة الناجى والمأسور لأن كلا منهما يجوز أن يكون جريحاً وأن لا يكون فاعرف ذلك وقس عليه

القسم الخامس

(المؤاخاة)

وهى على قسمين . الاول المؤاخاة فى المعانى . الثانى المؤاخاة فى الالفاظ ويكون للكلام بها رونق لأنّ النفس يعرض لها عند الشعور شئ يُطلع الى مناسبة فلا يرد إلا بعد تشوف ولا كذلك المباين فلذلك يقبح ذكر الشئ مع مباينه فى المعنى المذكور فيه . ولذلك قبح قول الكميت

أم هل ظعائنُ بالعلياء رافعةٌ وقد تكاملَ منها الدلُّ والشّنَبُ

فان ـ الدل والشنب ـ لا مناسبة بينهما . وكذلك يقبح الشئ مع مباينه فى البناء . ولذلك قبح قول أبى تمام

مُنَقَّفَاتٌ سَلَبْنَ العُرْبَ سُمرَتَها   والرُّومَ رِقَّتَها والعاشقَ القَصَفا

وكان ينبغى أن يقول ـ والعشاق قصفها ـ لكن منعه الوزن والقافية فلذلك لا يعاب هذا على الشاعر كما يعاب على الناثر اذ المجال للناثر متسع .. ومما استقبح قول أبى نواس

ألا يا ابن الذين فَنَوا فماتوا   أَمَا واللهِ ما ماتوا لتَبقَى

وما لكَ فاعلَمن فيها مقامٌ   اذا استكملتَ آجالاً ورزقا

وكان ينبغى أن يقول ـ وأرزاقا ـ واعلم أن استقباح تباين المبانى دون استقباح تباين المعانى (قال المصنف عفا الله عنه) التباين فى المبانى ليس بمستقبح وقد ورد فى القرآن العظيم منه كثير . ومن ذلك قوله تعالى « خَتَمَ اللهُ على قلوبهم وسَمْعِهِم وأبصارِهم » . وكذلك قوله تعالى « حتى اذا ما جاؤها شهِدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهم وجلودُهم » الآية

— القسم السادس —

(الاعتراض والحشو)

وهو أن يدخل فى خلال الكلام كلة تزيد اللفظ تمكناً وتفيد معنىً آخر مع أن اللفظ يستقل بدونها ويلتئم بغيرها مثل قوله عز وجل « لَتَدْخُلُنَّ المَسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمنين » . وقوله تعالى « ولا تُكرِهوا فتياتِكم على البغاء إن أردْنَ تحصناً » أو لم يردن ولكن أفاد قوله ـ إن أردن تحصناً ـ الاعلام بترغيب الشرع فى التحصين وانه مطلوبه . ومنه قوله تعالى « وادْخِلْ يدَكَ فى جَيبِكَ تَخرُجْ بيضاءَ من غير سوء » . وقوله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » (قال المصنف عفا الله عنه) قال ابن الاثير فى كتابه الموسوم بالجامع الكبير الاعتراض الصناعى عند أرباب علم البيان على قسمين . الأول لا يأتى فى الكلام إلا لفائدة وهو جار مجرى التوكيد فى كلام العرب . والقسم الآخر أن يأتى فى الكلام لغير فائدة فاما أن يكون دخوله فى التأليف كخروجه منه وإما أن يؤثر فى التأليف نقصاً وفى المعنى فساداً

فالأول وهو الذى يأتى فى الكلام لفائدة . فمنه قوله تعالى « فلا أُقسمُ بمواقع النجوم وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم إنه لقرآنٌ كريمٌ فى كتابٍ مكنون » هذا كلام فيه اعتراضان أحدهما قوله ـ وانه لقسم لو تعلمون عظيم ـ لانه اعترض بين القسم الذى هو ـ فلا أقسم بمواقع النجوم ـ وبين جوابه الذى هو ـ إنه لقرآن كريم ـ وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو ـ قسم ـ وبين صفته التى هى ـ عظيم ـ وهو قوله تعالى ـ لو تعلمون ـ فذانك اعتراضان ولو جاء الكلام غير معترض فيه لوجب أن يكون فلا أقسم بمواقع النجوم انه لقرآن كريم وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه انما هو تعظيم لشأن المقسم به فى نفس السامع . ألا ترى الى قوله تعالى ـ لو تعلمون عظيم ـ كيف هذا الاعتراض بين الصفة والموصوف وذلك أوقع فى النفس لتعظيم المقسم به أى انه من عظيم الشأن وفخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم .. ومن ذلك قوله تعالى « ووَصَّينا الانسانَ بوالديه حُسناً حملته أمُّه » الى « ولوالديك » الآية . ألا ترى الى هذا الاعتراض الذى طبق مفصل البلاغة فانه لم يؤت به الا لفائدة كبيرة وذلك أنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم من المشاق والمتاعب فى حمل الولد مما لا يتكلفه الوالد . ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم للذى سأله فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك . وفى رواية أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فادناك .. ومما جاء على هذا الاسلوب قوله تعالى « واذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون » الى قوله « تعقلون » فقوله تعالى ـ والله مخرج ما كنتم تكتمون ـ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وفائدته أن يقرر فى أنفس المخاطبين وقلوب السامعين أن تدارؤ بنى اسرائيل فى قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم فى اخفائه وكتمانه لان الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض لكان ـ واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ـ ولا يخفى على العارف بهذه الصناعة الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه .. ومن هذا الجنس قول النابغة

لعمرى وما عمرى علىّ بهيّنٍ   لقد نطقت بُطلاً علىّ الاقارع

فقوله ـ وما عمرى علىّ بهين ـ من محموده ونادره لما فيه من تفخيم المقسم به .. وعلى نحو من هذا جاء قول كثير

لو انّ الباخلين وأنت منهم   رأوك تعلّموا منك المطالا

فقوله ـ وأنت منهم ـ من الاعتراض الذى يؤكد به المعنى المقصود ويزداد به مزية ونبلا وفائدته هنا أن التصريح بما هو المراد يثبته فى النفس ويقرره فى الاذهان .. وقال بعضهم لعبد الله بن طاهر وهو أحسن ما قيل فى هذا الباب

إنّ الثمانين وبلغتها   قد أحوجت سمعى الى ترجمان

وأمثاله كثيرة .. وأما الثانى وهو الذى يأتى فى الكلام لغير فائدة فهو ضربان . الاول أن يكون دخوله فى التأليف كخروجه منه لا يؤثر حسناً ولا قبحاً .. فمن ذلك قول النابغة

يقولُ رجالٌ يجهلون خليقتى   لعلّ زياداً لا أبا لكَ غافلُ

فقوله ـ لا أبا لك ـ اعتراض لا فائدة فيه وليس مؤثراً فى هذا البيت حسنا ولا قبحاً (الضرب الثانى منه) وهو الذى يكون مؤثراً فى الكلام نقصاً وفى المعنى فساداً . ومنه قول بعضهم

فقد وأبيكَ بيّن لى عِشاءً   بوشكِ فراقهم صُردٌ يصيحُ

فان فى هذا البيت من ردئ الاعتراض ما اذكره وهو الفصل بين ـ قد ـ والفعل الذى هو ـ بيّن ـ وذلك قبيح لقوة اتصال ـ قد ـ بما تدخل عليه من الافعال ألا تراها تعدّ مع الفعل كالجزء منه ولذلك دخلت اللام المراد بها توكيد الفعل على ـ قد ـ فى قوله تعالى « ولقد أوحىَ اليك والى الذين من قبلك » . وفى قوله تعالى « ولقد علموا لمن اشتراه » .. وقول الشاعر وهو الفراة السلمى

فقد أجمعُ رجلىّ بها   حذرَ الموتِ وانى لفرورُ

إلا أنه اذا فصل بين ـ قد ـ والفعل بالقسم فان ذلك لا بأس به نحو قولك ـ قد والله

كان ذلك . وقد (١) فجاء هذا البيت لا خفاء بقبحه .. ومن بديع الاعتراض قول المتنبى

ويحتقرُ الدنيا احتقارَ مجرّبٍ   يرى أنّ ما فيها وحاشاكَ فانيا

وهذا البيت حشوه يصلح أن يكون من باب الحشو ويصلح أن يكون من باب الاحتراس (قال المصنف عفا الله عنه) ذكر أسامة فى بديعه أن الحشو غير المفيد أن تأتى فى الكلام بألفاظ زائدة ليس فيها فائدة مثل قول النابغة

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها   لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

.. وقال آخر

نأت سلمى فعاودنى   صداعُ الرأسِ والوصبُ

فقوله ـ الرأس ـ حشو لا فائدة فيه لأن الصداع لا يكون الا فى الرأس .. وفى الحماسة

أنى فتىً لم تذرِ الشمسُ طالعةً   يوماً من الدهر إلا ضرّ أو نفعا

فقوله ـ طالعة ـ حشو لا فائدة فيه لأن قولهم ذرّت الشمس أى طلعت (قال المصنف عفا الله عنه) وهذه الكلمات التى ذكرها ليست بزائدة بل لها معان . فقوله ـ لستة أعوام وذا العام سابع ـ فليس بزائد وقد ورد مثله فى القرآن وهو قوله تعالى « ثلاثة أيامٍ فى الحجّ وسبعةٍ اذا رجعتم تلك عشرةٌ كاملة » وانما قال ذلك الذى تقدم بيانه فى باب التتميم وهو رفع اللبس وتقرير المعنى فى النفس . وأما قوله ـ صداع الرأس ـ فهو من الاصابة والشق ومثل ذلك يتهيأ فى سائر الاعضاء . وأما قوله ـ تذر الشمس طالعة ـ فهما وان كانا بمعنى واحد فالعرب من عادتها أن تكرر لفظين بمعنى واحد للتأكيد . كقول الشاعر

* وهندٌ أتى من دونها النأىُ والبعدُ *

.. ومنه قوله تعالى « فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً » .. والذى اقتضاه قول أسامة وغيره من العلماء أن الحشو على قسمين . قبيح وحسن . فالقبيح ما أشار اليه أسامة . والحسن ما أشار اليه غيره والله أعلم

(١) بياض بالاصل

- القسم السابع -

(الالتفات)

وهو نقل الكلام من حالة الى حالة أخرى وأرباب هذا الشأن فيه على ثلاثة مذاهب ذهب قوم أنه على ثلاثة أقسام . الأول الانتقال من الغيبة الى الحضور ومن الحضور الى الغيبة كقوله تعالى « مَلكِ يوم الدّين إيّاكَ نعبُدُ وإياكَ نستعين » وعكسه « الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم » ولم يقل غير الذين غضبت عليهم . وكذلك قوله تعالى « سبحان الذى أسرَى بعبدهِ ليلاً من المسجدِ الحرامِ الى المسجدِ الأقصَى الذى بارَكنا حولَهُ لِنريهُ من آياتنا إنه هو السميعُ البصير » . وقوله تعالى « وأوحى فى كلْ سماء أمرَها وزيّنا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وحفظاً » . وقوله تعالى « وقالوا اتخذَ الرَّحمنُ وَلداً لقد جئتمْ شيئاً إدًّا » ومثله فى القرآن كثير ولا يخلو شئٌ من ذلك من حِكَم جُزئية تليق بذلك الكلام الخاصّ كما فى هذا الموضع وأن القول اذا اشتمل على سوء أدب على عظيم كان الأولى التعبير عنه بلفظ الغائب إذ الاقدام على ذلك قدّام الحاضر أفحش وأكثر جُرأة والجناب العظيم ينبغى أن يحاشى من ذلك . يُبين ذلك قوله تعالى ــ وقالوا اتخذ الرحمنُ وَلداً لقد جئتم شيئاً إدًّا ــ ثم لما أن أراد توبيخهم على هذا القول عبّر عنه بالحضور لأن توبيخ الحاضر أبلغ فى الاهانة .. الثانى الالتفات من الماضى الى المضارع كقوله تعالى « قلْ أمرَ ربى بالقسطِ وأقيموا وُجوهَكم عند كل مسجد وادْعوهُ مخلِصين » . وكذلك قوله تعالى « أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلا ما يُتلى عليكم فاجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزورِ » .. الثالث الالتفات من الماضى الى المستقبل وبالعكس كقوله تعالى « فكأنما خرَّ من السماءِ فتَخطَفهُ الطيرُ أو تهوِى به الريحُ فى مكانٍ سَحيق » . وقوله تعالى « واللهُ الذى أرسلَ الرياحَ فتثيرُ سَحاباً فسُقناهُ الى بلدٍ مَيتٍ فأحيينا به الأرضَ بعدَ موتِها كذلك النشور » . وقوله تعالى « ويومَ يُنفَخُ فى الصُّورِ ففزعَ مَن فى السمواتِ ومن فى الأرض » .

وقوله تعالى « ويومَ نُسيّرُ الجبالَ وترَى الأرضَ بارِزَةً وحشرْناهم فلم نُغادِرْ منهم أحداً » . وقوله تعالى « ألم ترَ أنَّ الله أنزلَ من السماءِ ماءً فتُصبحُ الأرضُ مخضرَّةً إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ له ما فى السمواتِ » . وقوله تعالى « إنَّ الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل اللهِ » ولا يخلو هذا عن حكمة كما فى هذه الآية فان الكفر لما كان من شأنه اذا حصل أن يستمر حكمه عبّر عنه بالماضى ليفيد ذلك مع كونه باقياً أنه قد مضى عليه زمان ولا كذلك الصد عن سبيل الله فان حكمه انما يثبت حال حصوله نعنى بذلك فهو فى كل وقت كافر ما لم يأت بالايمان ولا كذلك الصد عن سبيل الله ومع ذلك فان الفعل المستقبل فيه إشعار بالكثير فيكون قوله ــ ويصدون عن سبيل الله ــ مشعراً بأنهم فى كل وقت كذلك . ولا كذلك لو قال وصدوا لأن ذلك يكون مشعراً بأن صدهم قد انقطع .. وذهب قوم الى أن الالتفات اذا انقطع الكلام يعقبه بجملة ملاقية اياه فى المعنى ليكون تتميماً له على جهة المثَل والدعاء أو غيرهما كقوله تعالى « وقلْ جاءَ الحق وزهَقَ الباطلُ إن الباطلَ كان زهوقاً » ومن هذا النوع قول جرير

* مجازيعُ عندَ البأسِ والحرُّ يَصبرُ *

.. وذهب قوم الى أن الالتفات هو أن تذكر معنىً فتتوهم أن السامع اعترضه شك فى ذلك أو فى سببه أو علته فتذكر ما يزيل شكه كقول الاخطل

تبينُ صِلاتُ الحرْب منّا ومنهمُ ... اذا ما التقينا والمسالم يأذنُ

فتبيَّن بقوله ــ والمسالم يأذن ــ كيفية ظهور المحارب منه والصحيح القول الاول وما ذكره بعده يجوز أن يكون من أنواع الالتفات .. ومن بديعه قوله تعالى « يوسفُ أعرِضْ عن هذا واستغفرِى لذنبِكِ » خاطب يوسف بأعرض عن هذا والتفت الى زليخا . ومنه أيضاً قوله عز وجل « حتى اذا كنتم فى الفلكِ وجرَين بهم بريحٍ طيبة » .. ومن بديع ما جاء منه فى النظم قول امرئ القيس

تطاولَ ليلُكَ بالأثمدِ ... ونامَ الخليّ ولم ترقُدِ
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ ... كليلةِ ذى العائرِ الأرمدِ
وذلك عن خبرٍ جاءَنى ... وخبّرتهُ عن أبى الأسودِ

(قال المصنف عفا الله عنه) ذكر ابن الاثير فى جامعه أن الالتفات على ثمانية أقسام .. الاول الرجوع من الغيبة الى الخطاب كقوله تعالى « الحمدُ للهِ ربِ العالمين » الى قوله « إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين » وانما فعل ذلك لفوائد وهى انه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة والملك الخاص فعلم المُعلَّمُ بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالخضوع له والاستعانة به فى المهمات نخوطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات فقيل ـ إياك نعبد وإياك نستعين ـ يامن هذه صفاته • والفائدة الأخرى أن قوله ـ إياك نعبد واياك نستعين ـ ليس العدول فيه اتساعا وانما عُدِل اليه لأن الحمد دون العبادة فانك تحمد نظيرك ولا تعبده فلما كان الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال ـ الحمد لله ـ ولم يقل لك ولما صار الى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال ـ اياك نعبد ـ تصريحاً بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء الى محدوده منها وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال ـ صراط الذين أنعمتَ عليهم ـ فصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ثم قال ـ غير المغضوب عليهم ـ ولم يقل غير الذين غضبت عليهم لأن الاول موضع التقرب الى الله بذكر النعمة فلما صار الى ذكر الغضب قال ـ غير المغضوب عليهم ـ فجاء باللفظ منحرفا به عن ذكر الغضب فأسند النعمة اليه لفظاً وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً .. ومن هذا الجنس قوله تعالى « الحمدُ للهِ الذى لم يتخذ ولداً » وشبهه .. الثانى الرجوع من الخطاب الى الغيبة كقوله عز وجل « هو الذى يُسيّركم فى البرّ والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرَين بهم بريحٍ طيبةٍ وفرِحوا بها » الآية صرف الكلام هنا من خطاب المواجهة الى الغيبة وانما فعل ذلك وهو أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعى منهم الانكار عليهم والتقبيح لفعلهم ولو قال ـ حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بكم ـ وساق الخطاب الى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة .. ومن ذلك قوله تعالى « إنَّ هذه أمتُكم أمةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتّقون فتقطّعوا أمرَهم بينهم » الاصل أن يعطف على الفعل الاوّل الاّ أنه صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه الي قوم آخرين ويقبّح عليهم ما فعلوه ويقول ألا ترون الي عظيم

ما ارتكب هؤلاء فى دين الله فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً وذلك مثلٌ لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوه .. ومما ينخرط فى هذا السلك أيضاً قوله تعالى « ياأيها الناسُ إنى رسول اللهِ اليكم جميعاً الذى له مُلكُ السمواتِ والأرضِ » الى « وكلماته » الآية • فانه انما قال « فآمنوا باللهِ ربى » حيث قال أولا ـ إنى رسول الله اليكم ـ لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه وليعلم أن الذى وجب الايمان به والاتباع له هو هذا الشخص المستقبل بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيرى اضطراراً للنصفة وبُعداً للتعصب لنفسه فقرر أولا فى صدر الآية بأنه رسول الله الى الناس وأثبت ذلك فى أنفسهم ثم أخرج كلامه من الخطاب الى الغيبة لغرضين كبيرين قد ذكرتهما • الاول اجراء تلك الصفات عليه • الثانى الخروج من تهمة العصبية لنفسه فافهم ذلك •• الثالث الرجوع من الفعل المستقبل الى فعل الامر فعَل ذلك تعظيما لمن أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيما لأمره وبالضد من ذلك فى حق من أجرى عليه فعل الأمر • فمما جاء من ذلك قوله تعالى « قالوا يا هودُ ما جئتنا ببينّةٍ وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » الى قوله « ما تشرِكون » الآية • فانه انما قال ـ أُشهِدُ اللهَ واشهَدُوا ـ ولم يقل وأشهدكم ليكون موازيا له وبمعناه لان إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت فى معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده وأما اشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالات بهم ولذلك عدل به عن لفظ الاول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الامر كما تقول للرجل تهكما به واستهانة ـ اشهد عليّ أنى أحبك ـ وأمثال هذا كثير فاعرفه .. الرابع الرجوع من خطاب التثنية الى خطاب الجمع ومن خطاب الجمع الى خطاب الواحد • فمن ذلك قوله تعالى « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومِكما بمصرَ بُيوتاً واجعلوا بُيوتَكم قِبلةً وأقيموا الصلاة وبشّرِ المؤمنين »(١) فانه توسع فى هذا الخطاب فثنى ثم جمع ثم وحد فخاطب موسى وهارون فى ذلك عليهما السلام بالتبوء والاختيار فى ذلك مما يفوّض اليّ ثم ساق

(١) بهامش الاصل ما نصه .. لعله خطاب لهما ولهم كتبه أبو الوفا

الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد وإقامة الصلاة لأن ذلك واجب على الجمهور ثم خص موسى صلى الله عليه وسلم بالبشارة التى هى الغرض تعظيما له وتفخيما لامره لانه الرسول على الحقيقة ٠٠ ومن هذا النحو قوله تعالى حكاية عن حبيب النجار « ومالىَ لا أعبُدُ الذى فَطَرَنى واليه تُرْجَعون » هذا عدول عن خطاب الواحد الى خطاب الجماعة واتمام الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم لانه أفرد الكلام لهم فى معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم لتلطفه بهم ومداراتهم فان ذلك أدخل فى إمحاض النصح حيث لا يريد لهم الاّ ما يريد لنفسه وقد وضع قوله ـ وما لىَ لا أعبد الذى فطرنى ـ موضع قوله وما لكم لا تعبُدُون الذى فطركم ألا ترى الى قوله « واليه ترجعون » ولولا أنه قصد ذلك لقال الذى فطرنى واليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال « إنى آمنتُ بربّكم فاسمعون » يريد فاسمعوا قولى وأطيعون فقد نبّهتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه لان العبادة لا تصح الاّ لمن منه مبدؤكم واليه ترجعون ٠٠ الخامس الاخبار عن الفعل الماضى بالمضارع وهو قسم من الالتفات لطيف المأخذ دقيق المغزى (اعلم) ان الفعل المضارع اذا أتى به فى حالة الاخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضى وذلك لان الفعل المضارع يوضح الحال التى يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يسمعها ويشاهدها وليس كذلك الفعل الماضى ٠ فمما جاء منه قوله تعالى « والله الذى أرسل الرياحَ فتثيرُ سَحاباً فسُقناه الى بلدٍ ميتٍ فأحيينا به الارضَ بعدَ موتها كذلك النشور » فانه انما قيل ـ تثير ـ مضارعا وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا اليه وهو حكاية الحال الذى يقع فيها إثارة الريح للسحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك ٠٠ ومنه قول تأبط شراً

لقيتُ الغولَ تهوِى نحووَجهى ... بقفْرٍ كالصحيفةِ صحصَحان
فأضرِبُها بلا دَهشٍ فخرَّتْ ... صريعاً لليدينِ وللجرانِ

لانه قصد أن يصور صورة الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يُبصرهم ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جُرأته على ذلك الغول وثباته عند تلك الشدة ولو قال

فضربتها لزالت تلك الفائدة التى ذكرناها ونبهنا عليها ٠٠ ومن ذلك قوله تعالى « ألم ترَ أن اللهَ أنزلَ من السماءِ ماءً فتُصبحُ الارضُ مخضرّةً إنّ اللهَ لطيفٌ خبير » ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضى هاهنا الى المضارع فقال ـ فتصبح الارض مخضرة ـ وذلك لافادة بقاء المطر زماناً بعد زمان كما قال ـ أنعم علىّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً ـ ولو قال فرُحتُ وغدوت شاكراً له لم يقع ذلك الموقع فافهم ما أشرنا اليه ٠٠ السادس الاخبار بالفعل الماضى عن المضارع وهو عكس ما تقدم ذكره وفائدته أن الفعل الماضى اذا أخبر به عن الفعل المضارع الذى لم يوجد كان أبلغ وآكد وأعظم موقعاً وأفخم شأناً لان الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد وحدث وصار من الامور المقطوع بكونها وحدوثها ٠ والفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المضارع عن الماضى هو أن الفعل الماضى يخبر به عن المضارع اذا كان الفعل المضارع من الاشياء الهائلة التى لم توجد والامور المتعاظمة التى تحدث فيجعل عند ذلك مما قد كان ووُجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه ٠ وأما الفعل المضارع اذا أخبر به عن الفعل الماضى فان الغرض بذلك شيئان هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يعاينها ويشاهدها ٠٠ فمن الاخبار بالفعل الماضى عن المضارع قوله تعالى « ويومَ يُنفخُ فى الصُّورِ ففزع مَن فى السمواتِ ومن فى الارضِ إلا مَن شاء اللهُ وكلٌّ أتوهُ داخرين » فانه انما قال ـ ففزع ـ بلفظ الماضى بعد قوله ـ ينفخ ـ وهو مستقبل للاشعار بتحقق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والارض لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به ٠٠ ومنه قوله تعالى « وبَرَزوا للهِ جميعاً » فبرزوا بمعنى يبرزون يوم القيامة وانما جىء به بلفظ الماضى لان ما أخبر الله به لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد ٠ ومثل ذلك قوله عز وجل « أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ » فان ـ أتى ـ هاهنا بمعنى يأتى وانما حسن فيه لفظ الماضى لصدق اثبات الامر ودخوله فى جملة ما لابد من حدوثه ووقوعه فصار يأتى بمنزلة قد أتى ومضى ٠٠ وكذلك قوله تعالى « ويوم نُسيّرُ الجبالَ وترَى الارض بارزةً وحشرْناهم فلم نُغادِرْ منهم أحداً » فانه انما قال ـ وحشرناهم ـ ماضياً بعد ـ نسير ٠ وترى ـ وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم

قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك .. السابع الاخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع وانما فُعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضى وقد سبق الكلام عليه .. فمن ذلك قوله تعالى « إنّ فى ذلك لآيةً لمن خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهودٌ » فانه انما آثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع وأنه لابد من أن يكون ميعاد مضروبا لجمع الناس وأنه الموصوف بهذه الصفة وان شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى « يومَ يجمعكم ليومِ الجمعِ ذلك يومُ التغابُن » فانك تعثر على صحة ما قلت .. الثامن عكس الظاهر وهو أن العرب قد توسعوا فى كلامهم وتجوّزوا الى غاية فيذكرون كلاماً يدل ظاهره على معنى وهم يريدون به معنىً آخر عكسه وخلافه والاصل فى ذلك أنك تذكر كلاماً يعطى معناه أنه نفى لصفة شئ قد كان وهو نفى الموصوف أنه ما كان أصلا . فمن ذلك قول علىّ رضى الله عنه فى وصفه مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا تنثى فلتاته أى لا تذاع فظاهر ذلك أن ثم فلتات غير أنها لا تذاع وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات أصلا فتذاع وهذا مثل قول الشاعر

* لا تَرَى الضبَّ بها ينجَحِرُ *

أى ليس بها ضب فينجحر

القسم الثامن

(الحمل على المعنى)

وذلك كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث وتصور معنى الواحد للجماعة والجماعة للواحد وحمل الثانى على لفظ الاول أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعا أو غير ذلك . وقد ورد فى القرآن العظيم وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً من ذلك كثير .. فأما تأنيث

المذكر فكقوله تعالى « يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكمُ الذى خلَقكم من نفس واحدةٍ » والمراد به آدم عليه السلام وأنّث ردًّا الى النفس وقرئ فى الشواذّ من نفس واحد .. ومنه قوله تعالى « واذ قالت الملائكةُ » والقائل جبريل عليه السلام وله نظائر كثيرة فى القرآن .. ومنه قول الشاعر

أبوكَ خليفةٌ ولَدَتْهُ أخرَى   وأنتَ خليفةٌ ذاكَ الكمالُ

.. وقال آخر

* طُولُ الليالى أسرَعتْ فى نَقضى *

.. وقال آخر

أتهجُرُ بيتاً بالحجازِ تلفَّعتْ   به الخوفُ والأعداءُ من كلّ جانب

.. وقال آخر

يا أيها الراكبُ المُزْجى مَطيَّتَهُ   سائلْ بنى أسَدٍ ما هذه الصَّوتُ

فانه ذهب بالصوت الى الاستغاثة وذهب الآخر بالخوف الى المخافة .. وأما تذكير المؤنث فقد كثر عن العرب تأنيث فعل المضاف المذكر اذا كانت اضافته الى مؤنث فكان المضاف بعض المضاف اليه أو به أو منه ولذلك قرئ قوله تعالى « لا تنفعُ نفساً إيمانها » بالتأنيث فأنث فعل الايمان اذ كان من النفس وبها . وأمثال هذا كثير فى القرآن .. ومنه قول الشاعر

لما أتى خبرُ الزبيرِ تواضعَتْ   سُورُ المدينةِ والجبالُ الخشَّعُ

.. وقول الآخر

* كما شرِقتْ صدْرُ القناةِ من الدَّم *

-﴿ القسم التاسع ﴾-

(الزيادة فى البناء)

وهو أن يقصد المتكلم معنى يعبر عنه لفظتان إحداهما أزيد بناء من الأخرى فيذكر الكلمة التى تزيد حروفها عن الأخرى قصداً منه الى الزيادة فى ذلك المعنى الذى عبر عنه ولهذا ان اعشوشب واخشوشن فى المعنى أكثر وأبلغ من خشن وأعشب ولهذا وقعت الزيادة بالتشديد أيضاً فان ستّار أبلغ من ساتر وغفّار أبلغ من غافر ولهذا قال سبحانه وتعالى « استغفِرُوا ربَّكم إنه كان غفّاراً » • ومنه قوله تعالى « وكان الله على كلّ شيء مُقتدِراً » عدل عن قادر الى مقتدر ليشعر بالزيادة على زيادة قدرة الله تعالى والبيان عن عظم شأنه •• ومن هذا المعنى قول أبى نواس

فعفوتَ عنى عفوَ مقتدر   أحلَّتْ له نعمٌ فألغاها

والعرب عادتها أن تزيد فى بناء الاسم ليشعر بزيادة المعنى الدال عليه •• قال الزمخشرى رحمه الله رأيت أعرابياً بالحجاز يسوق جملا عليه شُقْذُفٌ فقلت ما اسم هذا فقال شقذف ثم مرّ علينا جمل عليه محاوة فقلت ما اسم هذا فقال شقنْذافٌ فزاد فيه لكون المحاوة أكبر وأعلا فى القدر والقيمة • وقد رجح بعض أهل المعانى « الرحمن على الرحيم » لما فيه من زيادة البناء وهو الألف • ومثل هذا فى كلام العرب كثير ليس هذا موضع استقصائه

-﴿ القسم العاشر ﴾-

(الاطالة والاسهاب • ويسمى الاطناب • والكلام عليهما من وجوه)

الاول فى ذكر الغرض الذى أتى بهما من أجله • الثانى فى حقيقتهما ومجازهما •

الثالث فى اختلاف علماء البيان فيهما • الرابع فيما يستحسن فيهما وما يستقبح • الخامس فى أقسامهما • السادس فى الفرق بينهما (أما الاول) فان العرب جرت سنتهم على ذلك فى خطبهم ومخاطباتهم ومفاخراتهم ومقاولاتهم يقصدون بذلك اظهار قدرتهم على الكلام وتوسعهم فى النثر والنظام فيوجزون تارة ويطيلون أخرى هذا فى الحقيقة وأما فى المجاز فرادهم الدلالة على قوة مشاهدة المعنى المجازى •• وقال ابن الاثير أتى بالاطالة والاطناب للمبالغة والمبالغة تنقسم الى أقسام كثيرة وقد سبق ذكر شيء منها كالاخبار بالفعل الماضى عن المضارع وبالمضارع عن الماضى ومن جملة أقسام المبالغة الاطناب وفائدته زيادة التصور للمعنى المقصود إما حقيقة أو مجازاً وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد (وأما الثانى) فحقيقة الاطالة الامتداد والاسترسال وأصله فى الاجرام • وأما الاطناب فحقيقته لغةً الزيادة والمبالغة وأما حقيقته الصناعية فهو زيادة فى اللفظ لتقوية المعنى •• فأما ما جاء من ذلك على سبيل الحقيقة فقوله تعالى « ما جعلَ اللهُ لرَجلٍ من قلبينِ فى جوفهِ » فان الفائدة فى قوله ـ فى جوفه ـ كالفائدة فى قوله ـ القلوب التى فى الصدور ـ وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور المدلول عليه لانه اذا سمع صوّر لنفسه جوفا يشتمل على قلبين وكان ذلك أسرع الى الانكار •• وأما الذى جاء منه على سبيل المجاز فمنه • قوله تعالى « فانها لا تعمى الأبصارُ ولكن تَعمى القلوبُ التى فى الصدور » ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد يعرف أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو مصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله فى القلب استعارة ومثلٌ فلما أريد اثبات ما هو بخلاف المتعارف من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر الى زيادة تصوير وتعريف ليتقرّر إنّ مكان العمى انما هو القلوب لا الأبصار • وهذا نوع من أنواع البيان عظيم اللطائف كثير المحاسن (وأما الثالث) فقد اختلف علماء البيان فيهما فقال المحققون انهما متغايران •• وقال أبو هلال العسكرى الاطالة والاطناب سواء وهما عنده ضد الايجاز ووافقه جمهور الائمة • وقال أبو هلال أيضاً فى كتابه الاطناب فى الكلام انما هو بيان والبيان لا يكون إلا بالاتساع وأفضل الكلام أبينه والايجاز للخواص والاطناب يشترك فيه الخواص والعوام ولهذا

أطنب فى الكتب السلطانية لأفهام الرعايا . وكما أن الايجاز له مواضع فكذلك الاطناب له مواضع والحاجة الى الايجاز فى موضعه كالحاجة الى الاطناب فى موضعه . قال النبى صلى الله عليه وسلم ـ خاطبوا الناس على قدر عقولهم ـ ومن استعمل الايجاز فى موضع الاطناب والاطناب فى موضع الايجاز فقد أخطأ فلا شك أن الكتب الصادرة عن السلطان فى الامور العظيمة فى الفتوح وتفخيم مواقع النعم المتجددة أو فى الترغيب فى الطاعة والتحذير من العصيان وغير ذلك ينبغى أن تكون مشبعة مستقصاة . وأما كتاب المهلب الى الحجاج فى فتح الازارقة وهو ـ الحمد لله الذى كفى الاسلام فقد ما سواه وجعل الحمد متصلا بنعمه وقضى أن لا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من خلقه ثم انا وعدونا على حالين مختلفين نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما يسوؤنا ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم ينصرنا الله ويخذلهم ويمحصنا ويمحقهم حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ـ فانما حسن هذا الكتاب لكونه فى موضعه . وأما لو كتب الى العامة وقد تطلعت نفوسهم الى معرفة ذلك الفتح العظيم وتصرفت بهم ظنونهم فى أمره لجاء فى أقبح صورة عندهم وأهجنها . واعلم أن الاطناب بلاغة والتطويل عى فان الاطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة تحتوى على زيادة فائدة بما تأخذ النفس منه من اللذة والتطويل بمنزلة شكوك ما يبعد جهلا بما يفوت فهذا حكاية كلام أبى هلال العسكرى .. وقد ذكر ابن الاثير فى جامعه على قول أبى هلال مأخذاً فقال أما قول أبى هلال الاطناب فى الكلام انما هو بيان فان البيان فى أصل اللغة هو الظهور والوضوح فيكون الاطناب على قوله ظهوراً في الكلام ووضوحا لا غير ويلزم على ذلك أن كل كلام ظاهر واضح اطناباً سواء كان ذلك الكلام ايجازاً أو غيره من أصناف علم البيان وهذا مما لم يذهب اليه أحد لأن أبا هلال قد جعل الاطناب وصفاً من الاوصاف التى يشترك فيها جميع ضروب الكلام وذلك أن البيان وصف يعم كل كلام ظاهر واضح من ايجاز أو تطويل أو تكرير أو غير ذلك وليس الامر كما وقع له بل الاطناب نوع واحد من أنواع الكلام فان أصله فى وضع اللغة من أطنب فى الكلام اذا بالغ فيه كما تقدم (الرابع) فيما يستحسن

فيهما وما يستقبح . أما الذى يستقبح منهما فهو أن يُطنب فيما لا ينبغى فيه الاطناب ويطوّل فيما ينبغى فيه الايجاز أو يطول فيما ليس فى اطالته فائدة ولا فيه زيادة معنى كما روى أن رجلا استُدعى لأداء شهادة على نكاح فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهرَه على الدين كلهِ ولو كرِهَ المشركون وأشهد أنى كنت فى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا فى الدار الفلانية (ووصفها) من الحارة الفلانية (ووصفها) وسمى الساكنين بها من البلد الفلانى وقت كذا من النهار وقد طرق الباب غلام وذكر جنسه وأوصافه وحكاية تطول جداً .. وهذا النوع من الاطالة ليس فى القرآن العظيم منه شئ . وأما الذى يستحسن منهما فهو اطالة الكلام وترديده لتقوية المعنى فى النفس وتعظيمه والبيان قوة الملكة فى التلعب بالكلام أو لكون المخاطب لا يصل الكلام الموجز الى فهمه فهو محتاج الى بسط الكلام واتساعه حتى يفهم (الخامس) فى أقسامهما . أما أقسام الاسهاب والاطناب فقد اختلف فيه علماء علم البيان فقالوا لا يخلو إما أن يكون فى جملة واحدة أو فى جمل .. فأما الذى فى جملة واحدة فعلى قسمين . حقيقة ومجاز . أما الحقيقة فقد يكون معنى اللفظ الزائد هو معنى المذكور ويكون مغايراً له . أما الأول فكقوله تعالى «فاذا نُفخ فى الصورِ نفخةٌ واحدةٌ وحُملتِ الارضُ والجبالُ فدُكَّتا دكَّةً واحدةً» . وكقوله تعالى «أفرأيتمُ اللاتَ والعُزّى ومَناةَ الثالثةَ الأخرَى» . وكقوله تعالى «تلك عشرةٌ كاملةٌ» . وأما الثانى فكقوله تعالى «ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبينِ فى جوْفهِ» . وكقوله تعالى «إذْ تلقونهُ بألسنتكم وتقولون بأفواهِكم» . وكقوله تعالى «فخرَّ عليهمُ السقفُ من فوْقِهم» .. وأما المجاز فكقوله تعالى «فانها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التى فى الصدور» واستعمال هذا مجازاً أحسن .. وأما الذى فى الجمل فأقسامه أربعة . الاول أن تذكر أشياء كل واحد منها يخص بما لولاه لكان المفهوم من الكل واحداً كقول أبى تمام

مِن مِنّةٍ مشهورةٍ وصَنيعةٍ بِكرٍ وإحسانٍ أغرَّ محجّلِ

ولو قال ـ من منة وصنيعة واحسان ـ كان المعنى واحداً . وكذلك قوله

ولىُّ سَجيّاتٍ تُضيفُ ضيوفهُ　　ويُرتجى مُرجّيه ويُسألُ سائلهُ

وكل هذه دلالة على زيادة كرمه .. والثانى الاثبات والنفى وهو أن يذكر الشئ اثباتا ونفياً مع زيادة لولاها لكان ذلك تكراراً وتناقضاً كقوله تعالى « ولكنّ أكثر الناسِ لا يَعلمون ظاهراً من الحياةِ الدنيا وهم عن الآخرةِ هم غافلون » . وكذلك قوله تعالى « لا يَستأذِنُكَ الذين لا يُؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ أن يجاهِدُوا بأموالهم وأنفسهم واللهُ عليمٌ بالمتقين » مع قوله « انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وآرتابتْ قلوبُهمْ فهمْ فى رَيبِهمْ يَترَدّدُون » .. الثالث أن تذكر الشئ ثم تضرب له أمثالا تُشتهَى كقول البحترى يصف امرأة

ذاتُ حُسنٍ لوِ استزادَتْ منَ الـحسنِ اليه لمَا أصابتْ مَزيدا
فهى كالشمسِ بَهجةً والقضيبِ اللّـدْنِ قدًّا والرِّيمِ طرْفًا وجيدا

.. وكذلك قوله

تَرَدَّدَ فى خُلقَى سُؤددٍ　　سَماحا مُرَجًّا وبأساً مَهيبا
وكالسيفِ إنْ جئتَهُ صارخاً　　وكالبحرِ إنْ جئتَهُ مُستثيبا

.. الرابع الاستقصاء فى ذكر أوصاف الشئ للمدح أو الذم ونحوهما كقول بعضهم

لأعلا الوَرَى قَدْراً وأوفرِهم حِجىً　　وأرشدِهم رَأياً وأسمحِهمْ يدا

.. وأما الاطالة فهى على قسمين . حسنة . وقبيحة . كما تقدم .. فأما الحسنة فهى على قسمين . الاول منها ما يكون بسطاً للكلام واتساعاً فيه كما ورد فى القرآن العظيم مثل قصة يوسف عليه الصلاة والسلام بطولها وقصة أصحاب الكهف بذكر فروعها وأصولها وقصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام وكثرت فوائد محصولها وقصة ذى القرنين بطول مقولها وقصة موسى مع فرعون وكثرة فصولها . الثانى أن لا تكون الاطالة بسبب تكرار اللفظ وها نحن نذكر أقسامه ونبيّن ان شاء الله تعالى (السادس) فى الفرق بينهما . والفرق بينهما أن الاطناب على سائر أحواله بلاغة والتطويل بعضه عىٌّ وركاكة .. وقال ابن الاثير الاطناب للخواص والاطالة للعوام . وهذا يحتاج الى تفصيل وقد تقدم

القسم الحادى عشر

(التكرار والكلام فيه من وجوه)

الأول فى حقيقته . الثانى فى ذكر الفائدة التى أتى به من أجلها . الثالث فى أقسامه . الرابع فى ذكر ما يتهيأ فيه التكرار الحسن منه والقبيح (أما الأول) فحقيقة التكرار أن يأتى المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفاً أو يأتى بمعنى ثم يعيده وهذا من شرطه اتفاق المعنى الاول والثانى فان كان متحد الالفاظ والمعانى فالفائدة فى اثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره فى النفس وكذلك اذا كان المعنى متحداً . وان كان اللفظان متفقان والمعنى مختلف فالفائدة فى الاتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين (وأما الثالث) فأقسامه ثلاثة . الأول ما يتكرر لفظه ومعناه متحد . الثانى ما يتكرر لفظه ومعناه مختلف . الثالث ما يتكرر معنىً لا لفظاً .. أما ما يتكرر لفظه ومعناه متحد فمنه قوله تعالى « فقُتِلَ كيف قَدّر ثم قُتِلَ كيف قدّر » . وكقوله تعالى « أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلالُ فى أعناقِهم وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون » كرر ـ أولئك ـ وكذلك قوله تعالى « أولئك على هُدىً من ربهمْ وأولئك همُ المفلِحون » . وكذلك قوله تعالى « فلما أن أرادَ أن يَبطِشَ بالذى هو عدُوٌّ لهما قال يا موسى أتُريدُ أن تقتلنى كما قتلتَ نفساً بالأمسِ إنْ تُريدُ إلا أن تكون جبّاراً فى الأرضِ وما تُريدُ أن تكون من المصلِحين » كرر ـ أن ـ فى أربعة مواضع تأكيداً . وكذلك قوله تعالى « قلْ إنى أُمِرْتُ أن أعبُدَ اللهَ مخلِصاً له الدينَ وأُمِرْتُ لأنْ أكونَ أوّلَ المسلمين » ومثله فى القرآن كثير .. ومن هذا النوع قول الشاعر

* ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمّتَ اسلمى *

والغرض من هذا المبالغةُ فى الدعاء لها بالسلامة . وقد يكرر القول طلباً لدوام تذكر الارهاب كما كرر فى سورة الرحمن « فبأىّ آلاءِ ربكما تكذّبان » وقد يكرر اللفظ

ايضاً ليتصل أول الكلام بآخره اتصالا جيداً كما في قوله تعالى « ثم إنّ ربّكَ للذين عملوا السوءَ بجهالةٍ ثم تابوا من بَعدِ ذلك وأصلحوا إنّ ربّكَ من بعدِها لغفورٌ رحيمٌ » ومن ذلك الآية التي قبل هذه الآية . ومن ذلك قوله تعالى « إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين » .. وأما ماتكرر لفظه ومعناه مختلف فمنه قوله تعالى « ويُريدُ اللهُ أن يُحقَّ الحقَّ بكلماته ويَقطعَ دابرَ الكافرين ليُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ » فان المقصود بقوله – يحق الحق – بيان ارادته وبقوله – ليحق الحق – الثانية لقطع دابر الكافرين ونصر المؤمنين عليهم . وكذلك قوله تعالى « لا أعبدُ ما تَعبدُون ولا أنتم عابدُون ما أعبُدُ ولا أنا عابدٌ ما عَبدتم ولا أنتم عابدُون ما أعبُدُ » معناه لا أعبد في المستقبل ما تعبدونه أنتم الآن ولا أنتم تعبدون في المستقبل ما أنا عابد له ولا أعبد قط آلهتكم حتى أكون الآن عابداً لما تعبدون ولا أنتم عبدتم قط إلهي حتى تكونوا له الآن عابدين .. ومن ذلك قوله تعالى « واذا طلقتم النساء فبلَغنَ أجلَهن فأمسكوهن بمعروفٍ أو سَرّحوهن بمعروفٍ » الى قوله في الآية الأخرى التي بعدها « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن » فكرر – بلغن – لاختلاف البلوغين .. وأما قوله تعالى « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ » ثم قال « قلنا اهبطوا منها جميعاً » فقد قيل إنه من باب تكرير اللفظ والمعنى وقيل هو من باب تكرير اللفظ لا المعنى لاختلاف الهبوطين فان الهبوط الأول كان من الجنة الى سماء الدنيا والهبوط الثاني كان من سماء الدنيا الى الارض وفي القرآن العظيم من هذين القسمين كثير .. وأما تكرار المعنى دون اللفظ فهو إما أن يكون بين المعنيين مخالفةٌ ما أو لا يكون كذلك . والذي يكون بينهما مخالفة إما أن يكون أحدهما أعمّ أو لا يكون كذلك . فأما ما يكون أحدهما أعمّ فكقوله تعالى « ولتكن منكم أمةٌ يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنهون عن المنكَر » فان الدعوى الى الخير أعم من الأمر بالمعروف . وكذلك قوله تعالى « فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورُمّان » . وكذلك قوله تعالى « حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوُسطى » ومثاله في الشعر كثير . قال الشاعر

اذا أكلوا لحمي وفرتُ لحومَهم ... وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا

وإن ضيّعوا عهدي حفظتُ عهودَهم ... وإن همْ هوَوْا غيي هويتُ لهم رُشدا

والغرض بهذا زيادة تأكيد الخاص .. وأما الذي لا يكون أحد المعنيين أعم فكقول حاطب بن أبي بلتعة – والله يا رسول الله ما فعلتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الاسلام .. وأما الذي لا يكون بين المعنيين مخالفة فكقوله تعالى « وإن تَعفوا وتَصفَحوا وتَغفروا فانّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ » . وكذلك قوله تعالى « فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجّ وسبعةٍ اذا رَجعتم تلك عشرةٌ كاملةٌ » .. وكذلك قول الشاعر

نزلتُ على آل المهلّب شاتياً ... بعيداً عن الأوطانِ في زمنِ المَحْلِ
فمازالَ بي إكرامُهم وافتقادُهم ... وإحسانهم حتى حَسِبتُهمُ أهلي

هذا ما يكون من التكرار لفائدة .. وقال ابن الاثير في جامعه التكرار في المعنى على قسمين . مفيد . وغير مفيد . فالمفيد نوعان . الاول اذا كان التكرار في المعنى يدل على معنيين مختلفين كدلالته على الجنس والعدد وهو من باب التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم أنه تكرير محض يدل على معنى واحد فقط وليس كذلك .. فمما جاء منه قوله تعالى « وقال اللهُ لا تتخذوا إلهينِ اثنين انما هو إلهٌ واحدٌ » ألا ترى أن العرب انما جمعت بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد المخصوص . فأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودات فالفائدة اذاً في قوله – إلهين اثنين . وإله واحد – هو أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية يدل على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على أن المعنى به واحد منهما وكان الذي يساق اليه الحديث هو العدد شُفع بما يؤكده فدل به على أن القصد اليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت – انما هو إله – ولم تؤكده بواحد لم يحسُن وخيّل أنك تثبت الالهية لا الوحدانية وهذا باب من باب تكرير المعاني وعر المسلك دقيق المغزى وبه تحلّ مسائل مشكلات من التكرير فاعرفه .. ومن هذا النحو اذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف

ويَنهوْن عن المنكر » الآية فان الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء الى الخير لأن الأمر بالمعروف خاص والخير عام فكل أمر بالمعروف خير وليس كل خير أمراً بالمعروف لأن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف . ففائدة التكرير هاهنا أنه ذكر الخاص هاهنا ذكر العام للتنبيه عليه لفضله كقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوُسطى » الآية . وأمثال ذلك كثيرة فاعرفها .. النوع الثانى من الضرب الاول من القسم الثانى اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنىً واحد وقد سبق مثاله فى أول هذا الباب كقولك أطعنى ولا تعصنى لأن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية . والفائدة فى ذلك تثبيت الطاعة فى نفس المخاطب وتقرير لها فى قلبه . والكلام فى هذا الموضع من التكرير كالكلام فى الموضع الذى قبله من تكرير اللفظ والمعنى اذا كان المراد به غرضاً واحداً فاعرفه .. الضرب الثانى من القسم الثانى فى تكرير المعنى دون اللفظ وهو غير المفيد . فن ذلك قول ابن هانئ المغربى

سارَتْ به صُنعُ القصائدِ شُرَّداً فكأنما كانت صَباً وقبولا

فكأنه قد قال — فكأنما كانت صباً صباً — لأن الصبا هى القبول . وليس ذلك مثل التكرير فى قوله تعالى — حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى — فيما يرجع الى تكرير اللفظ والمعنى ولا مثل التكرير فى قوله تعالى — ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف — فيما يرجع الى تكرير المعنى دون اللفظ لأن كل واحدة من هاتين الآيتين يشتمل على معنيين خاص وعام . وقول ابن هانئ — صباً وقبولا — لا يعطى إلا معنى واحداً لا غير وهذا لا يخفى على العارف بصناعة التأليف .. ومن هذا النحو قول الصابئ فى كتابٍ — وصل كتابك بعد تأخير وابطاء وانتظار له واستبطاء — فان التأخير والاستبطاء بمعنى واحد وقد يكون لهذا وجه فى التجوز وهو التقرير فى نفس المخاطب لبعد الأمد وتطاول المدة فى انقطاع كتابه عنه وذلك مما لا بأس به فى هذا الموضع . وأمثال هذا كثير فاعرفه (وأما الرابع) فالذى يتهيأ التكرار أسماء . وافعال . وحروفٌ . ومعان . وقد تقدم الكلام على الاسماء والافعال والمعانى .. وأما الحروف فهى على قسمين . حسنة . وقبيحة .. فأما الحسنة فهى كما التزمه الحريرى فى رسالتيه

السينية والشينية كرر السين فى كل كلمة فى السينية والشين فى الشينية . وكما التزمه الحصرى فى أول معشراته من حروف المعجم . وكما التزمه الفازازى فى عشرينياته . وانما حسن هذا النوع لأن فيه دليلا على قوة الملكة فى الكلام والقدرة على التلعب بحروفه فى النثر والنظام وهو من باب لزوم ما لا يلزم وسيأتى بيانه .. وأما القبيحة فكتكرار حروف تكسب الكلام عجرفة وتكسوه قلقاً حتى يصعب النطق به ويذهب رونق الكلام بسببه كقول الشاعر

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قبرُ

(وأما الخامس) فى الحسن منه والقبيح .. فأما الحسن منه فقد تقدم .. وأما القبيح فهو التكرار العارى عن الفائدة وهو لا يخلو إما أن يكون فى المعنى وحده أو فى المعنى واللفظ معاً . أما الاول فقد أعابه بعضهم مطلقاً وبعضهم فصَّل فأعابه على الناثر وعلى الناظم اذا فعله فى صدر البيت وأما اذا فعله فى عجزه فليس ذلك بعيب إذ قد يضطر لأجل القافية والوزن كقول المتنبى

بحرٌ تعوَّدَ أنْ يذمَّ لأهله من دَهرِهِ وطوَارقِ الحدَثانِ

والدهر وطوارق الحدثان بمعنى واحد .. وكذلك قيل من قال

إنى وإن كان ابنُ عمّى عائباً لمصادقٌ من خلفهِ وورائه

.. وأما الثانى فقد اتفق على قبحه وهو كقول مروان

سقا اللهُ نجداً والسلامُ على نجدِ ويا حبذَا نجدٌ على النأى والبُعدِ

نظرْتُ الى نجدٍ وبَغداذُ دُونها لعلى أرَى نجداً وهيهاتَ من نجدِ

.. وكذلك قول أبى نواس

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يومُ الترَحُّلِ خامسُ

.. وكذلك قول المتنبى

ولم أرَ مثلَ جيرَانى ومثلى لِمثلى عندَ مِثلِهم مَقامُ

.. وأقبح من ذلك قوله

وقلقلتُ بالهمّ الذى قلقلَ الحشى قلاقِلَ عيسٍ كلُّهُنّ قلاقِلُ

٠٠ وقال ابن الاثير قال الواحدى فى شرحه لشعر أبى الطيب المتنبى انه لا يلزمه من هذا عيب وانه قد جرت عادة الشعراء بمثل ذلك كقول أبى منصور الثعالبى

واذا البلابلُ أطربَتْ بهديلها ... فانفِ البلابلَ باحتساء بلابلِ

والصحيح أنه مستقل وأخطأ الواحدى فى الاعتذار عنه وفى تمثيله ببيت الثعالبى وبيان ذلك أن بيت أبى الطيب قد ورد فيه ذكر القلاقل والقلاقل أربع مرات وهن دلالات على معنى واحد لا غير وهو الحركة يقول ـ وحرَّكتُ بالهمّ الذى حرك الحشى نوقا سراع الحركة كلهن متحركات ـ وهذا من أقبح ما يكون من التكرير . وأما بيت الثعالبى الذى مثّله الواحدى ببيت أبى الطيب فليس مثلا لأن لفظة ـ البلابل ـ قد وردت فيه ثلاث مرات وكلٌّ منها دال على معنى غير الآخر فالاول جمع بلبل وهو طائر حسن الصوت والثانى جمع بَلبَلة وهى وساوس الصدور والثالث جمع بُلبُلة وهى مخرج الماء من الابريق فهو يقول ـ واذا الاطيار من البلابل هدلت وغرّدت فانف البلابل من قلبك باحتساء الخمر من بلابل الاباريق ـ وهذا من أحسن ما يكون من التجنيس ومن ههنا وقع السهو للواحدى وهو أن البلابل فى شعر الثعالبى يدل على معان مختلفة والقلاقل فى شعر أبى الطيب يدل على معنى واحد فاعرف ذلك وقس عليه

٠٠ ومثل قول المتنبى فى القبح قوله أيضاً

ولم أرَ مثلَ جيرانى ومثلى ... لمثلى عندَ مثلهم مَقامُ

فهذا ومثله هو التكرار الفاحش الذى يؤثر فى الكلام نقصاً زائداً ألا ترى أنه يقول لم أر مثل جيرانى فى سوء الجوار وقلة المراعاة ولا مثلى فى مصابرتهم ومقامى عندهم لأنه قد كرّر هذا المعنى فى البيت مرتين

ـ القسم الثانى عشر ـ

(القَسَم)

وهو أن يُقسم فى كلامه بشىء لم يُرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه وانما يُريد به

بيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده . ومنه قوله تعالى « فوربّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثلَ ما أنكم تنطقون » . وقوله تعالى « والطور وكتاب مسطور » . وقوله تعالى « والنجم اذا هوى » . وقوله تعالى « والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سوّاها » . وقوله تعالى « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » أقسم بهذه الاشياء كلها لعظم خلقها ولشرفها عنده وأقسم بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه ٠٠ ومنه قول الشاعر

حلفتُ بمن سوّى السماء وشادَها ... ومَن مَرَجَ البحرَين يلتقيانِ

ومَن قامَ فى المعقول من غير ريبةٍ ... بما شئتَ من إدراكِ كلّ عيانِ

لما خلقتْ كفّاكَ إلا لاربعٍ ... عقائلَ لم يُعقلْ لهنّ ثوانِ

لتقبيل أفواهٍ وإعطاء نائلٍ ... وتقليب هنديٍّ وجذب عنانِ

(قال المصنف عفا الله عنه) القسم فى القرآن العظيم على قسمين . مظهرٌ . ومضمرٌ . فالمظهر كما تقدم . والمضمر على قسمين . قسم دلت لام القسم على حذفه كما فى قوله تعالى « لتُبلَوُنّ فى أموالكم وأنفسكم » . وفى قوله تعالى « لترَوُنّ الجحيم » . والقسم الثانى ما دلّ عليه المعنى فى مثل قوله تعالى « وإن منكم إلا واردُها كان على ربك حتماً مقضياً » تقديره والله إن منكم إلا واردها يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ لن تمسه النار إلا تحلة القسم ـ وله فى القرآن نظائر

القسم الثالث عشر

(الاقتباس . ويسمى التضمين)

وهو أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره يدرجه فى لفظه لتأكيد المعنى الذى أتى به أو ترتيب فان كان كلاماً كثيراً أو بيتاً من الشعر فهو تضمين وان كان كلاماً قليلا أو نصف بيت فهو إبداع . وعلى هذا الحد ليس فى القرآن من هذا النوع شىء إلا

ما أودع فيه من حكايات أقوال المخلوقين مثل قوله تعالى حكاية عن قول الملائكة « قالوا أتجعلُ فيها مَن يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدّماء » . ومثل ما حكاه سبحانه من قول المنافقين « قالوا انما نحنُ مُصلِحون » . وقولهم « قالوا أنؤمنُ كما آمنَ السفهاء » . وقوله سبحانه وتعالى حكاية عن قول اليهود والنصارى « وقالت اليهودُ ليست النصارَى على شىء وقالت النصارَى ليست اليهود على شىء » ومثله فى القرآن كثير . وكذلك ما أودع فى القرآن من اللغات الاعجمية مثل قوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دونِ اللهِ حَصَبُ جهنمَ » وهى لغة للحطب بالحبشية و ـ كالقسطاس ـ وهو الميزان باللغة الرومية ـ والفردوس ـ وهو البستان و ـ القِنطار ـ وهو اثنا عشر ألف أوقية .. ومن اللغة المنسية ـ الكف . والساق . والفِراش . والوزير . والقاضى . والوكيل . والشراب . والحلال . والحرام . والحسد . والصواب . والبركة . والخطأ . والوسوسة . والكساد . والنطيحة . والحَط . والقلم . واللهو . والكرسى . والقفل . والركاب . والغاشية . والمشرق . والمغرب . واللطيف ـ ومن اللغة الفارسية المحكية ـ الابريق . والسندس . والياقوت . والزنجبيل . والمسك . والكافور ـ وهذه الكلمات كلها حكاها الثعالبى فى فقه اللغة وهى عند المحققين مختلف فيها فمنهم من قال انها أعجمية عربت ومنهم من أنكر ذلك وقال ليس فى القرآن لفظ أعجمى لقوله تعالى « بلسانٍ عربىٍّ مُبينٍ » وهذه الالفاظ انما هى عربية أصلية وافقت اللغة الاعجمية والرومية . وانما الذى ورد فى القرآن بعض آيات وكلمات من التوراةِ وغيرها من كلام الله عز وجل فأشبه التضمين والايداع . من ذلك قوله تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ » . ومنها قوله تعالى فيما حكاه من صفة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وذلك قوله تعالى « محمدٌ رسولُ اللهِ » الى قوله « ذلك مثلُهمْ فى التوراة ومثلُهمُ فى الانجيلِ » فضمن كتابنا صفتهم من الكتابين الأولين .. وأما التضمين فى الشعر فلا يخلو إما أن يكون البيتُ المضمن مشهوراً أو غير مشهور فان كان مشهوراً لم يحتج الى تنبيه عليه أنه من كلام غيره لأن شهرته تغنى عن ذلك وان كان غير مشهور فلا بد من تنبيه على أنه ليس من شعره مثل قول الشاعر

ماعلى طيبِ ليالٍ سَلفتْ   منْ ليالى الوَصلِ لوعادَتْ لنا

نبه عليه فى البيت الذى قبله بقوله

فأنا من فرْطِ وَجدى مُنشِدٌ   بيتَ شِعرٍ قالهُ مَن قبلَنا

.. وكذلك اذا كان المضمن نصف بيت كقول ابن اللبانة الاندلسى فى بيت من قصيدة له

حبيبٌ الى قلبى حبيبٌ لقولهِ   عسى وَطنٌ يدنو بهم ولعلّما

.. ومن التضمين المشهور قول ابن عنين يصف بغلة له

مرّتْ على عَلفٍ فنامَتْ فوقَهُ   جُوعاً وقالتْ والمَدامعُ تَسجُمُ

وَقفَ الهوى بى حيثُ أنتَ فليس لى   متأخرٌ عنه ولا مُتقدمُ

.. ومثله قول آخر

إنّ برْذَونى المدفعَ بالصقا   تِ(1) فى لوعةٍ يُكابدُها

رأى بغالَ الأميرِ عابرَةً   بالتبنِ يوماً فظلَّ يُنشِدُها

قِفا قليلاً بها علىَّ فلا   أقلَّ من نظرَةٍ أزوّدُها

.. وقد وقع التضمين فى الشعر فى بيت كما ذكرناه وفى بيتين . ومنه ما قيل فى الحيص بيصَ حين قتلَ جُرَيًّا وهو سكران فأخذ بعض الشعراء كلبة وعلق فى حلقها قصة وأطلقها عند باب الوزير فأخذَت القصة من حلق الكلبة وأدخلَت على الوزير فاذا فيها مكتوب هذه الابيات

ياأهلَ بغدادَ إنّ الحيصَ بيصَ أتى   بخزيةٍ ألبسَتْهُ العارَ فى البلَد

أبدَى شجاعتَهُ بالليلِ مجترِئاً   على جُرىٍّ ضعيفِ البطْشِ والجلد

فأنشدَتْ أمّهُ من بعدِ ما احتسَبتْ   دَمَ الأبيلقِ عندَ الواحدِ الصمَد

أقولُ للنفسِ تأساءً وتعزيةً   إحدَى يدَىَّ أصابَتنى ولم تُرِدِ

كِلاهما خلَفٌ من فقدِ صاحبهِ   هذا أخى حين أدعوهُ وذا وَلدى

وهذان البيتان البيت الأخير والذى قبله لامرأة من العرب قتل أخوها ابناً لها فقالت ذلك تسلية لنفسها وتثبيتاً لقلبها .. وأما أنصاف الابيات والكلمات فكثير جداً .. فمن ذلك قول ابن المعتز

---

(1) هكذا فى الاصل

عوّذ لمّا بتّ ضيفاً له ... أقراصه منّى بياسين
فبتّ والارض فراشي وقد ... غنّت قفا نبك مصاريني

.. ومنه قول الضحاك

وقفت على باب الأمير كأنني ... قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

.. وقد أودعت جماعة من الشعراء وجلة من الكتاب الفضلاء فى أشعارهم ورسائلهم وأنواع فصاحتهم التى هى من جلة وسائلهم آيات من كتاب الله تعالى وسموه اقتباساً من القرآن وهذا مما قد نهى عنه جلة العلماء وأفاضل الفقهاء الاتقياء وكرهوا أن يضمن كلام الله تعالى شيئاً من ذلك أو يستشهد به فى واقعة من الوقائع كقولهم لمن جاء وقت حاجتهم اليه ـ ثم جئت على قدر يا موسى ـ وأشباه ذلك لأن ذلك كله صرف لكلام الله عن وجهه وخروج له عن المعنى الذى أريد به .. فمن التضمين المنهى عنه قول عبد الله بن طاهر لابن السّدّى حين ملك مصر وقد ورد رسوله وهديته اليه ـ لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلا بل أنتم بهديتكم تفرحون ـ وقال لرسوله ـ ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ـ وأوحش من ذلك وأعظم منه فى الشعر قول الشاعر

يستوجب العفو الفتى اذا اعترف ... بما جناه وانتهى عما اقترف
لقوله قل للذين كفروا ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

.. وقول الآخر

قمت ليل الصدود الا قليلا ... ثم رتلت ذكركم ترتيلا
وجعلت السهاد كحلا لعينى ... وهجرت الرقاد هجراً جميلا
كلما ضمنا محل عتاب ... أخذتنا العيون أخذاً وبيلا

ضمن هذه القصيدة آخر كل آية من سورة المزمل .. هذا وما أشبهه مما يعدونه من الفصاحة والبلاغة وهو مما ينبغى أن تعاف النفوس مساغه وهو مندرج فى التحريم لما فيه من عدم الاجلال لكلام الله عز وجل والتعظيم وكيف يليق أن يجمع بين المحدث والقديم

.. وقد رخص بعض أهل العلم فى تضمين بعض آيات القرآن فى خطبهم ومواعظهم

وأكثر ما استعمل ذلك الشيخ ابن نباتة وابن الجوزى وقد استعمله كثير من الناس

القسم الرابع عشر

(التذييل والكلام عليه من وجوه)

الأول فى حده والمعنى الذى أتى به من أجله . الثانى فى اشتقاقه . الثالث فى أقسامه (أما الاول) فقال علماء علم البيان انه تذييل المتكلم كلامه بحرف أو جملة يحقق بها ما قبلها من الكلام وتلك الجملة على قسمين . قسم لا يزيد على المعنى الاول وانما يؤتى به للتأكيد والتحقيق . وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله . ومثال ماجاء من الكتاب العزيز متضمناً للقسمين معاً قوله تعالى « إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله » ففى الآية الكريمة تذييلان . أحدهما قوله تعالى ـ وعداً عليه حقاً ـ فان الكلام تم قبل ذلك ثم أتى سبحانه وتعالى بتلك الجملة ليحقق بها ما قبلها والآخر قوله سبحانه ـ ومن أوفى بعهده من الله ـ فأخرج هذا مخرج المثل السائر ليحقق ما تقدم وهو تذييل ثان للتذييل الاول . ومنه قوله عز وجل « ومن أحسن من الله قيلا » . وكقوله تعالى « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى الا الكفور » ومثله فى القرآن كثير . ومثال ماجاء منه من السنة قول النبى صلى الله عليه وسلم ـ من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه فان عملها كتبت عليه سيئة واحدة ولا يهلك على الله الا هالك ـ فقوله ولا يهلك على الله الا هالك تذييل فى غاية الحسن أخرج الكلام فيه مخرج المثل .. ومثال ما جاء من ذلك فى الشعر قول النابغة

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه ... على شعث أىّ الرجال المهذّب

فقوله – أى الرجال المهذب – من أحسن تذييل وقع فى شعر .. ومنه قول الحطيئة

تزور فتىً يُعطى على المدح مالَهُ ... ومن يُعطِ أثمانَ المحامدِ يُحمَدِ

فان عجز البيت كله تذييل أخرج مخرج المثل لأن صدر البيت كله قد استقل بالمعنى .. وأما الحروف فستأتى أمثلته فى الكلام على أقسامه ان شاء الله تعالى (وأما الثانى) فان التذييل مصدر ذيل الشئ يذيله تذييلا اذا جعل له ذيلا مأخوذ من ذيل المرأة وهو ما ينفصل عن قامتها ويزيد عليها فيبقى مجروراً على الارض . قال الشاعر

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا ... وعلى الغانيات جرُّ الذيول

.. وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذيل المرأة فقال يطهره ما بعده فكأنه شبه هذه الجملة لزيادتها وكون المعنى يتم بدونها بالزائد من ذيل المرأة الذى ينجر على الارض (وأما الثالث) فالتذييل على ثلاثة أقسام قد تقدم منها قسمان والثالث هو أن تزيد احدى الكلمتين على الاخرى بحرف فقط إما من آخرها واما من أولها . فمثال الزائد فى آخر الكلمة قولهم فلان حام حامل لاعباء الامور كاف كافل بمصالح الجمهور . وكقول أبى تمام

يمدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

.. ومثال الزائد فى أولها قوله تعالى «والتفّت الساقُ بالساقِ إلى ربّك يومئذٍ المساق» ومنه قول الشاعر

وكم سبقت منه إلىَّ عوارفٌ ... ثنائى على تلك العوارف وارفُ(١)

وكم غُرَرٍ من برهِ ولطائفٍ ... لشكرى على تلك اللطائف طائفُ

القسم الخامس عشر

(المغالطة . والكلام عليه من وجوه)

الاول فى حقيقتها . الثانى فى اشتقاقها . الثالث فى أقسامها (أما الاول) فقال

(١) فى هامش الاصل .. أى ممتد يقال ورف الظل اذا امتد

علماء علم البيان أن المغالطة ذكر الشئ وما يتوهم مقابلاله وليس كذلك (وأما الثانى) فاشتقاقه من الغلط وهو من باب المفاعلة من واحد مثل طارقتُ النعلَ وعاقبتُ اللص لأن فاعله يذكر شيئاً يوقع به غيره فى الغلط ويوهم ما ليس هو المراد وهو المشار اليه فى الحديث المروى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغلوطات وهى شرار المسائل (وأما أقسامها) فاربعة . الاول ان يذكر الشئ وما يتوهم مقابلا له ويسمى مغالطة النقيض وهو مثل قول الشاعر

وما أشياءُ نشريها بمالٍ ... وإن نفقت فأكسدُ ما تكونُ

أوهم بنفقت النفاق السوقى وهو رواج السلعة ومراده الموت يقال نفقت الدابة اذا ماتت . وقد ورد منه عن العرب كثير . من ذلك ما روى أن حيَّين من العرب اقتتلا فقُتل من كل حى قتلى وأسر أسرى فقال أحد الحيين لأسير عندهم أرسل الى قومك رسولا يقول لهم ليكرموا أسيرنا فانا لك مكرمون فقال ائتونى برسول منكم أرسله اليهم فجاؤ برجل فسأله عن أشياء فقال ما أراك الاّ عاقلا أبلغ قومى السلام وقل لهم ليكرموا فلانا فان قومه لى مكرمون وقال له وقل لهم يحلوا عن ناقتى الحمراء ويركبوا جملى الاصهب بآية ما أكلت معكم حيساً وسلوا الحارث عن خبرى فلما بلغهم الرسالة حلوا وثاق ذلك الرجل وقالوا والله ما له ناقة حمراء ولا جمل أصهب فلما انصرف الرسول استدعوا الحارث وقصوا عليه ما قال فقال أشار بقوله حلوا عن ناقتى الحمراء واركبوا جملى الاصهب ارتحلوا عن هذه الارض الدهناء واصعدوا الجبل وأشار بقوله بآية ما أكلت معكم حيساً الى أن أخلاطاً من الناس اتفقوا على أن يغيروا على حيكم ليلا فان الحيس يجمع السمن والتمر والأقط فارتحلوا عن تلك الارض وصعدوا الجبل فأغار عليهم أعداؤهم فلم يجدوهم فى المكان الذى كانوا فيه فسلموا من اغتيال عدوهم لهم . وقد نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال

حُلوا عن الناقة الحمراء أرحلكم ... والبازل الأصهب المعقول فاصطنعوا

انّ الذئاب قد اخضرّت براثنها ... والناس كلهم بكرٌ اذا شبعوا

ومثل هذا عن العرب كثير .. الثانى أن يذكر مع الشئ مثله ويسمى مغالطة المثل

كقول المتنبي

يشلّهمُ بكلّ أقبَّ نهدٍ ... لفارسهِ على الخيلِ الخيارُ
وكلّ أصمَّ يعسلُ جانباهُ ... على الكعبينِ منهُ دمٌ ممارُ
يغادرُ كلَّ ملتفتٍ اليهِ ... ولبّتهُ لثعلبهِ وجارُ

ـ والثعلب ـ الحيوان وطرف السنان ـ والوجار ـ بيت ذلك الحيوان ٠٠ وكقول الشاعر

برغمِ شبيبٍ فارقَ السيفُ كفّهُ ... وكانا على العلّاتِ يصطحبانِ
كأنّ رقابَ الناس قالتْ لسيفهِ ... رفيقُكَ قيسيٌّ وأنت يماني

ـ فالسيف ـ يقال له يمان اذا كان صارماً ـ وشبيب ـ من قيس وكان بين قيس ويمن محاربة ٠٠ ومنه أيضاً

وخلطتم بعضَ القرانِ ببعضهِ ... فجعلتمُ الشعراءَ فى الأنعامِ

ـ فالشعراء ـ جمع شاعر واسم سورة ـ والأنعام ـ الابل والبقر والغنم واسم سورة أيضاً وسبب حسن هذا الفن ما يحصل للنفس من الالتذاذ بفهم ما فيه غموض والأول أحسن لزيادة غموضه ٠٠ الثالث من المغالطات الالغاز ٠ واللغز الطريق المنحرف وسمى به هذا لانحرافه عن نمط الكلام ويسمى أيضاً أحجية لأن الحجى هو العقل وهذا النمط يقوى العقل عند التمرن والارتياض بالاكثار من حله وإعمال الفكر فيه ويسمى أيضاً المعمّى لما فيه من الخفاء ٠ ومن هذا النوع فى أشعار العرب والمخضرمين والاسلاميين وهو فى أشعار المتأخرين منهم أكثر ٠٠ ومنه فى القرآن العزيز ماجاء فى أوائل السور من الحروف المفردة والمركبة التى دقّ معناها وبعد غوره مغزاها وحارت العقول فى معانيها ٠ ومنها قوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام حين سئل لما كسّر الأصنام وقيل له « أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعلهُ كبيرُهم هذا » قابلهم بهذه المغالطة ليقيم عليهم الحجة ويوضح لهم المحجة ٠٠ ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن النمرود لما جادل ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال ابراهيم « ربى الذى يحيي ويميتُ » قال أنا أحيي وأميتُ » يحكى أنه أتى باثنين فقتل أحدهما وأرسل الآخر وكان ذلك من النمرود مغالطة لابراهيم عليه الصلاة والسلام لأن ابراهيم عليه السلام أراد إنّ الله يحيي الميت

ويميت الحى بغير آلة لا يحيي ويميت كذلك الاّ هو ٠٠ ومنه قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما سئل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجا من مكة أعزها الله تعالى فقال انه رجل يهدينى الطريق ٠٠ ومنه قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما سأله الجبار عن زوجته سارة قال هى أختى أراد أخوّة الدين ومثله كثير

القسم السادس عشر

﴿ الاشارة ٠ وتسمى الوحى أيضاً ٠ والكلام عليها من وجوه ﴾

الاول فى حدها ٠ الثانى فى أقسامها ٠ الثالث فى الفرق بينها وبين الكناية

﴿ أما الاول ﴾ فقد قال علماء البيان الاشارة أن تطلق لفظاً جلياً تريد به معنى خفياً وذلك من ملح الكلام وجواهر النثر والنظام ٠ ومنه قوله تعالى « ولا تقل لهما افٍّ » أشار بذلك الى بر الوالدين وترك التعرض اليهما بيسير من الإيلام فضلا عن كثيره ٠ ومنه قوله تعالى « فيهنّ قاصراتُ الطرفِ » اشارة الى عفافهن ٠ ومنه قوله تعالى « وفرشٍ مرفوعة » اشار الى نساء كرام ٠ ومن هذا النوع فلان طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد اشارة بقوله ـ طويل النجاد ـ الى تمام خلقته وبقوله ـ رفيع العماد ـ الى أن بيته مرتفع يعرفه الاضياف والطرّاق وبقوله ـ كثير الرماد ـ الى كثرة قراه الاضياف ٠٠ ويقولون ايضاً فلان جبان الكلب مهزول الفصيل أشاروا بقولهم ـ جبان الكلب ـ الى أنه لكثرة طراقه أنست كلابه الطراق وصارت تلوى رقابها وتحرك أذنابها فرحاً بهم وأشاروا بقولهم ـ مهزول الفصيل ـ الى كثرة سقيه الالبان ومداومة حلب مواشيه فتقل بذلك ألبانها فيهزل الفصيل بسبب ذلك ٠ والاشارات فى القرآن كثيرة خصوصاً على مايراه أرباب الحقائق ٠ وبعض أرباب هذه الصناعة يسمى هذا النوع الايماء ٠٠ ومنه قول الشاعر

بعيدةُ مهوى القرطِ إما لنهشلٍ ... أبوها وإما عبدِ شمسٍ وهاشمِ

أشار بقوله ـ بعيدةُ مهوى القرط ـ الى طول عنقها .. ومنه قول امرئ القيس

كأنّ المدامَ وصوبَ الغمام وريحَ الخزامى ونشرَ العطرْ
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها اذا غرّدَ الطائرُ المستحِرْ

أشار الى طيب رائحة فيها وقت السحر وهو وقت تغير الافواه (وأما الثاني) فأقسامها أربعة . الاول ماقدمناه . والثاني أن يكون اللفظ القليل مشتملا على المعنى الكبير . ومنه قوله تعالى « فيها ما تشتهي الانفسُ وتلذّ الاعينُ » جمع ماتميل اليه النفوس من الشهوات وتلذه الأعين من المرئيات . ومنه قوله تعالى (فأوحى الى عبده ما أوحى) . والثالث من أنواع الاشارة عمل أرباب هذه الصناعة المعميات والالغاز وقد تقدم بيانهما . الرابع من أقسامها التورية وهي أن تكون الكلمة تحتمل معنيين فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر ومراده ما أهمله لاما استعمله ولهذا مواضع نبينها وأمثلتها فيه ان شاء الله تعالى (وأما الثالث) فالفرق بينها وبين الكناية أن الاشارة في الحسن والكناية في القبيح وسيأتي بيانه

القسم السابع عشر

(في الكناية . والكلام عليها من وجوه)

الاول في حدها . الثاني في المعنى الذي أتى بها من أجله . الثالث في أقسامها

(أما الاول) فقد قال علماء علم البيان إن الكناية هي اطلاق لفظ حسن يشير الى معنى قبيح كقوله تعالى « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها » أراد بالارض الثانية نساءهم اللاتي كن محل وطئهم وجهة استمتاعهم .. ومنه قوله تعالى « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق » يريدون أنه يتغوط فكنوا عن التغوط بأكل الطعام لانه سببه .. ومنه قوله تعالى « أحلّ لكم ليلةَ الصيام الرفثُ الى نسائكم هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهنّ » كنى بالرفث عن

الحديث في الجماع وباللباس عن الوطء نفسه .. ومنه قوله تعالى « وأصلحنا له زوجه » أي هيأناها للولادة بعد الكبر . ومنه قوله تعالى « وامرأته قائمة فضحكت » أي حاضت .. قال بعض المتأخرين من الحذاق في هذا الفن الكناية في اللغة الستر وفي الصناعة أن تقصد مجازاً بعيداً مناسباً للحقيقة معضمنه أي ارادتها (١) واذا استعمل اللفظ في ذلك كان ضربا من الاستعارة وتقع الكناية في المفرد والمؤلف وسيأتي بيانه (وأما الثاني) فالمعنى الذي أتى بها من أجله هو الاجمال في الخطاب والدفع بالتي هي أحسن والتجنب للهُجر من القول إذ هو أرسخ في الالفة وأمكن . قال الله تعالى « ادفعْ بالتي هي أحسنُ فاذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حميمٌ » (وأما الثالث) فقد اختلفت عبارات أهل هذه الصناعة فيها وآثرها ما ذكره ابن الاثير في جامعه قال إن الكناية على قسمين . قسم يحسن استعماله . وقسم لا يحسن استعماله .. فأما الضرب الأول وهو الذي يحسن استعماله فينقسم الى أربعة أقسام . الاول التمثيل وهو التشبيه على سبيل الكناية وذلك أن تراد الاشارة الى معنى فتوضع ألفاظ على معنىً آخر وتكون تلك الالفاظ وذلك المعنى مثالا للمعنى الذي قصدت الاشارة اليه والعبارة عنه كقولنا ـ فلان نقي الثوب ـ أي منزه عن العيوب وللكلام بهذا فائدة لا تكون لو قصد المعنى بلفظه الخاص به وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصوير المدلول عليه لانه اذا صور في نفسه مثال ما خوطب به كان ذلك أسرع الى الرغبة فيه أو الرغبة عنه . فمن بديع التمثيل قوله تعالى « أيحبُّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » فانه مثل الاغتياب بأكل الانسان لحم انسان آخر مثله ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم لاخ ولم يقتصر على لحم الاخ حتى جعله ميتاً ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مناسبة مطابقة للمعنى الذي وردت لأجله . فأما تمثيل الاغتياب بأكل لحم انسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا وذلك لأن الاغتياب انما هو ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم وتمزيق العرض مماثل لأكل الانسان لحم من يغتابه لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة وأما قوله لحم أخيه فلما في الاغتياب من الكراهة لأن أرباب

العقل والشرع قد أجمعوا على استكراهه وأمروا بتركه والبعد عنه • ولما كان كذلك كان بمنزلة لحم الاخ فى كراهته ومن المعلوم أن لحم الانسان مستكره عند انسان آخر مثله الا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه وهذا القول مبالغة فى الاستكراه لا أمد فوقها •• وأما قوله - ميتاً - فلاجل ان المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها •• وأما جعله ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل الى الغيبة والشهوة لها مع العلم بأنها من أذم الخلال ومكروه الافعال عند الله عز وجل والناس •• ومن هذا القسم قوله تعالى « ولا تجعلْ يدَك مغلولةً الى عُنقك ولا تبسُطها كلَّ البَسْطِ » فمثل البخل بأحسن تمثيل لان البخيل لا يمد يده بالعطية كالمغلول الذى لا يستطيع أن يمد يده وانما قال - ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك - ولم يقل ولا تجعل يدك مغلولة من غير ذكر العنق لانه قد قال تعالى - ولا تبسطها كل البسط - فناب ذكر العنق عن قوله كل الغل لأن غل اليدين الى العنق هى اقصى الغايات التى جرت العادة بغل اليد اليها •• ومن امثال العرب - اياك وعقيلة الملح - وذلك تمثيل للمرأة الحسناء فى المنبت السوء لأن عقيلة الملح هى الذرة .. ومن التمثيل قول ابن الدمينة

أبينى أفى يُمنى يديك تركتنى … فأفرحَ أم صيرتنى فى شمالكِ

أى ابينى أمنزلتى كريمة عندك أم هينة عليك فذكر اليمين وجعلها مثالا لا كرام المنزلة وذكر الشمال وجعلها مثالا لهوان المنزلة لان اليمين اشرف مكانة من الشمال وأكرم محلا • وفى القرآن العظيم مايدل على ذلك وهو قوله تعالى « وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمين فى سِدرٍ مخضودٍ » الى قوله « وماءٍ مسكوبٍ » فلما جاء الى ذكر الشمال قال تعالى « وأصحاب الشمالِ ما أصحابُ الشمالِ فى سمومٍ وحميمٍ وظلٍ من يحمومٍ » فاعرف ذلك • الثانى الارداف وهو اسم سماه قدامة بن جعفر الكاتب قال اعلم أن أكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا الارداف فى التمثيل وفى الفرق بينهما اشكال ودقة فأما التمثيل فقد سبق الاعلام به وهو ان يراد الاشارة الى معنى فتوضع الالفاظ على معنى آخر فتكون تلك الالفاظ وذلك المعنى مثالا للمعنى الذى قصدت الاشارة اليه والعبارة عنه كقولنا - فلان نقى الثوب - أى منزه عن العيوب • وأما الارداف فهو أن يراد الاشارة الى معنى

فيترك اللفظ الدال عليه ويؤتى بما هو دليل عليه ورادف له كقولنا - فلان طويل النجاد - والمراد طويل القامة الا انه لم يتلفظه بطول القامة الذى هو الغرض ولكن ذكر ماهو دليل على طول القامة وليس نقاء الثوب بدليل على النزاهة عن العيوب وانما هو تمثيل لها فاعرف ذلك • واعلم أن الارداف يتفرع الى خمسة فروع •• الاول فعل البداهة كقوله تعالى « ومنْ أظلمُ ممنْ افترَى على اللهِ كذباً أو كذّبَ بالحقّ لمّا جاءهُ » أى انه سفيه الرأى بمعنى أنه لم يتوقف فى كلامه وقت ماسمعه ولم يفعل كما تفعل المراجيح العقول المتثبتون فى الاشياء فان من سفاهتهم اذا ورد عليهم أمرٌ أو سمعوا خبراً أن لا يستعملوا فيه الروية وتأنوا فى تدبره الى أن يصح لهم صدقه أو كذبه • ألا ترى أن معنى قوله - كذّب بالحق لما جاءه - أى انه ضعيف العقل عازب الرأى فعدل عن ذلك الى ماهو دليل عليه ورادف له وذلك آكد وأبلغ • ومن ذلك قوله تعالى « واذا تُتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجلٌ يُريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » ومثله فى القرآن كثير •• الثانى من الارداف باب المثلِ وهو ان العرب تأتى بمثل فى هذا توكيداً للكلام وتشييداً من أمره يقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبح - مثلى لا يفعل هذا - أى أنا لا أفعله فنفى ذلك عن مثله وهو يريد نفيه عن نفسه قصداً للمبالغة فيسلك به طرق الكناية لانه اذا نفاه عن مثله ومشابهه فقد نفاه عنه لا محالة • كذلك قولهم أيضاً - مثلك اذا سئل أعطى - أى أنت كذلك • وهو كثير فى الشعر القديم والمولد وفى الكلام المنثور •• وسبب توكيد هذه المواضع بمثل انه يراد أن يجعل نفسه من جماعة هذه أوصافهم تثبيتاً للامر وتوكيداً له ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ولم ترثب فيه قدمه • مثل ذلك قولهم لانسان - أنت من القوم الكرام - أى لك فى هذا الفعل سابقة وأنت حقيق به ولست دخيلا فيه •• ومن هذا الباب فى القرآن كثير كقوله تعالى « ليس كمثله شئٌ وهو السميعُ البصيرُ » وهذا كقولك - مثلى لا يفعل كذا - فينفون البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذلك قصداً للمبالغة لانهم اذا نفوه عن من يسد مسده وهو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه • ونظير ذلك قولك للعربى - العرب لا تخفر الذمم - وهذا أبلغ من قولك أنت لا تخفر الذمم وليس فرق بين قوله تعالى « ليسَ كمثلهِ شئٌ » وبين قوله

ليس كالله شئ إلا من الجهة التى نبهنا عليها فاعرفها . الثالث من الارداف ما يأتى فى جواب الشرط وذلك من ألطف الكنايات واحسنها . فمن ذلك قوله تعالى « وقالَ الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث » كناية عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه وذلك رادف له . ونظيره قولك كنت تنكر حضور زيد فها هو أى فأنت كاذب وهذا من دقائق الكناية .. الرابع من الارداف الاستثناء من غير موجب وذلك من غرائب الكناية كقوله تعالى « ليس لهم طعامٌ إلا مِن ضريعٍ » الآية . — والضريع — نبت ذو شوك تسميه قريش الشبرق فى حال خضرته وطراوته فاذا يبس سمته الضريع والابل ترعاه طرياً ولا تقربه يابساً . والمعنى ليس لهم طعام أصلا لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الانس وهذا مثل قولك — ليس لفلان ظل الاّ الشمس — تريد بذلك نفى الظل عنه على التوكيد وذلك رادف لانتفاء الظل عنه كما ذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام .. وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم

وتفرّدُوا بالمَكرُماتِ فلم يكنْ لسواهمُ منها سوَى الحرْمانِ

فالمراد نفى المكرمات عن سواهم لأنهم اذا كان لهم الحرمان من المكرمات فما لهم منها شئ .. الخامس من الارداف وليس مما تقدم بشئ وذلك نحو قوله تعالى « عَفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهمْ » والمراد به اذا خوطب بمثل هذا غير النبى صلى الله عليه وسلم أنك أخطأتَ وبئس ما فعلت فقوله — لم أذنتَ لهم — بيان لما كنى عنه بالعفو أى مالك أذنت لهم وهلا استأنيت فذكر العفو دليل ورادف له وان لم يذكر . وكذلك قوله تعالى « فانْ لم تفعَلوا ولَنْ تفعلوا فاتَّقوا النارَ التى وَقودُها النّاسُ والحجارَة أعِدّتْ للكافرين » قيل لهم ان أستندتم الى العجز فاتركوا العناد فوضع قوله — فاتقوا النار — موضعه لأن اتقاء النار لصيقة وضميمة من حيث أنه من نتائجه وروادفه لأن من اتقى النار ترك المعاندة . ونظيره أن يقول الملك لحشمه — إن أردتم الكرامة عندى فاحذروا سخطى — يريد فأطيعونى وأطيعوا أمرى واحذروا ما هو نتيجة حذر السخط وروادفه .. ومن هذا الباب قوله تعالى « قالت الأعرَابُ آمنّا قلْ لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ألا ترى الى لطافة هذه الكناية فانها أفادت تكذيب دعواهم ودفع

ما انتحلوه وفائدتها هاهنا أنه روعى فى تكذيبهم أدب حسن لم يصرح بلفظه فلم يقل كذبتم لأن فيه نوع استقباح فى الخطاب فوضع قوله — قل لم تؤمنوا — الذى هو نفى ما ادعوا اثباته موضعه لأن ذلك رادف له .. ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعِفوا لمن آمنَ منهم أتعلمون أنّ صالحاً مُرْسَلٌ من ربهِ » أثبت العلم بارساله وانه من الأمور الظاهرة المسلمة التى لا يدخلها ريب ولا يعتريها شك لكن عدل عن ذلك الى ما هو دليل عليه ورادف له وهو الايمان به أعنى صالحاً إنما صح عنهم بعد ثبوته عندهم والعلم بارساله اليهم فالايمان به أدنى دليل على العلم بأنه نبى مرسل وهذا من دقائق الارداف ولطائفه . وأمثال ذلك كثيرة كقول الاعرابية فى حديث أم زرع تصف زوجها له إبلٌ قليلاتُ المسارح كثيرات المبارك اذا سمعن صوت المزاهر أيقَنّ أنهُنّ هوالك .. فان الظاهر من هذا القول أن ابله يبركن عند بيته بفنائه ولا تبرح ليقرب عليه نحرها للاضياف فاذا هُزت المزاهر للغناء نحرها لضيوفه فقد اعتادت هذه الحالة وأيقنتها وغرض الاعرابية من هذا الكلام أن تصف زوجها بالجود والكرم ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه وانما أتت بمعان دلت على ذلك من غير تصريح بمرادها .. وكذلك قال بعضهم

وَدِدْتُ وما تغنى الوَدَادة أننى بما فى ضمير الحاجريةِ عالمُ

فان كان خيراً سَرَّنى وعلمتُهُ وإن كان شرًّا لم تلُمنى اللوائمُ

أى أهجرها فأضرب عن ذلك جانبا ولم يذكر ذلك اللفظ المختص به لكنه ذكر ما هو دليل عليه ورادف له .. الثالث من الكناية وهو المجاورة وذلك أن يريد المؤلف ذكر شئ فيترك ذكره جانباً الى ما جاوره فيقتصر عليه اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود كقول عنترة

فشكَكْتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القَنا بمُحرَّمِ

أراد — بالثياب — هنا نفسه لانه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب وفى ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصناعة

وقال أيضاً

بِزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أشعةٍ قُرِنَتْ بأزهرَ فى الشمالِ مُفدّمِ

- الصفراء - هاهنا هى الخمرة والذكر للزجاجة حيث هى مجاوِرة لها ومشتملة عليها ٠ وذهب بعضُ المفسرين فى قوله تعالى « وَثيابَكَ فطهّرْ » انه أراد بالثياب القلب أو الجسد أى وقلبك فطهر أو جسدك ٠٠ ومنه قول امرئ القيس

فإنْ تكُ قد ساءتكِ منى خليقةٌ فسُلى ثيابى من ثيابكِ تنسُلى

٠٠ الرابع من الكناية ماليس بتمثيل ولا ارداف ولا مجاورة كقوله تعالى « أو من ينشَّؤُ فى الحليةِ وهو فى الخِصامِ غيرُ مُبينٍ » فكنى بأنهم يتزينون فى الحلية أى الزينة والنعمة وهو اذا احتاج الى مجاراة الخصوم كان - غير مبين - أى ليس عنده بيان ولا برهان يحاج به من خاصمه وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال ٠٠ ومن هذا الباب قال أبى نواس

تقولُ التى من بيتِها خَفَّ مَحمِلى عزيزٌ علينا أنْ نراكَ تسيرُ

٠ ألا ترى ما أحسن هذه الكناية فانه أضربَ عن ذكر امرأته بقوله - من بيتها خف مركبي - فانه من ألطف الكناية مذهباً ٠٠ وكذلك قول نصيب

فعاجُوا فأثنوا بالذى أنتَ أهلهُ ولو سَكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

٠٠ وقال الجاحظ نحن قوم نسحر بالبيان ونموه بالقول ٠٠ الثانى من التقسيم الاول من الكناية وهو الذى يقبح ذكره ولا يحسن استعماله كقول أبى الطيب المتنبى

إنى على شَغفى بما فى خُمرِها لأعِفُّ عمافى سراويلاتِها

فانّ هذه كناية عن النزاهة والعفة وعلم الله أن الفجور لاحسن منها ٠٠ وقد ذكر الشريف الرضى هذا المعنى فابرزه فى أجمل صورة فقال

أحنُّ الى مايضمنُ الخُمرُ والحُلى وأصدِفُ عما فى ضمان المآزر

ألا ترى الى هذه الكناية ما الطفها والمعنيان سواء ٠ وبهذا يعرف فضل الشاعرين أحدهما على الآخر وذلك اذا أخذا معنىً واحداً فصاغه أحدهما أحسن صياغةً تميزه

عن صياغة الآخر

القسم الثامن عشر

(التعريض)

وقد اختلف فيه مذاهب بعض علماء هذا الشأن فذهب بعضهم الى أن الكناية والتعريض بمعنىً واحد وبعضهم فرق بينهما ٠٠ قال ابن الاثير فى جامعه فى الكناية والتعريض ان لهذا النوع من الكلام موقعاً شريفاً ومحلا كريماً وهو مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً وذلك نوع من علم البيان لطيف وقد تكلم جماعة من المؤلفين فى هذا الفن وخلطوا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما بل أوردوا لهما من النظم والنثر وأدخلوا أحد القسمين بالآخر وذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية فمنهم أبو محمد بن سنان الخفاجى وأبو هلال العسكرى والغانمى فأما ابن سنان فانه ذكر فى كتابه قول امرئ القيس -

وصِرْنا الى الحُسنى ورَقَّ كلامنا ورُضتُ فذلت صعبةٌ أىَّ إذلال

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة وهو مثال للتعريض ٠ وسنورد لك أيها الناظر فى كتابنا هذا فرقا بين الكناية والتعريض ونميز أحدهما عن الآخر فنقول وبالله التوفيق ٠ ان الكناية هى أن يذكر الشئ بغير لفظه الموضوع له كما كنى الله عز وجل عن الجماع بالمس فان حقيقة المس هى الملامسة يقال مسست الشئ اذا لمسته ولما كان الجماع ملامسة بالابدان وزيادة أمر آخر أطلق عليه اسم المس مجازاً وضد الكناية التصريح ٠ وأما التعريض فهو أن يذكر شيأ يدل به على شئ لم يذكره وأصله التلويح عن عُرض الشئ وهو جانبه وبيت امرئ القيس ضربه مثالا للكناية وهو عين التعريض فان غرضه من ذلك أن يذكر الجماع غير أنه لما استقبح ذكره لم يذكره بل ذكر كلاما آخر ودل به عليه لأن المصير الى الحسنى ورقة الكلام يفهم منها ما أراده أمرؤ القيس من المعنى

وذلك مما لاخفاء به وحيث تبين الفرق نشرع فى أقسام كل واحد من الكناية والتعريض فنقول ٠٠ ان الكناية هى على قسمين ٠ أحدهما ما يحسن استعماله وهو الذى نحن بصدد ذكره هاهنا والآخر مالا يحسن استعماله وقد تقدم بيانهما ٠ وأما التعريض فقد ميزه الله تعالى فى خطبة النساء فقال جل من قائل « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » قال المفسرون التعريض بالخطبة أن يقول لها وهى فى عدة الوفاة انك لجميلة وانك لحسنة وانى اليك لشيق وان قدر الله شيئاً فهو يكون وما أشبه ذلك ٠ ومما هو من التعريض قوله حكاية عن عبدة الاصنام حين كسرها ابراهيم عليه السلام « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » يعنى أن كبير الاصنام غضب ان تعبد هذه الاصنام الصغار معه فكسرها فغرض ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم لانه قال ـ فاسألوهم ان كانوا ينطقون ـ هذا على سبيل الاستهزاء بهم ٠ وهذا من رموز الكلام والقصد فيه ان ابراهيم عليه السلام لم يكن القصد الصادر عنه الى الصنم انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أنه أسلوب من الفصاحة آخر يقتضى أن يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم وتبكيتهم والاستهزاء بهم ٠ ومن بديع التعريض قوله تعالى « قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا » الى قوله « بل نظنكم كاذبين » فقوله ـ ما نراك الا بشراً مثلنا ـ تعريض انهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا هب انك واحد من الملائكة وموازن لهم فى المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ألا ترى الى قوله تعالى حكاية عنهم ـ وما نرى لكم علينا من فضل ـ ٠ ومن مشكلات التعريض حديث عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال حكت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابنى ابنته وهو يقول والله انكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون وانكم لمن ريحان الله وان آخر وطأة وطئها الله بوج ٠٠ اعلم أن وج وادٍ بالطائف والمراد غزاة حنين وادقبل وج لانها آخر غزاة وقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد

حنين فلم يكن فيهما وطأة اى قتال وانما كانتا مجرد خروج الى الغزاة حسب من غير ملاقاة العدو أعنى ولا قتالهم ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ـ وان آخر وطأة وطئها الله بوج ـ على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته لأن غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ووفاته كانت فى ربيع الاول من سنة احدى عشرة وبينهما سنتان ونصف وكأنه قال ـ وإنكم من ريحان الله ـ أى من رزق الله وأنا مفارقكم عن قريب إلا انه صانع عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله ـ وان آخر وطأة وطئها الله بوج ـ فكان ذلك تعريضاً لما أراده وقصده من قرب وفاته ومفارقته إياهم يعنى اودلاه وهذا من أغرب التعريضات وأعجبها ٠ ومن هذا الباب قول الشميدر الحارثى

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعد ما ‍ ‍ دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

فان ليس قصده الشعر بل قصده ماجرى بينهم بهذا الموضع من الغلبة لهم والقوة عليهم إلا انه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر ودفنه تعريضاً أى لاتفخرون بعد ذلك الواقعة التى جرت لنا ولكم بذلك المكان ٠ ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن سعد الى المأمون فى حق بعض أصحابه أما بعد فقد استشفع فلان الى أمير المؤمنين ليتطول فى الحاقه بنظرائه من الخاصة فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك بعد عن طاعته فوقع المأمون فى كتابه قد عرفنا نصيحتك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليهما

القسم التاسع عشر

(الاستطراد)

وهو التعريض بعيب انسان بذكر عيب غيره لمتعلق أو نفى عيب عن نفسه بذكر عيب غيره مثل قوله تعالى « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » ٠ ومثل قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة

عادٍ وثمود » ٠ ومثل قوله تعالى « ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمودَ » ومثل هذا فى القرآن كثير ٠٠ ومنه فى الشعر قول السموءل بن عاديا

وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ
يُقربُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطولُ

٠٠ وقال آخر

ولا عيبَ فينا غيرُ عِرقٍ لمعشرٍ ... كرامٍ وأنّا لا نخطّ على الرّمل

يريدُ أنا لسنا بمجوسٍ فان المجوسَ كانت تزعمُ ان الرجلَ منهم اذا تزوج أخته أو ابنته فجاءت منه بولد ان ذلك الولد اذا خط بيده على داء النملة ابرأه

القسم العشرون

(فى التورية)

وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنىً ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر وهو فى القرآن العظيم كثير ٠ من ذلك قوله تعالى « حتى نؤتى مثلَ ما اوتىَ رسل الله الله اعلم حيث يجعل رسالاته » الآية الجلالة الأولى مضاف اليها والثانية مبتدأ بها ٠ وقوله تعالى « ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون يعلمونَ ظاهراً من الحياة الدنيا » ٠ ومثله قوله تعالى » لمسجد أسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه رجال »

القسم الحادى والعشرون

(الاحتجاج النظرى)

وبعض اهل هذا الشأن يسميه المذهب الكلامى ٠٠ وهو ان يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضرب من المعقول ٠ ومنه قوله تعالى « اوليسَ الذى خلقَ السموات

والارضَ بقادرٍ على إن يَخلقَ مِثلَهم » ٠ وقوله عز وجل « لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا » ٠ وقوله تعالى « قالَ من يحيي العظام وهى رميمٌ قلْ يحييها الذى أنشأها أول مرةٍ » ٠٠ ومنه قول الشاعر

جَرَى القضاء بما فيهِ فلا تلم ... ولا مَلام على ما خُطَّ بالقلم

٠٠ وقيل إنّ الاحتجاج أن يخرج الكلام على طريقة الجدل كقول النابغة

مُلوكٌ واخوانٌ اذا ما أتيتُهمْ ... أُحكَّمُ فى أموالهم وأُقرّبُ
كفعلكَ فى قومٍ أراك اصطنعتَهم ... فلم ترهُمْ فى شُكرِ ذلك اذنبوا

يقول لا تلمنى فى مدح آل جفنة وقد أحسنوا الى كما أحسنت الى قوم فشكروك فلم ر ذلك ذنباً

القسم الثانى والعشرون

(حسن المطالع والمبادى ٠ ويقال فيه حسن الافتتاح)

قال علماء علم البيان ٠٠ ومن ضروب هذا العلم حسن المطالع والفواتح وذلك دليل على جودة البيان وبلوغ المعانى الى الاذهان فانه أول شئ يدخل الاذن وأول معنى يصل الى القلب وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل وهو فى القرآن العظيم على قسمين ٠ جلى وخفى ٠ أما الجلى فكقوله تعالى « الحمدُ لِلهِ ربِّ العالمين » ٠ وكقوله تعالى « الحمد لِلهِ الذى خلقَ السموتِ والارضَ وجعلَ الظلماتِ والنورَ » ٠ وقوله « تبارك الذى بيدهِ الملكُ وهو على كلُ شيءٍ قديرٌ » وأكثر مطالع سور القرآن على هذا النمط ٠ وأما الخفى فمثلُ قوله تعالى « الٓمٓ ذلك الكتابُ » ٠ وقوله « الٓمٓ اللهُ لا إلهَ إلاّ هو الحىُّ القيومُ » ٠ وقوله « الٓمٓصٓ » ٠ وقوله « حمٓ » ٠ وقوله « قٓ والقرآن » ٠ وقوله « نون والقلم » وما يجرى مجرى ذلك من السور التى أفتتحت بالحروف المفردة والمركبة وسيأتى الكلام عليها فى فصل مفرد

القسم الثالث والعشرون

(حسن المقطع)

وهو عند أرباب هذا الشأن أن يختم المتكلم كلامه بكلام حسن السبك بديع المعنى فانه آخر ما يبقى فى الذهن ولانه ربما حفظ من دون سائر الكلام فيتعين أن يجتهد فى رشاقته وحلاوته وجزالته وجميع خواتم سور القرآن فى غاية الحسن ونهاية الكمال لانها بين • أدعية • ووصايا • وفرائض • وقضايا • وتحميد • وتهليل الى غير ذلك من الخواتم التى لا يبقى للنفوس بعدها تطلع ولا الى ما يعقبها تشوف _ كالدعاء _ التى ختمت به سورة البقرة _ والوصايا _ التى ختمت بها سورة آل عمران _ والفرائض _ التى ختمت بها سورة النساء _ والتبجيل _ والتعظيم _ اللذين ختمت بهما سورة المائدة _ والوعد • والوعيد _ اللذين ختمت بهما سورة الانعام _ والتحريض _ على العبادة بوصف حال الملائكة الذى ختمت به سورة الاعراف _ والحض على الجهاد • وصلة الرحم _ التى ختمت بهما سورة الانفال • ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدحه وتسليته ووصيته بالتهليل التى ختمت به سورة براءة • وتسليته التى ختمت بها سورة يونس ومثلها خاتمة سورة هود • ووصف القرآن ومدحه اللذين ختمت بهما سورة يوسف • والرد على من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ختمت به سورة الرعد • ومدح القرآن وذكر فائدته والعلة فى انزاله التى ختمت به سورة ابراهيم • ووصية الرسول التى ختمت بها سورة الحجر • وتسليته صلى الله عليه وسلم وطمأنينته ووعد الله سبحانه الذى ختمت به سورة النحل • والتحميد الذى ختمت به سورة سبحان • وتحضيض الرسول صلى الله عليه وسلم على الابلاغ والاقرار بالبشرية والأمر بالتوحيد الذى ختمت به سورة الكهف • وما ذكر فى نصف القرآن مثال لمن نظر فى بقيته الى غير ذلك من فواصل القرآن

القسم الرابع والعشرون

(فى براعة الاستهلال)

وهو أن يذكر الانسان فى أول خطبته أو قصيدته أو رسالته كلاماً دالاً على الغرض الذى يقصده ليكون ابتداء كلامه دالا على انتهائه كما قيل لكاتب أكتب الى الامير وعرفه بأن بقرة ولدت حيواناً على شكل الانسان فكتب • أما بعدُ حمداً لله الذى خالق الانام فى بطون الانعام • ومنه قوله تعالى « الم غُلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعدِ غَلَبهم سيغلبون » • ومنه قوله تعالى « بَراءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين » • ومنه فى القرآن كثير •• وشرطه أن لا يبتدأ بشئ يُتطير منه كقولة الاخطل

اذا مُتّ مات الجودُ وانقطع الندى ... ولم يبقَ إلاّ من قليلٍ مُصَرّدِ

•• وان يجتنب التشبيب بالاسم المستكره كقول جرير

وتقولُ بوزعُ قد دَنيتِ لغيرنا ... هلاّ هويتِ لغيرنا يابوزع(١)

•• بل يبتدىء بالمديح مثل قول أبزون العُمانى

على منبر العلياء جدك يخطبُ ... وللبلدة العذراء سيفك يخطبُ

وفى التهانى بمثل قول المتنبى

المجدُ عُوفىَ إذ عوفيتَ والكرمُ ... وزال عنكَ الى اعدائك الالمُ

•• وقولُ الآخر

أبشرْ فقد جاء ما تريدُ ... وبادَ أعداءك المُبيدُ

•• وفى التشبيب كمثل قوله

زمّوا الجمالَ فقلْ للعاذلِ الجانى ... لاعاصمَ اليوم من مدرار أجفانى

---

(١) هكذا فى الاصل والمحفوظ

وتقول بوزع قد دببت على العصا ... هلا هزئت بغيرنا يابوزع

•• وفى المرائى يمثل قول أوس

أيتها النفس أجملي جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

(قال المصنف) عفا الله عنه هذا النوع قد قدمناه فى فصل حسن المطلع لكن الزنجانى رحمه الله أفرد له باباً فأفردناه على حكم ما أفرده وكان فى فصل حسن المطلع زيادات يحتاج اليها فذكرناها هاهنا وهذه الزيادة التى اقتضت افراده

﴿ القسم الخامس والعشرون ﴾

(الانتقال من فن الى فن • ويسمى التخلص • والكلام عليه من وجوه)

الاول فى حقيقته • الثانى فى شرطه • الثالث فى الفرق بينه وبين الاقتضاب • الرابع فى المعنى الذى جيء به من أجله • الخامس فى ذكر من هو أحق باستعماله (أما الاول) فقال علماء علم البيان التخلص هو أن يأخذ المؤلف فى معنًى من المعانى فبينما هو فيه اذ أخذ فى معنًى آخر غيره وجعل الاول سبباً اليه فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ افراغا (وأما الثانى) فمن شرطه أن يكون انتقاله من فن الى فن ببديع وحسن وصف ووجازة لفظ ورشاقة معنًى ليكون الذى انتقل اليه أقرب الى القلب وأعلق بالنفس من المعنى الذى انتقل عنه (وأما الثالث) فالفرق بينه وبين الاقتضاب أن التخلص لا يكون الا لعلاقة بينه وبين ما تخلص منه • وأما الاقتضاب فليس شرطه أن يكون بينه وبين ما قبله علاقة بل يكون كلاماً مستأنفاً منقطعاً عن الاول (وأما الرابع) فالمعنى الذى جيء به من أجله شيئان • أحدهما معرفة حذق المتكلم وقوة ملكته فى التلعب بالكلام وتصرفه فيه وطول باعه واتساع قدرته فى الفصاحة والبلاغة • والثانى التفنن بحصول ملاذ كثيرة وتكون لذته بأمور اقتضاها اعمال الفكرة فيما يتخلص به من بديع المعنى ورشيق اللفظ وحسن النسق (وأما الخامس)

فالأحق باستعماله الشاعر فان الشاعر تحصره القوافى والاوزان فيضيق عليه النطاق اذا اقتصر على معنًى واحد فتدعو حاجته الى الخروج من فن الى فن ومن معنى الى معنى ليتسع نطاقه ويتحقق ارفاقه بخلاف الناثر فانه مطلق العنان ممدود الباع منبسط البنان يمضى حيث شاء ويتفنن فى الانشاء • وقد ورد فى القرآن العظيم من هذا النوع آيات كثيرة • منها قوله تعالى « قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدوٌّ لى الا ربَّ العالمين الذى خلقنى فهو يهدين » لما أراد الانتقال من أحوال أصنامهم الى ذكر صفات الله عز وجل قال ـ ان أولئك أعداء لى الا الله ـ فانتقل بطريق الاستثناء المنفصل وهو خير من غيره من الكلام ومثله فى القرآن كثير

﴿ القسم السادس والعشرون ﴾

(فى الاقتضاب والكلام عليه من وجوه)

الاول فى حقيقته • الثانى فى المعنى الذى أتى به من أجله • الثالث فى أقسامه الرابع فى أدواته • الخامس فى الفرق بينه وبين التخلص • السادس فى ذكر اختلاف الائمة فى الأبلغ منهما (أما الأول) فقال علماء علم البيان ان الاقتضاب ضد التخلص وذلك أن يقطع الناظم كلامه الذى هو فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره من مدح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثانى علاقة بالأول ولا تلفيق بينه وبينه وهو مذهب القدماء ولذلك قال أبو العلاء محمد بن غانم الغانمى ان كتاب الله العزيز خال من الاقتضاب والتخلص • وهذا القول فاسد لأن حقيقة التخلص انما هى الخروج من كلام الى كلام آخر غيره بلطيفة تناسب بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج اليه وفى القرآن العظيم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير والانذار والبشارة بالجنة الى أمر ونهي ووعد ووعيد ومن محكم الى متشابه ومن صفة لنبي ونبإ منزل

الى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذة بالقلب أنيقة .. فما جاء من التخلص فى القرآن الكريم قوله تعالى « واتلُ عليهم نبأ إبراهيمَ إذ قال لابيه وقومهِ ما تعبُدُون قالوا نعبُدُ أصناماً فنظَلُّ لها عاكفين قال هل يسمَعُونكم إذ تدْعون » الى قوله « فلو أنّ لنا كرَّةً فنكونَ من المؤمنين » الآيات . هذا كلام تُذهل العقول وتحيّر الالباب وفيه كفاية لطالب البلاغة والمتصب لهذه الصناعة فانه متى أنعم فيه النظر وتدبر أنباءه ومطاوى حكمته علم أن فى ذلك غنىً لمن تصفح الكتب المؤلفة فى هذا الفن . ألا ترى أيها المتأمل ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه الصلاة والسلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لاسؤال مستفهم ثم أنحى الى آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع والى تقليد آبائهم الاقدمين فكشفه وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم أراد الخروج من ذلك الى ذكر الاله الذى لا تجب العبادة إلاله ولا ينبغى الرجوع والانابة الا اليه فصور المسئلة فى نفسه دونهم لقوله ـ فانهم عدوٌّ لى الا ربَّ العالمين ـ على معنى انى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة العدوّ وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرتُ عبادةَ مَن الخير كله منه وأراهم بذلك انها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا ما نصحنا ابراهيم الابما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى لهم الى القبول وأبعث على الاستماع منه ولو قال ـ فانهم عدوٌّ لكم ـ لم تكن بتلك المثابة فتخلص عند تصويره المسئلة فى نفسه الى ذكر الله تعالى وأجرى تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لدن خلقه وإنشائه الى حين وفاته مع ما يرجو فى الآخرة من رحمته ليعلم بذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة وواجب على الخلق الخضوع له والاستكانة من عظمته ثم خرج من ذلك الى أدعية مناسبة فدعا الله بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الأوابين لأن الطالب من مولاه والراغب اليه اذا قدّم قبل سؤاله وضراعته الاعتراف بالنعمة والاقرار بالاحسان كان ذلك أسرع بالاجابة وأنجح لحصول القصد والطلبة ثم أدرج فى ضمن دعائه ذكر البعث يوم القيامة ومجازات الله تعالى لمن آمن به باثابة الجنة ولمن ضل عن عبادته بالنار فجمع بين الترغيب فى طاعته والترهيب من معصيته ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون من الاصنام سؤال

موبخ لهم مستهزئ بهم وذكر ما يُدفعون اليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى العودة ليؤمنوا .. فانظر أيها المتأمل الى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على لطيفة دقيقة حتى كأنه معنى واحد وخرج من ذكر الاصنام وتقريره لابيه وقومه من عبادتهم إياها مع ماهى عليه من التعرى عن صفات الالهية حيث لاتضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع الى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الالوهية وعظّم شأنه وعدد نعمه ليعلم بذلك أن العبادة لاتصح الا له ثم خرج من هذا الى دعائه إياه وخضوعه له ثم خرج منه الى ذكر يوم القيامة وثواب الله عز وجل وعقابه فتدبر هذه التخليصات اللطيفة وضم هذا الى غيره من تضمين هذا الكلام بأنواع من صناعة التأليف وهى الايجاز والكناية والتقديم والتأخير ثم إنابة الفعل الماضى عن الفعل المضارع . فأما الايجاز فلا خفاء به على العارف بما أشرنا اليه فى بابه الذى سبق ذكره أولا وان من جملة قوله تعالى « وأزلفتِ الجنة للمتقينَ وبرزت الجحيم للغاوين » فانه جمع الترغيب فى طاعته والترهيب من معصيته مع عظمهما وفخامة شأنهما فى هذه الكلمات اليسيرة . وأما الكناية فقوله ـ وبرزت الجحيم للغاوين ـ والغاوون هنا كناية عن أبيه وقومه ويدل على ذلك قوله وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ـ لان كلامه فى الاول كان معهم فى عبادتهم للاصنام . وأما التقديم والتأخير فانه ذكر ابراهيم النعمة وتعديد الاحسان قبل الدعاء وطلب الحاجة . وأما انابة الفعل الماضى عن المضارع فقوله ـ وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ـ بعد قوله ـ ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ـ وفى ذلك من الفائدة ما أشرنا اليه فى بابه وقد سبق ذكره (وأما الثانى) فالمعنى الذى أتى به من أجله تشوف النفس بعد قطع الكلام الاول الى الكلام الثانى الذى بعده ولا سيما اذا لم يكن بفاصلة فانه يدل على تمكن المتكلم فى البلاغة وقوة ملكته فى التلاعب بالكلام وجودة فكرة المؤلف وحسن فطرة السامع وصحة ذهنه (وأما الثالث) فقال علماء البيان هو على قسمين . منه ما يكون بفاصلة . ومنه ما لا يكون بفاصلة وهو بالفاصلة أحسن

لأن بها تتشوف النفس الى المعنى الثانى فتكون له لذاذة أشد مما اذا ورد بغتة (وأما الرابع) فأدواته فواصله وهى ـ أما بعد ـ وقيل إن أول من تكلم بها رسول الله ثم تداولها الناس بعده ـ وهذا • وهذه ـ وقد يذكر لهما خبر كقوله تعالى « هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب » وقد لا يذكر لهما خبر كقوله تعالى « هذا وإن للطاغين لشر مآب » وكما قال الشاعر

هذا وكم لى بالجنينة سكرة   أنا من بقايا شربها مخمور

.. وقد قال ابن الاثير فى جامعه فى قوله تعالى « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار » الى قوله « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » ألا ترى ما ذكر قبل هذا ذكر من ذكر من ذكر من الأنبياء وأراد أن يذكر بعده بابا آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها فقال ـ هذا ذكر ـ ثم قال ـ وإن للمتقين لحسن مآب ـ ويدل عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال ـ هذا وإن للطاغين لشر مآب ـ وذلك من فصل الخطاب الذى هو ألطف موقعاً من التخلص فاعرفه .. ومن بديع الاقتضاب قوله تعالى « ويل للمطففين » الى قوله « لرب العالمين » ثم اقتضب فقال « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين » .. وهو فى القرآن كثير جداً وأكثر ما يرد فى ذكر القصص وهذا من النوع الاول من الاقتضاب لأنه بلا فاصلة .. وقال ابن الاثير ومما استطرف من هذا النوع قول ابن الزملكانى (١)

وليل كوجه البرقعيدى ظلمة   وبرد أغانيه وطول قرونه
سريت ونومى فيه نوم مشرد   كعقل سليمان بن فهد ودينه
على أولق فيه التفات كأنه   أبو جابر فى خبطه وجنونه
الى أن بدا ضوء النهار كأنه   سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وقال إن هذه الابيات لها حكاية وذلك أن هذا الممدوح كان جالساً فى ندمائه فى ليلة

(١) ابن الزملكانى هذا تصحيح منا اعتماداً على حفظنا وفى الاصل ابن الزمكلمة .. وقد أورد الابيات التنوخى فى كتابه الاقصى القريب فى باب التخلص والاقتضاب ولم يسم القائل

من ليالى الشتاء وفى جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر كان البرقعيدى مغنياً وسليمان بن فهد وزيراً وأبو جابر حاجباً فالتمس الممدوح من الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه (قال المصنف عفا الله عنه) هذا الذى ذكره ابن الاثير قد أورده علماء علم البيان فى باب الاستطراد وهو به أمس وأليق

القسم السابع والعشرون

(فى التطبيق)

ويسمى المطابقة والطباق والتكافؤ والتضاد • والكلام عليه من وجوه

الاول فى حقيقته • الثانى فى اشتقاقه • الثالث فى أقسامه (أما الاول) فقال علماء علم البيان هو أن يجمع فى الكلام بين متضادين مع مراعاة التقابل بحيث لا يضم الاسم الى الفعل ولا الفعل الى الاسم وهو كقوله تعالى « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً » وقوله تعالى « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » • وقوله تعالى « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » • وقوله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير » الى قوله « وترزق من تشاء بغير حساب » • وقوله تعالى « وأنه هو أضحك وأبكى » ومثله فى القرآن كثير • ومن ذلك فى أشعار العرب ومخاطباتهم كثير .. فمن بديع أشعار العرب قول الحارث بن حلزة

بأنا نورد الرايات بيضاً   ونصدرهن حمراً قد روينا

جمع فى هذا البيت بين الطباق والمقابلة .. وأبدع منه قول بعض المتأخرين

فأوردها بيضاً ظماء صدورها   وأصدرها بالرى ألوانها حمر

.. قال ابن الاثير أجمع جماعة علماء من أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشئ وضده كالبياض والسواد والليل والنهار وخالفهم فى ذلك أبو الفرج

قدامة بن جعفر الكاتب فقال المطابقة ايراد لفظتين متساويتين فى البناء والصفة مختلفتين فى المعنى وهذا الذى ذكره قدامة هو التجنيس بعينه غير أن الاسماء لا مشاحة فيها إلا اذا كانت مشتقة ولننظر نحن فيما حمله على ذلك . والذى حمل قدامة على ذلك ما اقتضاه اشتقاق لفظ الطباق وسنبينه (وأما الثانى) فاشتقاق الطباق وأصله فى اللغة من طابق البعير فى سيره اذا وضع رجله موضع يده وهذا يقوى قول قدامة لان اليد غير الرجل لا ضدها والموضع الذى يقعان فيه واحد فكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذى يجمعهما واحداً .. وأما الجماعة فيحتمل أن يكونوا رأوا أن الرجل مخالفة لليد فراعوا المخالفة والضد مخالف للضد لا اجتماع لهما وهذا عين التضاد . ويجوز أن يكون الجماعة سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة تسمية مرتجلة لا اشتقاق لها ولا مناسبة وهذا هو الظاهر من هذا الأمر إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم والصحيح هو الأول لأن بعضهم سماه التضاد وهذا دليل على مراعاة الاشتقاق (وأما الثالث) فقد قسم أرباب علم البيان الطباق الى قسمين . لفظىٍّ . ومعنوىٍّ . أما اللفظى فهو على قسمين . الاول ما قدمناه . والثانى أن يجمع بين شيئين موافقين وبين ضديهما ثم اذا اشترطهما بشرط وجب أن يشترط ضديهما بضد ذلك الشرط كقوله تعالى « فأما مَن أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى » الآية . فكما جعل التيسير لليسرى مشترطاً بالاعطاء والتقى والتصديق جعل ضده وهو العسر مشترطاً بأضداد تلك الامور وهى المنع وعدم الاتقاء والاستغناء والتكذيب .. وأما المعنوى فعلى قسمين الاول أن يزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء كقول البحترى

(١)

.. والثانى فى النفى كقول البحترى أيضاً

يُقيِّضُ لى من حيثُ لا أعلمُ النوى ... ويسرى إلىَّ الشوقُ من حيثُ أعلمُ

.. والطباق فى القرآن كثير .. ومنه فى السُّنة قوله صلى الله عليه وسلم – علم الانساب

(١) بياض بالاصل

علم لا ينفع وجهل لا يضر – وقوله صلى الله عليه وسلم فى مدح الانصار – إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الجزع .. ومن الطباق البديع قول الشاعر

إنَّ هذا الربيعَ شىءٌ عجيبٌ ... تضحكُ الارضُ من بُكاء السماء

القسم الثامن والعشرون

(المقابلة . والكلام عليها من وجوه)

الأول فى حقيقتها . الثانى فى اشتقاقها . الثالث فى أقسامها . الرابع فى الفرق بينها وبين الطباق (أما الاول) فقال جماعة من العلماء بهذا الشأن المقابلة ذكر الشىء مع ما يوازيه فى بعض صفاته ويخالفه فى بعضها .. وقال بعضهم المقابلة أن تضع معانى تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو مخالفة فتأتى فى الموافق بما وافق وفى المخالف بما خالف وتشترط شروطاً وتعدد أحوالا فى أحد المعنيين فيجب أن تأتى فى الثانى بما يوافقه بمثل ما شرطتَ وعددتَ وفيما يخالفه بأضداد ذلك كقوله تعالى « فأما مَن أعطى واتَّقى وصدَّق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بَخِل واستغنى وكذَّب بالحسنى فسنيسره للعُسْرى » وكقول الشاعر

فيا عجباً كيف اتفقنا فناصحٌ ... وفىٌّ ومطوىٌّ على الغلِّ غادرُ

(قال المصنف عفا الله عنه) قال الامام فخر الدين رحمه الله هذا النوع فى فصل الطباق وذكره الزنجانى فى فصل المقابلة والذى اختاره العلماء المتقدمون فى هذا الفن أن المقابلة ذكر الشىء مع ما يوازيه فى بعض صفاته ويخالفه فى بعضها كما تقدم (وأما الثانى) فالمقابلة مصدر من قابل الشىءُ الشىءَ يقابله مقابلة اذا واجهه وصار ماثلا أمامه وهو من باب المفاعلة كالمضاربة والمقاتلة وأصله فى الاجرام يقال قابل الشخصُ الشخصَ والجبلُ الجبلَ اذا واجهه وناوحه اذا صار موازياً له ماثلا أمامه ثم توسع فيه حتى استعمل فى المعانى ولما وضع المؤلف الكلمة بازاء الكلمة الأخرى والمعنى بازاء المعنى الآخر حصلت المقابلة من جهة اللفظ تارة ومن جهة المعنى أخرى (وأما الثالث) فأقسامها ثلاثة .

مقابلة لفظية . وهى على قسمين وقد تقدم . ومقابلة معنوية . وهى على قسمين أيضاً . الاول أن يقابل معنىً بمعنىً مثل « إنّ لك أنْ لا تجوعَ فيها ولا تعرَى وأنك لا تَظمأُ فيها ولا تَضحى » وجهُ المقابلة فى هذه الآية أن ـ الجوع ـ هو خلوّ الباطن ـ والعُرْى ـ خلوّ الظاهر ـ والظمأ ـ احتراق الباطن ـ والضحى ـ احتراق الظاهر . فقابل الخلو بالخلو والاحتراق بالاحتراق . والثانى أن يجئ فى السلب كقول الفرزدق

لعَمرى لئن قلّ الحصى فى رحالكم   بنى نهشلٍ ما لؤمكم بقليلِ

. والثالث المقابلة الفاسدة وهو أن يقابل الشئ بما لا يوافقه ولا يخالفه كقول الكميت

وقد رأين بها حُوراً منعّمة   بيضا تكامل فيها الدلّ والشنَبُ

ـ والشنب ـ لا يشاكل الدل . وهذان القسمان ذكرهما الزنجانى فى تكملته . والمقابلة قريب من الطباق للمشابهة من بعض الوجوه والمخالفة من وجهين نذكرها بعد هذا القسم (وأما الرابع) فالفرق بين المقابلة والطباق من وجهين . الاول أن الطباق لايكون إلا ضدين غالباً مثل قوله تعالى « وهو الذى يُميتُكم ثم يُحييكم » وأشباه ذلك . والمقابلة تكون غالباً بالجمع من أربعة أضداد . ضدين فى أصل الكلام . وضدين فى عجزه . وتبلغ الى الجمع من عشرة أضداد . خمسة فى الصدر . وخمسة فى العجز .. الثانى لا يكون الطباق إلا بالاضداد والمقابلة تكون بالاضداد وغيرها . وقد ورد فى أشعار العرب والمتأخرين أبيات كثيرة يتضمن البيت منها مقابلتين وطباقين .. فن ذلك قول الحارث بن حلزة

بأنّا نوردُ الرايات بيضاً   ونُصدرهن حُمراً قد رَوينا

.. ومن ذلك قول بعض المتأخرين

فأوردها بيضاً ظماءً صدورُها   وأصدرَها بالرّى ألوانها حُمرُ

.. قال ابن الاثير فى جامعه ان الطباق أحد أنواع المقابلة لانه لا يخلو الحال فى ذلك من ثلاثة أقسام . اما أن يقابل الشئ بضده أو بغيره أو بمثله وليس لنا قسم رابع . فأما الاول وهو مقابلة الشئ بضده كالسواد والبياض وما أشبه ذلك كقوله تعالى « فليَضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً » ألا ترى الى صحة هذه المقابلة البديعة حيث قابل

الضحك بالبكاء والقليل بالكثير . وكذلك قوله تعالى « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرَحوا بما آتاكم » وهذا أحسن ما يجئ فى هذا الباب . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ خير المال عين ساهرة لعين نائمة ـ ومن هذا قول بعضهم فى السحاب

ولهُ بلا حُزنٍ ولا فرَحٍ   ضحك يُراوح بينه وبكا

فقابل الضحك بالبكاء والحزن بالسرور فى بيت واحد الا أن فى ذلك نظراً من حيث ترتيب التفسير لامن حيث المقابلة لأن ترتيب التفسير يقتضى أن ـ كان قال ـ بلا حزن ولا مسرّة بكاء يراوح بينه وضحك ـ وهذا لا كبير عيب فيه . وإنما الأولى والأليق ما أشرنا اليه فاعرفه .. وقال آخر

فلا الجودُ يُفنى المالَ والجدُّ مقبلٌ   ولا البخلُ يبقى المال والجدّ مُدبرُ

.. ومثله قول البحترى

وأمة كان قبحُ الجور يُسخطها   دهراً فأصبح حسنُ العدل يُرضيها

فقابل القبح بالحسن والجور بالعدل والسخط بالرضا وذلك بديع فى بابه فاعرفه . وأما القسم الثانى وهو مقابلة الشئ بغيره فهو ضربان . أحدهما ما كان بين المقابل والمقابل له مناسبة وتقارب كقول بعضهم

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً   ومن اساءة أهل السوء إحسانا

والظلم ليس ضد المغفرة وانما هو ضد العدل الا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل مناسبة له حسنت المقابلة بينها وبين الظلم وأمثال هذا كثير . وأما القسم الثانى أن يقابل الشئ بالشئ وبينهما بُعدٌ ولا يناسبه بحال من الاحوال . أقول وذلك لا يحسن استعماله فى التأليف .. ومما جاء منه قول بعضهم

أم هَلْ ظعائنُ بالعلياء رافعةً   وان تكامل فيها الدلّ والشنب

فان ذلك غير مناسب لانه انما كان يحسن أن يكون مع الدل الغنج أو ماقاربه ومع الشنب اللعس أو ما يجرى مجراه من اوصاف الثغر والفم . وأما الثالث فهو ان يقابل الشئ بمثله وهو ضربان . أحدهما التقابل فى اللفظ والمعنى . والآخر التقابل فى المعنى دون اللفظ . أما التقابل فى اللفظ والمعنى فكقوله تعالى « ومَكرُوا مَكراً ومَكرنا مَكراً » .. وقوله

تعالى « فَنسوا اللهَ فَنسيَهمْ » • وأما التقابل فى المعنى دون اللفظ فهى مقابلة الجملة لمثلها مستقبلة كانت أو ماضية فان كانت ماضـية قوبلت بالماضية وان كانت مسـتقبلة قوبلت بالمستقبلة وربما قوبل الماضى بالمستقبل والمستقبل بالماضى وذلك اذا كان أحدهما فى معنى الآخر • فمن ذلك قوله تعالى « قل إن ضللتُ فانما أضل على نفسى وإن أهتدَيتُ فبما يوحى الىّ ربى » فان هذا تقابل من جهة المعنى ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال وان اهتديت فانما اهتديت لها •• وبيان تقابل هـذا الكلام من جهة المعنى أن النفس كلما هو عليها فهو بها أعنى أن كل ما هو وبالٌ عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لانها أمارة بالسوء وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه اياها وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند الى نفسه لأن الرسول اذا دخل تحته مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به • ومن هذا الضرب قوله تعالى « ألم يروا أنا جعلنا الليلَ ليسكنوا فيه والنهار مُبصراً إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون » فانه لم يراع التقابل فى قوله ـ ليسكنوا فيـه فيه • ومبصراً ـ لأن القياس يقتضى أن يكون والنهار ليبصروا فيه وانما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ وهكذا النظم المطبوع الغير المتكلف لأن معنى قوله مبصراً ليبصروا فيه طرق التقلب فى الحاجات • ومن مقابلة الشئ بمثله أنه اذا ذكر المؤلف ألفاظاً تقتضى جواباً فالمرضى عندنا أن يأتى بتلك الالفاظ فى الجواب من غير عدول عنها الى غيرها مما هو فى معناها • فمن ذلك قوله تعالى « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها » ومما عيب فى هذا الباب قول بعضهم من اقترف ذنباً عامداً أو اكتسب جرماً قاصداً لزمه ما جناه وحاق به ما توخاه • والاليق ان كان قال لزمه ما اقترف وحاق به ما اكتسب ليكون أحسن طباقاً وان كان ذلك جائزاً فى الكلام من حيث أن معناه صواباً لكنه عدول عن الأليق والاولى فى هذا الباب وأمثاله كثيرة فاعرفها •• واعلم ان فى تقابل المعانى باباً عجيب الامر يحتاج الى فضل تأمل وزيادة نظر وتدبر وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور وبالاعجاز من أبيـات الشعر •• فمما جاء من ذلك قوله تعالى فى حق المنافقين « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا » الى قوله « ولكن لا يشعرون » •• وقوله تعالى « واذا قيل لهم آمِنوا كما آمَن الناسُ قالوا »

الى قوله « ولكن لا يعلمون » ألا ترى كيف فصل الآية الاخيرة بيعلمون والآية التى قبلها بيشعرون وانما فعل ذلك لان أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج الى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة والعلم ولذلك قال ـ ولكن لا يشعرون ـ وأما النفاق وما فيه من المعنى المؤدى الى الفتنة والفساد فى الارض فأمر دنيوىٌ مبنىٌّ على العـادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب وما كان فيهم من التجارب والتعاون فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال ـ يعلمون ـ وأيضاً فانه لما ذكر السفه فى الآية الاخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقاً فقال ـ لا يعلمون ـ وآيات القرآن العظيم جميعها فصلت هكذا كقوله تعالى « ألم ترَ أنّ اللهَ أنزل من السماء ماءً فتُصبحُ الارضُ مخضرةً إنّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ » • وقوله « له ما فى السموات وما فى الارضِ وإنّ اللهَ لهو الغنىُّ الحميدُ » • وكقوله « ألم ترَ أن اللهَ سخرَ لكم ما فى السمواتِ والارض والفلكَ تجرى فى البحرِ بأمرهِ ويمسكُ السماءَ أن تقعَ على الارض إلا باذنه إنّ اللهَ بالناسِ لرؤفٌ رحيمٌ » فانه انما فصلت الآية بلطيف خبير لان ذلك فى موضع الرحمة لخلقه بانزال الغيث واخراج النبات من الارض ولانه خبير بنفعهم ومضرتهم فى انزال الغيث وغيره • وأما الآية الثانية فانما فصلت بغنى حميـد لانه له ما فى السموات وما فى الارض فعرف الناس أن جميع ما فى السموات وما فى الارض له لا لحاجة بل غنى عنها جواد بها لانّ ليس غنىٌّ نافعاً بغناه الاّ اذا كان جواداً منعماً واذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليه واستحق عليه الحمد فذكر ـ الحميد ـ ليدل على أنه الغنى النافع بغناه خلقه • وأما الآية الثالثة فانها فصلت ـ برؤف رحيم ـ لانه لما عدد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما فى الارض لهم واجراء الفلك فى البحر لهم وتسييرهم فى ذلك الهول العظيم وجعله السماء فوقهم وامساكه اياها عن الوقوع حسن أن يفصـل ذلك بقوله ـ رؤف رحيم ـ

القسم التاسع والعشرون

(الاحتراس)

وهو أن يذكر لفظاً ظاهره الدعاء بالخير والنفع وذلك بما فى ضمنه مما يوهم الشر فيذكر فيه كلة تزيل ذلك الوهم وتدفع ذلك الوهن مثل قوله تعالى « يُكلِّم الناسَ فى المهدِ وكهلا » وكان فى العادة أن من تكلم فى المهد لا يعيش ولايتمادى به العمر فحصل الاحتراس بقوله تعالى — وكهلا — يريد أنه ليس يموت عاجلا كأمثاله ممن تكلم فى المهد بل يعيش الى أن يبلغ الكهولة • ومنه قوله تعالى « وأدخِلْ يدكَ فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » أزال بقوله — من غير سوء — توهم أن بياض اليد من برص وغيره •• وقد ورد فى أشعار العرب من هذا كثير • من ذلك قول بعضهم

فسقا ديارك غيرَ مُفسدِها ... صوبُ الربيعِ وديمةٌ تهمى

فاحترس بقوله — غير مفسدها — لان تكرار الماء على الديار مما يوجب الدمار •• وقال آخر

ألا فاسلمى يا دارَ مىّ على البلا ... ولازالَ مُنهلاً بجرعائك القطرُ

فاحترس بقوله — ألا فاسلمى — ومثله فى القرآن والشعر كثير

القسم الموفى ثلاثين

(الاختصاص)

وهو عند الاصوليين التخصيص واختلفت فيه عبارات أهل العلم •• فقال بعضهم هو اخراج صورة من حكم كان يقتضيها الخطاب به لولا التخصيص وهو شبيه بالنسخ من حيث اشتراكهما فى اللبس ومن حيث أن كل واحد منهما يقتضى اختصاص الحكم ببعض ما تناوله اللفظ إلا أنهما يفترقان من وجوه خمسة • الاول أن الناسخ أبداً

لا يكون إلا متأخراً عن المنسوخ كذا وقع فى جميع ما نسخ من الكتاب والسنة إلا فى آيتين • احداهما قوله تعالى « متاعاً الى الحولِ غيرَ إخراجٍ » فانها منسوخة بما قبلها وهو قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعةَ أشهرٍ وعشراً » وهذا على خلاف الاصل وقد يعتذر عن هذا بأن آية الحول انما نسخت بالسنة لكن لايتأتى هذا الا على قول من يقول إن السنة تنسخ الكتاب • وأما على قول انها لا تنسخه فلا يتأتى هذا • وقد يقال ان آية الحول نزلت قبل آية الاشهر ولكن آية الاشهر أثبتت فى الصحف قبلها فكان آية الحول متقدمة فى النزول متأخرة فى التلاوة (الثانى) ان النسخ لا يكون الا بخطاب رفع به حكم الخطاب الاول والتخصيص قد يقع بقول وفعل وقياس وغير ذلك (الثالث) أن نسخ الشئ لا يكون الا بما هو مثله فى القوة أو بما هو أقوى منه فى الرتبة والتخصيص جائز بما هو دون المخصوص فى الرتبة (الرابع) أن التخصيص لا يقع فى حكم واحد والنسخ جائز فى مثله لاسيما على أصل من يبنى نسخ الشئ قبل وقته (الخامس) أن التخصيص ما أخرج من الخطاب ما لم يرد به والنسخ رافع ما أريد اثبات حكمه • والذى اعتمد عليه المحققون أن التخصيص اخراج بعض ما تناوله اللفظ العام أو ما يقوم مقامه بدليل منفصل فى الزمان إن كان المخصص لفظياً أو بالحس ان كان عقلياً قبل تقرير حكمه • فقولنا — أو ما يقوم مقامه — احتراز من المفهوم فانه يدخله التخصيص • وقولنا — بالزمان — احتراز من المستثنى من الاستثناء • وقولنا — بالحس — لأن العقلى المخصص مقارن • وقولنا — قبل تقرير حكمه — احتراز من أن يعمل بالعام فان الاخراج بعد هذا يكون نسخاً •• والتخصيص يسميه أرباب علم البيان الاختصاص عندهم ولايحسن الا أن يكون اختصاص الشئ بمعنى ظاهر مثل قوله تعالى « وإنه هو ربُّ الشِّعْرَى » اختصها دون سائر النجوم لأنها عُبدت • وقيل ان النجوم تقطع السماء طولا وهى تقطعها عرضاً • وقيل لأن المنجمين بطلوعها يتكلمون على المغيبات وما يحدثه الله فى ملكه من الكائنات وينسبون ذلك الى طلوعها وان هذه الحادثات فى كل عام من تأثيرها فرد الله ذلك عليهم باعلامنا بأنها مدبرة بتدبيره مقدرة بتقديره متصرفة بمشيئته إذ هو ربها ورب كل شئ وهو على

كل شيء قدير .. ومن هذا النمط قوله تعالى « فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمّانٌ » وهذا لا يتأتى إلا على قول من يقول أن الرمان والرطب فاكهة . وأما على قول من يقول أنهما ليسا من الفاكهة فلا يكون من هذا النوع .. ومن ذلك قوله تعالى « مَن كان عدوًّا لله وملائكته ورُسله وجبريلَ وميكالَ فانّ اللهَ عدوٌّ للكافرين » أعاد الله ذكر جبريل وميكال مع أنهما من الملائكة بلا خلاف لخصوصية فيهما إما لأمر اختص بعلمه بهما اقتضى تخصيصهما أو لأن جبريل روح الله وأمينه على وحيه وميكال أمينه على خزائن فتحه ورحمته . وفى أشعار العرب كثير من ذلك نحو قول الخنساء أخت صخر

يُذكّرنى طلوعُ الشمس صخراً   وأذكُره لكلّ غروبِ شمس

وانما خصت هذين الوقتين لأن طلوع الشمس يذكرها بغارته على أعدائه وغروبها يذكرها بأقرانه ضيفانه فاختصت لهذين الوقتين من بين سائر الاوقات لهذين المعنيين . وعبارات التخصيص ثلاثة . الأولى انما جاءنى زيد . الثانية جاءنى زيد لا عمرو . والثالثة ما جاءنى الا زيد . فيفهم من الأولى تخصيص مطلق المجيء أو تخصيص مجيء معين ظنه المخاطب مخصوصاً بغيره أومشاركا غيره فيه فأفاد اثباته لزيد ونفيه عن غيره دفعة واحدة ومن الثانية فى دفعتين والثالثة بأصل الوضع تفيد نفى التشريك ولهذا لا يصح مازيد الا قائم لا قاعد لانك بقولك -الاقائم- نفيت عنه كل صفة تنافى القيام فيندرج فيه نفى القعود فيقع -لاقاعد- تكراراً ويصح إنما زيد قائم لا قاعد فان صيغة -انما- موضوعة للتخصيص ويلزمه نفى الشركة فليس له من القوة ما يدل عليه بالوضع ولهذا يصح زيد هو الجائى لا عمرو فدلالة الأولين على التخصيص أقوى ودلالة الثالثة على نفى التشريك وقد تذكر الثالثة فى مثل ما اذا ادعى واحد أنك قلت قولا ثم قلت بخلافه فتقول ما قلت الا ما قلته قبل . وعليه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام « ما قلتُ لهم الاّ ما أمرتنى به » ليس المعنى انى لم أزد على ما أمرتنى به أن أقوله شيئاً ولكن المعنى انى لم أدع مما أمرتنى به أن أقوله شيئاً ولم يذكر مايخالفه .. وحكم -غير- اذا وقع موقع -الا- حكمُ الا .. وأما -انما- فالاختصاص فيها يقع مع

المتأخر فاذا قلت انما ضرب عمراً زيد فالاختصاص فى الضارب كما قال سبحانه وتعالى « انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » واذا قلت انما ضرب زيد عمراً فالاختصاص فى المضروب واذا قلت انما هذا لك فالاختصاص فى -لك- بدليل أنك تقول بعده لالغيرك واذا قلت انما لك هذا فالاختصاص فى -هذا- بدليل أنك تقول بعده لا ذاك . قال الله تعالى « فانما عليك البلاغ وعلينا الحسابُ » فاذا وقع بعدها الفعل فالمعنى أن ذلك الفعل لا يصح الا من المذكور كقوله تعالى « إنما يتذكّرُ أولو الالباب » .. وقد يجمع معها حرف النفى إما متأخراً كقولك انما جاءنى زيد لا عمرو واما متقدماً كقولك ما جاءنى زيد وانما جاءنى عمرو . فهناك لو لم تدخل -انما- كان الكلام مع من ظن أنهما جاءاك وان أدخلها كان الكلام مع من غلط فى الجائى ولو قلت ان عمراً جاءنى فان كانت المستغنى عنها فظهرت فائدة دخول -ما- على -إنّ- فى -انما- .. واعلم أن موضوع -انما- أن يجيء فى أمر لا يدفع المخاطب صحته كقوله تعالى « انما يستجيب الذين يسمعون » أو ينزّل بعده منزلته كقول الشاعر

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ   ـه تجلّتْ عن وجهه الظلماءُ

فادعى كونه بهذه الصفة مما لا ينكره أحد . ومثله قوله تعالى حكاية عن اليهود « واذا قيل لهم لا تُفسدوا فى الارض قالوا انما نحنُ مُصلحون » الذى يدعون انهم مصلحون أمر ظاهر معلوم فلذلك أكد الأمر فى الرد عليهم فجمع فيه بين -ألا- التى هى للتنبيه و-إن- التى هى للتحقيق -وهم- التى هى للتأكيد فقال « ألا انهم هم المفسدون » .. وقال ابن الاثير وهم يرون بالتخصيص فى أعمال العام فى النفى والخاص فى الاثبات مثال ذلك الحيوانية والانسانية فان اثبات الانسانية يوجب اثبات الحيوانية ولا يوجب نفيها نفى الحيوانية وكذلك نفى الحيوانية يوجب نفى الانسانية ولا يجب من اثباتها اثبات الانسانية .. ومما يدخل فى هذا الباب الاسماء المفردة الواقعة على الجنس الذى يكون الفرق بينها وبين واحدها تاء التأنيث فانه متى أريد النفى كان استعمال واحدها أبلغ ومتى أريد الاثبات كان استعمالها فى الجنس أبلغ . فالاول هو الخاص والعام نحو قوله تعالى « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب اللهُ بنورهم » ولم يقل

بضوئهم لأن ذكر النور فى حالة النفى أبلغ من حيث أن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال ذهب الله بضوئهم كان المعنى يعطى نفى تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نوراً لان الاضاءة هى فرط الانارة دليله قوله تعالى « هو الذى جعل الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً » فكل ضوء نور وليس كل نور ضوءاً . والغرض من قوله ـ ذهب الله بنورهم ـ انما هو ازالة النور عنهم رأساً فهو اذا أزاله فقد أزال الضوء ٠ وكذلك قوله تعالى « ذهبَ اللهُ بنورهم » ولم يقل أذهب الله نورهم لأن كل من ذهب بشئ فقد أذهبه وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به لأن الذهاب بالشئ هو استصحاب له ومضى به وفى ذلك نوع احتياز للمذهوب به وامساك له عن الرجوع الى حالته والعود الى مكانه وليس كذلك الاذهاب للشئ لزوال معنى الاحتياز وهذا كلام دقيق يحتاج الى زيادة تأمل وانعام نظر فافهمه وقس عليه ما أشبهه وبالله التوفيق

القسم الحادى والثلاثون

(الاختراع)

قال علماء علم البيان ٠٠ الاختراع هو أن يذكر المؤلف معنىً لم يسبق اليه واشتقاقه من التليين والتسهيل يقال نبت خَرِعٌ اذا كان ليناً فكأن المتكلم سهل طريقه حتى أخرجه من العدم الى الوجود ٠ ومنه فى القرآن كثير ٠٠ من ذلك قوله تعالى « إن الذين تدعونَ من دُونِ اللهِ لنْ يَخلُقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يَسلُبْهُمُ الذُّبابُ شيئاً لا يَستنقذوهُ منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب » ولم يُسمع بمثل هذا التمثيل البديع لأحد قبل نزول القرآن ولو سُمع لكان القرآن سابقاً ولا يكون مثله ولا قريباً منه وكذلك جميع أمثال القرآن ليس لها أمثال ٠٠ ومثال ذلك من السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم ـ حَمِيَ الوطيس ـ فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من تكلم بهذا حين قدَّم المسلمون خالد بن الوليد فى غزوة مؤتة حين حمل خالد فى العدوّ

ـ والوطيس ـ هو التنور فعبر بشدة حميه ووقوده عن شدة الحرب واتقادها واتقاد نارها حين حمل خالد بن الوليد رضى الله عنه ٠ ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ السعيد من وُعظ بغيره ـ ٠ ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ أما بعد ـ ومثل هذه الكلمات فى السنة كثير وليس هذا موضع إحصائها ولا محل استقصائها

القسم الثانى والثلاثون

(الهدم)

وهو أن يأتى غيرك بكلام تضمن معنىً فتأتى أنت بضده فكأنه قد هدم ما بناه المتكلم الاول كقول أبى تمام

وبروحىَ القمرَ الذى بمَحجَّرٍ   أضحى مَصوناً للنوى مَبذولا

هدمه بعض الشعراء فقال

وبرُوحى القمرَ الذى لم يُبتذَلْ   بل حلَّ وسطَ القلبِ لا بمَحجَّرِ

٠٠ وقال البلاذرىُّ

وقد يَرفعُ المرءُ اللئيمُ حجابَهُ   ضَعةً ودُونَ العُرفِ منهُ حِجابُ

هدمه الآخر فقال

مَلِكٌ أغرُّ محجَّبٌ   معرُوفُهُ لا يحجبُ

٠ ومنه فى كتاب الله العزيز كثير ٠٠ من ذلك قوله تعالى « وقالتِ اليهودُ والنصارَى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبّاؤهُ » هدمه الله تعالى بقوله « واللهُ لا يحبُّ الظالمين » ٠ وقوله « ما اتخذَ اللهُ من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ » ٠ وقوله تعالى « فلمَ يُعذِّبكم بذنوبكم » تقديره إن كنتم فيما ادعيتم صادقين فلم يعذبكم بذنوبكم ٠ ومنه قوله تعالى « وقالتِ اليهود عزيرٌ ابنُ الله وقالتِ النصارَى المسيحُ ابنُ الله » هدمه الله عليهم بقوله « ذلك قولُهم بأفواههم » ٠ وقوله « ما اتخذ اللهُ من وَلدٍ » ٠ ومنه قوله تعالى « اذا جاءكَ المنافقون قالوا نشهدُ إنكَ لرسولُ اللهِ » هدمه الله بقوله « واللهُ يشهدُ إنَّ المنافقين لكاذبون » ٠٠ ومثله فى القرآن الكريم كثير وفى الشعر هو كثير أيضاً

القسم الثالث والثلاثون

(الاستفهام)

وهو على قسمين • استفهام العالم بالشئ مع علمه به • ومراده بذلك معان ستة (الاول) التقرير ومرادك باستفهامك عن ذلك الشئ أن يقربه الفاعل كقوله تعالى حكاية عن قوم نمروذ « أأنتَ فعلتَ هذا بآلِهتنا يا ابراهيم » ولا شبهة أنه ليس غرضهم أن يقر لهم بوجود كسر الاصنام ولكن غرضهم أن يقرّ بأن ذلك منه لا من غيره (الثانى) يراد به الانكار وهو كقوله تعالى « أفأصفاكم ربكم بالبنين » • وقوله تعالى « أصطفى البناتِ على البنين » والانكار هاهنا فى نفس الفعل أنكر الله عليهم كونهم جعلوا الملائكة إناثا وقالوا هم بنات الله تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيراً • وكذلك قوله تعالى « آللهُ أذِنَ لكم أم على اللهِ تفترُون » المقصود إنكار أصل الاذن لا انكار انه كان من غير الله وأضافوه الى الله • وكذلك قوله تعالى « آلذكرَين حرّمَ أم الأُنثيين » تقديره لو وجدتم التحريم لكان محرماً إما ذا أو ذاك ثم يستدل ببطلان الاصلين على بطلان القسمين على بطلان أصل التحريم • ومثله قولك للرجل الذى يدعى أمراً وأنت تنكره — متى كان هذا أفى ليل أم نهار — وتقديره لو كان لكان إما فى ليل وإما فى نهار ولما لم يوجد فيهما ثبت أنه ليس بموجود أصلا • فكذلك تقول فى الآية فانها نفى لأصل الاذن لنفى أقسامه وذلك أبلغ فى النفى • وكذلك قوله تعالى « أنلزِمكموها وأنتم لها كارِهون » حصل الانكار هاهنا بنفس الالزام •• وكذلك قول الشاعر

* أتقتلنى والمَشرَفىّ مُضاجِعى *

•• واعلم أن الاستفهام بمعنى الانكار حاصله راجع الى تنبيت السامع على فساد ذلك الشئ حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتد عنه فعلى هذا لا يتصور الاّ بالمحال على سبيل أن يقال له — أنت فى دعواك كمن يدعى المحال — وعلى هذا جعل قوله تعالى « أفأنت

تسمِعُ الصمَّ أو تهدى العُمْىَ » وليس اسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون لذلك الانكار وانما المعنى فيه تنزيل من يحاول اسماعهم منزلة من يحاول اسماع الصم وانما قدم الاسم فى هذه الآية ولم يقل — أفتُسمع الصم — لمعنىً وهو اختصاصه صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى قال له صلى الله عليه وسلم أنت خصوصاً تظن أنك تقدر على اسماعهم فتكون بمنزلة من ظن أن لنفسه قدرة على اسماع الصم •• واعلم أن حال المفعول فى ذلك كحال الفاعل فاذا قدّمتَ المفعول توجه الانكار الى كونه بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل فاذا قلتَ — أزيداً تضرب كان على هذا الحكم ولهذا قدّم — غير — فى قوله تعالى « قل أغير اللهِ أتخذُ وليًّا » • ومن ذلك قوله تعالى « أبَشراً منّاً واحداً نتّبعهُ » وقد تقدم بيانه فانهم بنوا كفرهم على أن البشر ليس بمثابة أن يتبع ويطاع •• واعلم أن صيغة المستقبل إما أن يكون الاسم مقدماً أو الفعل فان كان الاسم مقدماً اقتضى شبيهاً بما اقتضاه فى الماضى بمطالبته من الاقرار بكونه فاعلا فالانكار لذلك • فمثال ذلك قوله تعالى « أهم يقسِمون رحمةَ ربكَ » (الثالث) الاستفهام للمبالغة فى الاستحقار مثل قولك للرجل تستحقره — أنت تمنعنى أنت تضربنى — ومنه قوله تعالى « أبشراً منّا واحداً نتبعه » • وقوله تعالى « قلْ أغيرَ اللهِ أتخذ وليًّا » (الرابع) يأتى للمبالغة فى التعظيم كقولك — أهو يسأل الله أهو يمنعهم حقوقهم — ومنه قوله تعالى « أمَّن جعل الارضَ قراراً » الى قوله « أإلهٌ مع اللهِ » (الخامس) يأتى للمبالغة فى بيان الخساسة كقولك — أهو يسمع لهذا أو يرتاح الى الجميل — ومنه قوله تعالى « أفتعبُدُون من دونِ الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم أفٍّ لكم ولما تعبُدُون من دونِ اللهِ أفلا تعقِلون » (السادس) يؤتى بالاستفهام ليقع فى النفس عذوبة المستفهم عنه واستحلاؤه كقول الشاعر

أيا ظبيةَ الوعثاءِ بين جُلاجلٍ وبين النقا أأنتِ أم أمُّ سالمِ

تقديره أأنت الظبية أم أمّ سالم • أتى بالاستفهام هاهنا ليوقع فى النفس موقعاً عظيما من الحسن وبديع المحاسن حتى يشكل حالها كمثل محاسنها فيبقى عند ناظرها من ذلك تخييل لا يفرق بسببه بينها وبين الظبية • وهذا النوع يسمي عند أرباب الصناعة التجاهل •• ومن بديع التجاهل قول مهيار الديلمي

أأنتِ أمرتِ البدرَ أنْ يَصدعَ الدُّجى   وعلّمتِ غصنَ البانِ أنْ يتميّلا

٠٠ ومن بديعه أيضاً قول الآخر

وعُقَارٍ عيشُ مَن   عاقرَها عيشٌ أنيقُ
هيَ للزَّهوِ نظامٌ   والى اللهوِ طريقُ
قاتُ لمَّا لاحَ لى   منها شُعاعٌ وبَريقُ
أشقيقٌ أمْ عقيقٌ   أمْ رحيقٌ أمْ حريقُ

٠٠ وأما القسم الثانى من الاستفهام فهو أن يستفهم عن شئ لم يتقدم له به علم حتى يحصل له به علم ٠ ومنه فى القرآن العظيم وفى الشعر كثير وهذا هو أصل الباب

القسم الرابع والثلاثون

(المزلزل)

وهو أن يكون فى الكلام لفظة لو غيّر وضعها أو اعرابها تغيرَ المعنى ٠ ومنه فى القرآن العظيم كثير ٠٠ من ذلك قوله تعالى « ايَّاكَ نعبدُ وايَّاكَ نستعينُ » لو كسرت الكاف لتغير المعنى ٠ ومن ذلك قوله تعالى « أنعمتَ عليهم » لو ضُمّت لاختل المعنى ٠ ومن ذلك قوله تعالى « وَيلٌ يومئذٍ للمكذّبينَ » ٠ ومن ذلك قوله تعالى « واذِ ابتلَى ابراهيمَ ربُّه » ٠ وقوله تعالى « انما يخشى اللهَ من عبادِه العلماءُ » لو غير اعراب ابراهيم واعراب العلماء لاختل المعنى ٠٠ ومنه فى الشعر قول الوطواط

رسولُ اللهِ كذّبهُ الأعادى   فويلٌ ثم ويلٌ للمكذّبْ

ن كسرت ذال المكذب كان حسناً وان فتحت كان قبيحاً وكفراً ٠٠ ومن هذا المعنى قوله تعالى « فَساءَ صباحُ المنذَرِين » بفتح الذال ولو كسرت الذال كان قبيحاً وكفراً

القسم الخامس والثلاثون

(التعجب)

ومنه فى القرآن العظيم كثير ٠ من ذلك قوله تعالى « فما أصبرَهُمْ على النارِ » ـ ما ـ هاهنا تعجبٌ والتقدير تعجبوا من صبرهم على النار وقيل هى الاستفهامية والتقدير فأىُّ شئ صبَّرهم على النار ٠٠ ومن التعجب قوله تعالى « يا أيها الانسان ما غرَّكَ بربكَ الكريم » والخلاف فيها كالخلاف فى الأولى ٠٠ ومن ذلك قوله تعالى « قُتلَ الانسانُ ما أكفرَهُ » أى ما أشد كفره ٠ ومثله فى القرآن كثير ٠٠ ومنه فى الشعر قول بعضهم

أيا شمعاً يُضئُ بلا انطِفاء   ويا بَدراً يَلوحُ بلا مَحاقِ
فأنتَ البدرُ ماسببُ انتقاصى   وأنتَ الشمعُ ماسببُ احتراقى

القسم السادس والثلاثون

(السلب والايجاب)

قال علماء علم البيان هو أن يوقعَ الكلام على اثبات شئ وينفيه فى كلام واحد وخطبة واحدة أو بيت واحد ٠ وهو فى القرآن العظيم كثير ٠٠ ومن ذلك قوله تعالى « هو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه » ٠ وقوله تعالى « هو يُطعِمُ ولا يُطعَمُ » ٠٠ ومنه فى الشعر قول السموءل بن عادياء اليهودى

ونُنكِرُ إنْ شئنا على الناسِ قولَهمْ   ولا يُنكِرُونَ القولَ حين نقولُ

— القسم السابع والثلاثون —

(الهزل الذى يراد به الجد)

وهو فى القرآن العظيم فى قوله تعالى « فاليومَ الذين آمنوا من الكفّار يَضحكون » روى أن أهل الجنة يُفتح لهم باب من النار فيقولون لمن كان يضحك منهم فى الدنيا من الكفار أتدخلون الجنة فيقولون نعم فيقولون لهم هلموا فيتبادرون الى الجنة فيغلق الباب دونهم ويضحك منهم المؤمنون ويردون خائبين وليس مراد المؤمنين بذلك القول الضحك منهم وانما مرادهم بذلك تبكيتهم وتشديد الحزن عليهم ٠٠ ومنه قوله تعالى « إن تَسخَرُوا منّا فانّا نَسخَرُ منكم » يعنى يوم القيامة ٠٠ ومنه فى السنة قوله صلى الله عليه وسلم للعجوز التى سألته عن دخولها الجنة فقال لا يدخل الجنة عجوز هزل بها وصدق وقال حقاً فان الله تعالى أخبر عن أهل الجنة فقال « عُرُباً أتراباً لأصحابِ اليمين » وتِرب الانسان مساويه فى العمر أو مقاربه ٠٠ ومنه فى الشعر قوله

اذا ما تميمىٌّ أتاك مُفاخراً   فقل عدِّ عن ذا كيف أكلك للضبِّ

٠٠ وأما قوله صلى الله عليه وسلم فى وصف القرآن وهو الجد ليس بالهزل فالمراد به الهزل الذى لا يراد به الجد

— القسم الثامن والثلاثون —

(التلميح)

وهو أن يشير فى فحوى الخطاب الى مثلٍ سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة من غير أن يذكره كقول بشار بن عدى

اليومَ خمرٌ ويبدو فى غدٍ خبرٌ   والدهرُ ما بين إنعام وإبآس

أشار به الى قول امرئ القيس – اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ – حين بلغه قتل أخيه(١) وهو يشرب فصار مثلا ٠٠ وكقول أبى بكر الخوارزمى

كأنك لا تروين بيتاً لشاعرٍ   سوى بيت مَن لا يَظلمِ الناسَ يُظلَمِ

٠٠ وكقول أبى فراس

ولا خيرَ فى دَفعِ الأذَى بمذلّةٍ   كما ردّها يوماً بسوءته عمرو

أشار بذلك الى قصة عمرو بن العاص مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ٠٠ وقد يسمى أخذ بعض ألفاظ المثل اقتباساً وإيراد المثل كما هو تضميناً ٠٠ ومما جاء من التلميح فى الكتاب العزيز قوله تعالى « واذكر أخا عادٍ اذ أنذرَ قومه بالأحقاف » ٠ وقوله تعالى « ألا بُعداً لمدينَ كما بَعِدَت ثمود » ٠ وقوله تعالى « صاعقةً مثلَ صاعقة عادٍ وثمود » الآية ٠٠ ومن ذلك قوله تعالى « أم كنتم شهداء اذ حضرَ يعقوبَ الموتُ اذ قال لبنيه ما تعبدُون من بَعدى » الى قوله « فانما هم فى شِقاقٍ » ثم قال « صِبغةَ الله ومَن أحسنُ من اللهِ صِبغةً » ٠ ومن ذلك قوله تعالى « هذا نذيرٌ من النذُرِ الأولى أزِفتِ الآزفة » ثم قال « ليس لها من دُونِ اللهِ كاشفةٌ » ٠٠ ومثله فى القرآن كثير

— القسم التاسع والثلاثون —

(النسخ والسلخ والمسخ)

فأما النسخ فى القرآن العظيم كثير ٠ وهو على ثلاثة أقسام ٠ منه ما نسخ لفظه وحكمه ٠ ومنه ما نسخ لفظه وبقى حكمه ٠ ومنه ما نسخ حكمه وبقى لفظه ٠٠ أما

(١) ليس هو من قول امرئ القيس وانما هو من قول مهلهل حين بلغه قتل جساس أخاه كليباً ٠ وامرؤ القيس لم يقتل له أخ فان كان قاله حين بلغه قتل بنى أسد أباه حجراً فربما اه   كتبه محمد بدر الدين

مانسخ لفظه وحكمه فقد روى عن قتادة وغيره قالوا كنّا نقرأ سورة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ـ وقالوا كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لو أعطى ابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملا جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب ـ .. وأما ما نسخ حكمه وبقى لفظه فى القرآن العظيم منه كثير .. وأما السالخ والمسخ فليس فى القرآن العظيم منهما شئ لأنه لم يسبق قبله كلام فيسالخ منه ولم يتقدم معانيه فيقصر عنها فيمسخ لانه الكلام القديم الذى لم يشبهه كلام ولم يتقدم عليه نثر ولا نظام وسنذكر فى القسم الذى ليس فى القرآن منه شئ ما قاله أهل هذه الصناعة فى السالخ والمسخ ان شاء الله تعالى

القسم الاربعون

(التعديد . ويسمى أيضاً سياق الاعداد)

وهو ايقاع أسماء مفردة على سياق واحد فان روعى فى ذلك ازدواج أو لزوم تجنيس أو مطابقة أو نحوها فذلك الغاية فى الحسن كقولهم وضعنا فى يده زمام الحل والعقد . والقبول والرد . والامر والنهى . والاثبات والنفى . والبسط والقبض . والابرام والنقض . والهدم والبناء . والمنع والعطاء .. ومنه قول المتنبى

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنى   والحربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ

. ومنه فى القرآن كثير .. من ذلك قوله تعالى « هو الله الذى لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ » .. ومن ذلك قوله تعالى « وأنّ الى ربّك المنتهى وأنه هو أضحكَ وأبكى وأنه هو أماتَ وأحيا وأنه خلقَ الزوجين الذكرَ والأنثى من نطفة اذا تمنى وأن عليه النشأةَ الأخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشّعرى وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى وقوم نوحٍ من قبلُ

أنهم كانوا هم أظلمَ وأطغى » .. ومنه قوله « والله يقبضُ ويبسط »

القسم الحادى والاربعون

(الموجّه)

وهو ان يمدح بشئ يقتضى المدح لشئ آخر كقول المتنبى

نهبتَ من الاعمار مالو حويتَه   لهنئتِ الدنيا بأنكَ خالدُ

أول البيت مدح بفرط الشجاعة وآخره بعلوّ الدرجة . وفى القرآن العظيم منه كثير .. ومنه قوله تعالى « محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معه أشداء على الكفار رُحماءُ بينهم تراهمْ رُكعاً سُجداً يبتغونَ فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وُجوهِهمْ من أثرِ السجودِ » مدحهم فى أول الآية بالشدة على الكفار ثم بالرحمة بينهم ثم بالخشوع والخضوع ثم بالتذلل وحسن المسئلة ثم حسن السيماء وصباحة الوجوه . ومثله قوله تعالى « التائبونَ العابدونَ الحامدونَ السائحون الراكعونَ الساجدونَ الآمرونَ بالمعروف والناهونَ عن المنكر والحافظون لحدود الله » .. ومن هذا النوع قوله تبارك وتعالى « ويقولون طاعةٌ فاذا برزوا من عندكَ بيّتَ طائفةٌ منهم غير الذى تقول » يجوز ان تكون ـ تقول ـ راجعة الى ـ الطائفة ـ ويجوز أن تكون عائدة على النبى صلى الله عليه وسلم

القسم الثانى والاربعون

(المحتمل الضدين)

وهو أن يكون الكلام محتملا للشئ وضده . ومنه فى القرآن العظيم كثير .. من ذلك قوله تعالى « وكان وراءهم ملك يأخذ كلّ سفينةٍ غصباً » يحتمل أن يكون أراد

بورائهم - أمامهم ويحتمل أن يكون - وراءهم - وهو يطلبهم ومنه قوله تعالى « والمطلقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهن ثلاثةَ قروء » - والقرءُ - يطلق على الحيض والطهر • ومثل ذلك قوله تعالى « قال إنه يقولُ إنها بقرةٌ صفراءُ » قال المفسرون أراد سوداء • ومثله فى الشعر قول الشاعر

* يغادِرُ الجونة أن تغيبا *

- والجون - الاسود - والجون - الابيض وهو من الاضداد •• ومنه قول بشار فى رجل خاط له قِباءً وكان الخياط أعور

خاطَ لى زيدٌ قباءً ... ليتَ عينيه سواء

فأحاجى الناسَ طرًّا ... أمديحاً أم هجاء

وكان سبب ذلك أن بشاراً خاط له زيد قباءً فقال هذا إن شئت لبسته على وجهه وان شئتَ لبسته على بطانته فقال له بشار وأنا أقول فيك شعراً إن شئت جعلته مدحاً وان شئت جعلته ذماً وأنشده البيتين •• وقد أخذ المتنبى هذا المعنى فقال

أيا ابنَ كرَوَّسٍ يا نصفَ أعمى ... وان تفخرْ فيا نصفَ البصيرِ

وكان ابن كروَّسٍ أعور •• وينخرط فى هذا السلك قوله تعالى « إنكَ لأنتَ الحليم الرَّشيدُ » اذا جعل هذا من باب التهكم به والازراء عليه كان ذما • ولهذا قال بعض المفسرين أرادوا - انك لأنت الاحمق السفيه - وان أريد به المدح فالتقدير - انك أنت الكامل الحليم الرشيد فكيف يبدو منك مثل هذا لأنه ذكر الحليم والرشيد بالالف واللام التى هى لاستغراق الجنس أو للعهد •• ومثله فى السنة قول النبى صلى الله عليه وسلم - من جُعل قاضياً ذُبح بغير سكين - فان أريد به الذم يكون التقدير من جُعل قاضياً فقد قتِلَ بغير سكين لأنه ليس فى قدرته اقامة الحق على وجهه واجراء الأحكام على القانون المستقيم فيكون قد كلف ما لا طاقة له به ومن كلف ما لا طاقة له به فهو فى ألم شديد يشبه ألم من ذبح بغير سكين ومن أراد المدح قال انه لشدة تحرزه فى أحكامه واجتهاده فى نقضه وابرامه وانعامه النظر فيما يحدث من الوقائع ويتجدد من خفايا الاحكام والنظر في أمر الوصايا ومال الايتام الي غير ذلك من الامور المشقة يحصل

له من الألم مقدار ألم من ذُبح بغير سكين بل أشد لأن من ذبح بغير سكين يقاسى الألم فى حال ذبحه ثم يستريح والحاكم بهذه الامور مستمر التعب دائم التنكد مشتغل القلب منقسم الفكر دائم النظر فنسأل الله اللطف بنا وبه انه على ما يشاء قدير

القسم الثالث والاربعون

(التجريد)

وهو على قسمين •• الاول خطاب الغير والمراد به المتكلم وهو أولى باسم التجريد وفائدته مع التوسع فى الكلام أن يثبت الانسان لنفسه ما لا يليق التصريح بثبوته له وذلك قد يكون فضيلة كقول الحيص بيص

إلامَ يراكَ المجدُ فى زىّ شاعرٍ ... وقد نحِلتْ شوقاً فروعُ المنابرِ

وأنتَ نصبتَ الشعرَ علماً وحكمةً ... ببعضهما ينقادُ صعبُ المفاخرِ

أما وأبيكَ الخيرُ انك فارسُ الـمقالِ ومحى الدّارساتِ الغوابرِ

وإنكَ أتعبتَ المسامعَ والنُّهى ... بقولكَ عما فى بُطونِ الدّفاترِ

•• وقد تكون لنقيصة ولكن يؤثر ابداؤه إما لتشكٍّ كقول النابغة

حننتَ الى ريّا ونفسُكَ باعدتْ ... مزاركَ من ريّا وشعبا كما معا

فما حسنٌ أن تأتىَ الأمر طائعاً ... وتجزعَ إن داعى الصبابةِ أسمعا

وأذكرُ أيامَ الحمى ثم أنثنى ... على كبدِى من خشيةٍ أن تقطّعا

بنفسى تلكَ الارض ما أطيبَ الرُّبا ... وما أحسنَ المصطافَ والمتربعا

•• أو يكون لغير التشكى وذلك كالاعتذار كما قال المتنبى

لاخيلَ عندك تهديها ولا مالُ ... فليُسعِدِ النطقُ إن لم تسعد الحالُ

واجز الامير الذى نعماه بادية ... بغير قولٍ ونعمى القومِ أقوالُ

•• القسم الثانى خطاب المتكلم لنفسه مخيلا لها أنّ معه غيره كما قيل

أقولُ للنفسِ تأساءً وتعزيةً ... إحدى يدَيَّ أصابتني ولم تُرِدِ

وهذا النوع فى القرآن العظيم منه كثير وسنذكره فى فصل تلوين الخطاب ان شاء الله تعالى وقد ذكرنا منه طرفاً فى أنواع الالتفات فانظره هناك فهو كثير

﴿ القسم الرابع والاربعون ﴾

(الرجوع والاستدراك)

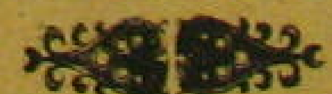
وهو من أنواع الاعتراض ولكن علماء هذا الشأن أفردوا له باباً . وهو على قسمين .. الاول أن تذكر شيئاً وترجع عنه كقولهم والله ما معه من العقل شىء الا مقدار ما يوجب الحجة عليه كقول زهير

قفْ بالديارِ التى لم يعفها القِدَمُ ... بلى وغيرها الارواحُ والدِّيَمُ

.. القسم الثانى من الاستدراك وهو أن يبتدئ كلامه بما يوهم السامع أنه هجو ثم يستدرك ويأخذ فى المدح كقول أبى مقاتل الضرير

لا تقلْ بشرى ولكن بشريانْ ... غرةُ الداعى ويومُ المهرجانْ

وهذا النوع غير مستحسن عند الحذاق فانّ السامع ربما يتطير من أول الكلام فيتأذى ولا يلتذ بما بعده والاستدراك فى الكتاب العزيز كثير كقوله تعالى « بلى من كسبَ سيئة وأحاطت به خطيئته » . وقوله تعالى « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن » . وقوله تعالى « ليسَ البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبلَ المشرق والمغرب ولكن البرَّ » على قراءة من خفف فرفع ـ البرّ ـ وقوله تعالى « وانْ من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهونَ تسبيحهم » وقوله تعالى « قال أولمْ تؤمنْ قالَ بلى ولكنْ ليطمئن قلبى » .. وفى القرآن كثير



﴿ القسم الخامس والاربعون ﴾

(السؤال والجواب)

وهو أن يحكى كلاماً بقال ثم يجيبه بقال أيضاً . وهو فى القرآن العظيم كثير .. من ذلك قوله تعالى « وإذْ قالَ موسى لقومه انّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قالَ أعوذُ بالله أنْ أكونَ من الجاهلين » الى قوله « فذبحوها وما كادوا يفعلون » . ومنه قوله تعالى « قال فرعون وما ربُّ العالمين قال ربُّ السموات والارض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قالَ ربكم وربُّ آبائكم الاولين قال إنّ رسولكم الذى أرسلَ اليكم لمجنون قال ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إنْ كنتم تعقلون قالَ لئن اتخذتَ إلهاً غيرى لاجعلنكَ من المسجونينَ قال أولو جئتك بشىء مبين قالَ فأتِ به انْ كنتَ من الصادقينَ » . وفى الشعر منه كثير من ذلك قولُ امرئ القيس

ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ ... فقالت لكَ الويلاتُ إنكَ مُرْجِلى
فقلتُ لها سيرى وارخى زمامَها ... ولا تمنعينا من جَناكِ المعلَّلِ

ومن بديعه قول بعض المتأخرين

وكاملة الأوصاف وافرة الحيا ... اذا افتخرتْ بالحسن اعجزها المثلُ
شكوتُ اليها ما أُجِنُّ من الجوى ... فقالت اذا اشتد الجفا عذبَ الوصل
فقلتُ أصمَّ العاذلون مسامعى ... فقالت اذا صحَّ الهوى بَطلَ العذلُ
فقلتُ فماذا عندكم لمُدَلَّهٍ ... فقالت له إما الحياةُ أو القتلُ
اذا شئتَ أنْ تحظى لدينا فكن لنا ... فريداً فلا مالٌ لديكَ ولا أهلُ
فكم هلكتْ فى حُبِّنا من معاشرٍ ... وما نهلوا صفوَ الحياة ولا علُّوا
ولا ظفروا منا بأيسرِ طائلٍ ... اتطمعُ بالتفريط فى وصلنا جهلُ

.. ومن ذلك قول الباخرزى

قد قلتُ لها هجرتني ما العلّة   صدّت وتمايلت وقالت قل لَهْ

قال علماء البيان أحسن هذا النوع ما كثرت فيه القلقلة

﴿ القسم السادس والاربعون ﴾

(التوهم • ويسمى الايهام أيضاً)

وهو أن يجاء بكلمة توهم أخرى • ومنه قوله تعالى « يومئذٍ يوفيهم الله دينَهم الحقّ » يوهم من لا يفهم أو يعلم العربية أن دينهم حق لأن دينهم اذا قرأها بالرفع من لا يفهم ولا يعلم العربية اقتضى ذلك أن دينهم حق وليس كذلك • ومنه قوله تعالى « قل ماعندَ الله خيرٌ من اللّهوِ ومنَ التجارةِ » من لايفهم العربية ولا يفهم المعنى يعتقد أن ما نافية وأنه ليس عند الله خير من اللهو ومن التجارة • ومنه قوله تعالى « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » من لايعرف العربية اذا سمع هذه الآية اعتقد أن الله تعالى يخشى العلماء والعارف بالعربية والقراءة ينصب الجلالة ويرفع العلماء فيظهر له أن العلماءهم الذين يخشون الله • ومنه قوله تعالى « فويلٌ للمصلينَ » من لا يعلم المعنى اعتقد أن الويل لاحقٌ بالمصلين ولهذا قال بعض الجهال

ماقالَ ربُّكَ ويلٌ للذين سهوا   بل قال ربك ويلٌ للمصلينا

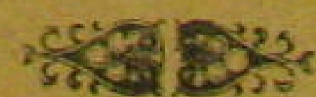
.. وقد يقع من ذلك في الشعر كثير • ومنه قول سُحَيم

فجالَ على وحشيّهِ وتخالُهُ   على ظهره سبّاً جديداً يمانيا

فقوله ـ يمانيا ـ يوهم أنه شبّاً بالشين • وكذلك قول المتنبي

فانّ الفئامَ الذى حولَهُ   لتحسد أرجلها الأرؤسا

فقوله ـ أرجلها ـ يوهم أنه القيام بالقاف وانما هو بالفاء والفئام الجماعات



﴿ القسم السابع والاربعون ﴾

(التشعيب)

وهو أن يكون في صدر الكلام كلمة من عجزه مثل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهكَ في السماء فلنولينك قبلةً ترضاها فولّ وجهك شطرَ المسجد الحرام » • وقوله تعالى « ولئن أتيتَ الذينَ أوتوا الكتابَ بكلّ آية ماتبعوا قبلتكَ وما أنت بتابع قبلتهمْ وما بعضهم بتابع قبلةَ بعض » • ومثل قول الشيخ أبي العلاء

قد أورقتْ عُمُدُ الخيام وأعشبتْ   شُعَبُ الرحالِ ولونُ رأسي أغبرُ

ولقد سلوتُ عن الشباب كما سلا   غيري ولكن للحزين تذكّرُ

.. وقال آخر

وما هجرتك النفسُ يا عزّ أنها   قلَتْك ولكنْ قلَّ منك نصيبها

ولكنهم يا أحسنَ الناس أولعوا   بقولٍ اذا ما جئتُ هذا حبيبها

أهابُكِ إجلالا وما بك قدرةٌ   عليّ ولكن مِلءُ عينٍ حبيبها

﴿ القسم الثامن والاربعون ﴾

(الاستثناء)

وهو أن يذكر شيئاً ثم يرجع عنه أو يدخل شيئاً ثم يخرج منه بعضه • أما الاستثناء في القرآن منه كثير • فمنه قوله تعالى « حرمتْ عليكم الميتة والدّمُ ولحمُ الخنزير » الى قوله تعالى « الاّ ما اضطررتم اليه » • ومنه قوله تعالى « قل لا أجدُ في ما أوحي اليّ محرّماً على طاعمٍ يطعمُهُ الاّ أن يكون ميتةً أودماً مسحوفاً أو لحمَ خنزير » • ومثله في القرآن كثير • وأما الرجوع فلا ينبغي أن يكون في القرآن منه شيء لأن

المتكلم به لايليق بجلاله أن يوصف بالرجوع عن شئ . وأما ماسوى القرآن ففيه منه كثير من ذلك فى الاستعمال قولهم ـ ليس له عقل الا ماتقوم عليه به الحجة ـ . وأما فى الشعر فقد ورد فى أشعار كثيرة .. منها

أليس قليلا نظرة إن نظرتها … اليك ولكن ليس منك قليل

.. ومنه قول الآخر

وما بى انتصار إن غدا الدهر ظالما … علىّ بلى إن كان من عندك النصر

.. ومنه قول النابغة

ولا عيب فيهم أن سيوفهم … بهن فلول من قراع الكتائب

﴿ القسم التاسع والاربعون ﴾

(الغرابة . والظرافة . والسهولة)

أما الغرابة فقال ابن قدامة .. هى أن يكون المعنى مما لم يسبق اليه على جهة الاستحسان فيقال ظريف وغريب اذا كان عديم المثال أو قليله والقرآن العظيم كله سهل ممتنع ألفاظه سهلة ومعانيه نادرة وأسلوبه غريب قد مازجت القلوب عذوبته وحلت فى العيون طلاوته وراق فى الاسماع سماعه واستقر فى الطباع انطباعه فلهذا لم يسأم على ترداده ولم تمله النفوس على دوام ايراده فكل آية منه حسنة المساق وكل كلمة منه عذبة المذاق وكل معنى منه دق ورق .. ومن هذا النوع فى أشعار العرب والمخضرمين والمتأخرين كثير لايحصى .. فمن ذلك قول بعض العرب

هوى صاحبى ريح الشمال اذا جرت … وأشفى لقلبى أن تهب جنوب
يقولون لو عزيت قلبك لارعوى … فقلت وهل للعاشقين قلوب

.. وقال آخر

ولا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها … سجية نفس كل غانية هند

فما خلف اجفانى شؤون بخيلة … ولا بين أضلاعى لها حجر صلد

.. وقال آخر

تقول نساء الحى تأمل أن ترى … محاسن ليلى مت بداء المطامع
وكيف ترى ليلى بعين ترى بها … سواها وما طهرتها بالمدامع
وتلتذ منها بالحديث وقد جرى … حديث سواها فى خروق المسامع

.. وقال آخر

لا خير فى الحب وقفاً لاتحركه … عوارض اليأس أو يرتاحه الطمع
لو كان لى صبرها أو عندها جزعى … لكنت أملك ما آتى وما أدع
اذا دعى باسمها داع ليحزننى … كادت له شعبة من مهجتى تقع
لأأحمل اللوم فيها والغرام بها … ما كلف الله نفسا فوق ماتسع



.. وقال مسلم بن الوليد

عينى لعينك حين تنظر (١) … لكن عينك سهم حتف مرسل
ومن العجائب أن معنى واحداً … هو منك سهم وهو منى مقتل

.. وقال آخر

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا … سوى أن يقولوا إننى لك عاشق
نعم صدق الواشون أنت عزيزة … علىّ وإن لم تصف منك الخلائق

.. وقال أبو تمام

أقول وقد قالوا استرحت بموتها … من الكرب روح الموت شر من الكرب

.. وقوله أيضاً

وقالوا عزاء الموت للنفس مدفع … فقلت ولا للحزن مذمات مدفع

ومن الغريب السهل الظريف قول أبى تمام فى قصيدته التى أولها

مافى وقوفك ساعة من باس … نحيى بقايا الاربع الادراس
إقدام عمرو فى سماحة حاتم … فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

(١) كذا فى الاصل ولم نقف عليه فى المطبوع من شعره

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

وهذه الابيات على غاية من الغرابة وعلى نهاية من الظرافة والاطابة واغرب ما فيها أن أبا تمام لما أنشد قوله

اقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال بعض من حضر فى مجلس الخلافة شبه أمير المؤمنين بكل بوال على عقبيه فأنشد فى الحال بديهاً * لا تنكروا ضربى له من دونه * البيتين . فقال له الخليفة تمنَّ فقال تمنيت الموصل فكأن الخليفة توقف عن ذلك فقال له حكيم عنده اعطها له فانه لا يصل اليها فانى من قوة فكرته شممت رائحة كبده فتوجه اليها فمات فى الطريق . وهذا النوع القرآن كله منه فانه من غرابة الأسلوب وبداعة السياق وجودة الاتساق على غاية لا تدرك وطريقة لبعد مثالها لا تسلك .. ومن هذا النوع قول زهير

وما كان من خير كبير فانما   توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطى الا وشيجه   وتغرس الا فى منابتها النخل

على مكثريهم حق من يعتريهم   وعند المقلين السماحة والبذل

(قال المصنف عفا الله عنه) هذا البيت قد ذكر أرباب هذه الصناعة أنه أمدح بيت قالته العرب وقد طعن عليه بعض الحذاق منهم وذكر فيه عيوباً . منها أنهم لو كانوا كرماء ما كان فيهم مقل . ومنها أنه جعل حق المعترى على المكثرين واجباً عليهم ولم يوجبه على المقلين فكان المكثرون عليهم اكرام الضيف واجبا ولم يكن واجباً على المقلين فاقتضى ذلك أن يكون اعطاء المكثرين عن كظم واعطاء المقلين عن كرم فصار المقلون أحسن حالا من المكثرين وأكرم أنفسا وعليه مآخذ غير هذه ولسنا بصدد استيفائها وهذا الباب واسع جدا وماذكرناه فيه مقنع

﴿ القسم الموفى خمسين ﴾

(مايوهم فساداً . وليس بفساد)

وهو أن يقرن الناظم أو الناثر كلاما بما ليس يناسبه أو يقدم التشبيه على ذكر المشبه .. ومنه فى القرآن كثير وكذلك فى أشعار العرب .. أما القرآن . فمنه قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » قرنها بقوله « وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » الآية واتبعها . بقوله « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية » الآية فليس قبلها وبعدها ما يناسبها . ومنه قوله تعالى « إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » الذى يقتضيه المعنى المناسب ظاهراً أن يقول ان لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ وانك لا تعرى فيها ولا تضحى . ومنه قوله تعالى « فان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » وغير العالم المطلع على خفايا معانى القرآن العظيم يظن فى ذلك كله عدم المناسبة وليس الأمر كذلك بل ما ورد به القرآن العزيز هو الاحسن وسنذكر ان شاء الله المناسبة فى ذلك .. فأما آية اليتامى فقد ذكر أئمة التفسير فى المناسبة وجوها . أحدها ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت هذا فى اليتيمة تكون عند وصيها فيعجبه حسنها ومالها فيمنعها عن الأزواج ليتزوجها بمهر دون مهر مثلها ويحوز مالها فأعلم الله المؤمنين أن من خشى منهم أن يقع فى مثل ذلك مع اليتامى فلينكح ما طاب له من النساء من غير اليتامى . وقيل المعنى فان كنتم من التقوى على حد تخشون أن تلوا مال اليتيم خشية عدم الاقساط فانكحوا ما طاب لكم من النساء يعنى اثنتين أو ثلاثا أو أربعاً فان من كان بهذه المثابة من خوف الله والتقوى لا يخشى عليه من الجور والميل وعدم العدل بين نسائه بدليل ما عقبه به من قوله « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » وقد ذكر أئمة التفسير فى الجمع غير ذلك اقتصرنا على هذا خشية التطويل . وأما آدم عليه السلام فقد تقدم فى المناسبة انها تارة يقصد فيها مناسبة اللفظ والمعنى وتارة يراعى فيها مناسبة اللفظ فقط

وتارة يراعى فيها مناسبة المعنى وهذه الآية منه وهو الذى أريد لأن ـ الجوع ـ خلو الباطن عن الغذاء ـ والتعرى ـ خلو الظاهر عن الثياب ـ والظمأ ـ احتراق الباطن بالحرارة ـ والضحى ـ احتراق الظاهر. فظهرت المناسبة من حيث المعنى فيها .. وأما آية الصلوات والمحافظة عليها فقد سئل عنها بعض أجلة أهل العلم رضى الله عنهم فقال لما أمر الله تبارك وتعالى بالمحافظة على حقوق الخلق ذكر لهم حقوقه وهو الصلاة ليجمع لهم فى التعليم بين مراعاة حقوق الخالق والحق ليحصل لهم الكمال ثم لما كانت حقوق الآدميين منها ما هو متعلق بالحياة وقد ذكر ذلك قبلها ناسب أن يذكر الحقوق المتعلقة بالممات بعدها . وقد ذكر أهل التفسير رضى الله عنهم فيها أجوبة كثيرة اقتصرنا على هذا منها . وقد وقع فى اشعار العرب الاقدمين والمتقدمين من الاسلاميين والمتأخرين من هذا النوع كثير . من ذلك قول امرئ القيس

كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم اتبطن كاعباً ذات خلخالِ
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال

.. قال بعض النقاد ان هذا فاسد لانه جعل التغزلَ مُجاوراً للشجاعة فى البيتين والأجود أن يجاور الشجاعة بالشجاعة والغزل بالغزل فيقول

كأنى لم أركب جوداً ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد اجفال
ولم أسبأ الزِّقَ الروى للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

.. ومن هذا النوع قول المتنبى

وقفتَ وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطالُ جرحى هزيمةً ... ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمُ

.. وهذا الذى ذكره النقاد قد رده جماعة من الحذاق بما حكى أن سيف الدولة قال للمتنبى هذا فاسد المجاورة لانك أتيت بالتشبيه قبل ذكر المشبه والاجود أن تقول

وقفت وما فى الموت شكٌّ لواقف ... ووجهكَ وَضاحٌ وثغرك باسمُ
تمر بك الابطالُ كلمى هزيمة ... كأنكَ فى جفن الردى وهو نائم

.. فقال المتنبي أيدَ الله مولانا الامير ان صح الذى استدرك صح الذى أستدرك على

امرئ القيس وهو أعلم بالشعر منى فقد أخطأ امرؤ القيس وأسأت أنا ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز كمعرفة الناسج لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقه لانه هو الذى أخرجه من الغزلية الى الثوبية .. وانما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة ركوب الخيل للصيد وقرن السماحة فى سباء الخمر للاضياف بالشجاعة فى منازلة الاعداء وأنا ذكرت الموت فى أول البيت فأتبعته بذكر الردى وهو الموت لتجانسهما ولما كان الجريح المنهزم لايخلو وجهه من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت ـ ووجهك وضّاح وثغرك باسم ـ لأجمع بين الاضداد فى المعنى وان لم يتسع اللفظ لجمعهما فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً .. ومن ذلك قول بعضهم

فانكَ ان تهجو تميما وترتشى ... سرابيلَ قيس أو سُحوقَ العمائم
كمهرقِ ماء فى الفلاةِ وغرَّهُ ... سرابٌ أذاعتهُ رياحُ السمائم

.. وقال آخر

إنى وتركي ندا الاكرمين ... وقدحى بكفّى زناداً شحاحا
كتاركةٍ بيضها بالعرا ... ءِ ومُلبسة بيض أخرى جناحا

يجب أن يكون كل بيت من الاولين مع بيت من الاخرين لانه أجود وأنسب .. ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر

فيا أيها الحيرانُ فى ظلمةِ الدجى ... ومَن خافَ أن يَلقاهُ بَغيٌ من العِدا
تعالَ اليهِ تلقَ من نورِ وجههِ ... دَليلا ومن كفَّيهِ بحراً من النَّدا

قال النقّاد هذا فاسد التفسير لانه قابل البغى بالسماحة وكان يجب أن يقابل بغير ذلك فيقول تنظر أسداً حامياً وليثاً مانعاً . وقد قيل فى هذا البيت انه دل على الشجاعة بلازمها لأن الشجاع لا يكون بخيلا ولذلك قال الشاعر

لا تطلبنّ من البخيلِ شجاعة ... انّ البخيلَ يخافُ أسبابَ الردَى
مَن لا يجودُ بمالهِ يومَ الندا ... أنى يجود بنفسهِ يوم اللقا

وقد تعسف لهذه الابيات وجوه من المعانى وضروب من التصحيح تخرج بها عن أن تكون فاسدة ليس هذا موضع استيفائها وفيما ذكرت كفاية ومقنع والله الهادى والموفق

﴿ القسم الحادى والخمسون ﴾

(فى النادر والبارد)

فأما البارد فليس فى القرآن العظيم منه شئ وسيأتى بيانه فى الفن الثالث الذى ليس فى القرآن العظيم منه شئ .. وأما النادر فالقرآن مشحون به فان أكثر ألفاظه نادرة الوجود ومعانيه مستوفية المقصود كل كلمة منه جامعة لمعان شتى وكل آية تحتوى على معان لغير المتكلم به لا تتأتى وكل سورة إحكام أحكامها لا ينحصر وإعجاز ايجازها قد أعجز البشر وفيه النادر الحسن والاحسن .. فمن الآيات التى لم ينسج على منوالها ولا سمحت قريحة بمثالها قوله تعالى « فلما جاء أمرنا وفار التنور » الى قوله «وقيل بعداً للقوم الظالمين » ولهذا ان ابن المقفع لما عارض القرآن ووصل الى هذه الآية قال هذا مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله وترك المعارضة ومزق ما كان اختلقه . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى « وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » جمعت هذه الآية أمرين ونهيين وخبرين ووعدين .. ومن هذا النوع فى القرآن كثير بل القرآن كله حسن وأحسن وليس هذا موضع استقصاء الاحسن وفى أشعار العرب من هذا كثير وقد تقدم بيانه

﴿ القسم الثانى والخمسون ﴾

(المساواة والتقصير)

وهو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص . والقرآن العظيم جله بل كله على هذا النمط . وأما التقصير فليس فى القرآن منه شئ وسيأتى بيانه فى الفن الثالث

﴿ القسم الثالث والخمسون ﴾

(التصريح بعد الابهام . ويسمى التفسير)

قال أئمة هذا الشأن المراد بالتفسير بعد الابهام تفخيم المبهم واعظامه لانه هو الذى يطرق السمع أولا فيذهب السامع فيه كل مذهب كقوله تعالى « وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » فسر ذلك الامر بقوله ــ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ــ وفى ابهامه أولا وتفسيره بعد ذلك تفخيم للمبهم وتعظيم لشأنه فانه لو قال تعالى ــ وقضينا اليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ــ لما كان بهذه المثابة من الفخامة فان الابهام أولا يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه فيتشوف الى معرفة كنهه والاطلاع عليه وعلى حقيقته .. ومن هذا الباب قوله تعالى « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذى أنعمت عليهم » لما جاء فى الاول من التنبيه والاشعار بأن ــ الصراط المستقيم ــ هو صراط المؤمنين فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول ــ هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ــ ثم تقول ــ فلان ــ فيكون ذلك أبلغ فى وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الاكرم والأفضل لانك بدأت بذكره مجملا ثم بينته مفصلا فجعلته علماً فى الكرم والفضل كأنك قلت من أراد رجلا جامعاً للخصلتين جميعاً فعليه بفلان . وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى « وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد » الى قوله « يرزقون فيها بغير حساب » ألا ترى كيف قال ــ أهدكم سبيل الرشاد ــ فابهم سبيل الرشاد فلم يبين أى سبيل هو ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها لان الاخلاد اليها أصل الشر كله ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هى الوطن المستقر ثم ثلث بذكر الاعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف فكأنه قال سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا والرغبة فى الآخرة والامتناع عن الاعمال السيئة خوف المقابلة عليها والمسارعة الى الاعمال الصالحة

رجاء المجازاة عليها .. وكذلك قوله تعالى « وإذ يرفع ابراهيمُ القواعدَ من البيت » ولم يقل قواعـد البيت لما فى ابهام القواعد ولما فى تبيينها بعد ذلك من الايضاح وتفخيم حال المبهم بما ليس فى الاضافة .. ومن هذا الباب قوله تعالى « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً » الى قوله « فأطلعَ إلى إله موسى » الآية لما أراد تفخيم ما التمس من بلوغه اسباب السموات أبهمها أولا ثم فسرها ثانياً ولانه لما كان بلوغهما أمراً عجيباً أراد أن يورده على صورة مشوقة اليـه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه لتتشوف اليه نفس هامان ثم أوضحه بعد ذلك .. ومما يدخل فى هـذا الباب الابتداء بذكر الضمير ثم الافصاح بذكر صاحبه وحده كقوله تعالى « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن » فانه لما أتى بالضمير الذى هو منه قبل صاحبه الذى هو فى القرآن كان ذلك تفخيما له وتعظيما من أمره ولو قال ـ وما تكون فى شأن وما تتلو من قرآن ـ ولم يذكر الضمير لما كان للكلام تلك الفخامة التى كانت له مع ذكر الضمير .. ومثل هذا قولهم الكريم العالم الفاضل ـ ثم يقال ـ فلان ـ وقد سبق الكلام عليه .. وأما الابهام من غير تفسير فكثير شائع فى القرآن العزيز كقوله تعالى « إنّ هذا القرآنَ يهدى للتى هىَ أقومُ » أى الطريقة أو الحالة أو الملة التى هى أقومها وأشدها وأىّ ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح ذوق البلاغة الذى تجده مع الابهام وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب وايقاعه على محتملات كثيرة وهذا لا يخفى على العالم برموز صناعة التأليف فاعرفه .. ومما يدخل فى هذا الباب الاستثناء العددى وهو ضرب من التأليف لطيف المأخذ عجيب المغزى وانما يُفعل ذلك طلباً للمبالغة لأن له تأثيراً شديداً فى القلب وموقعاً عظيما فى النفس وفائدته أنه أول ما يطرق سمع المخاطب ذكر العقد فى العدد فيكبر موقع ذلك عنده وهو شبيه بما ذكرنا من الابهام ثم التفسير بعدها يسوّى بينهما .. فمن ذلك قوله تعالى « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبثَ فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً » فانه انما قال ـ ألف سنة إلا خمسين عاما ـ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما لفائدة حسنة وهى ذكر ما ابتلى به نوح عليه الصلاة والسلام من أمته وما كابده من طول المقام ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيهاً له فان ذكر رأس العدد الذى هو منتهى

العقود وأعظمها أوقع وأوصل الى الغرض من استطالة السامع قوة صبره وما لاقاه من قومه .. ومن بديع التفسير بعد الابهام قوله تعالى « انما أعظكم بواحدةٍ أن تقوموا لله مثنى وفرادى » ولو حذف ـ واحدة ـ كان الأمر كما ذكرنا وذهبت تلك الفخامة التى فى الابهام وزال مافيه من الغموض وانقطع شوق النفس الى التفسير وفسر ـ الواحدة ـ بقوله أن تقوموا لله مثنى وفرادى .. ومنـه قوله تعالى « والمؤتفكةَ أهوى فغشاها ما غشّى » . ومنه قوله تعالى « فغشيهم من اليم ما غشيهم » . ومنه « وفعلتَ فعلتكَ التى فعلتَ » . ومنه فى الاستعمال قولهم فؤاد فيه ما فيه .. ومنـه قول الشاعر فى وصف الخمر

فقد مضى ما مضى من عقلِ شاربها ... وفى الزجاجة باقٍ يَطلبُ الباقى

.. ومنه قول الآخر

مضى ما مضى حتى علا الشيبُ رأسَهُ ... فلما علاهُ قال للباطل ابعدِ

.. وقال آخر

سأغسلُ عنى العارَ بالسيف جالباً ... علىّ قضاء الله ما كان جالبا

فاعرف ذلك وقس عليه

القسم الرابع والخمسون

(التعقيب المصدرى)

وانما يُعمد الى ذلك لضرب من التأكيد لما تقدّمه والاشعار بتعظيم شأنه أو بالضد من ذلك .. مثال الاول قوله تعالى « ويومَ يُنفخُ فى الصُّورِ ففزعَ مَن فى السموات ومَن فى الارض » الى قوله « هلْ تُجزَوْنَ الا ما كنتم تعملون » فقوله ـ صُنعَ الله ـ من المصادر المؤكدة لما قبلها وهو كقوله « وعدَ اللهِ . وصبغة الله » ألا ترى أنه لما جاء ذكر هذا الأمر العظيم الدال على القدرة الباهرة من النفخ فى الصور وإحياء

الموتى والفزع واحضار الناس للحساب وتسيير الجبال كالسحاب فى سرعتها وهى عند الرؤية لها والمشاهدة كأنها جامدة عقب ذلك بأن قال ـ صُنعَ الله ـ أى هذا الأمر العجيب البديع صنع الله والمعنى ويوم ينفخ فى الصور وكان كيت وكيت من الاشياء الباهرة واثابة الله المحسنين ومعاقبة المجرمين فجعل هذا الصنع من جملة الامور التى هى أنفسها وأتى بها على الحكمة والصواب حيث قال ـ صنع الله الذى أتقن كل شئ ـ يعنى أن مقابلة الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من إحكام الاشياء واتقانه لها واجرائه اياها على الحكمة أى انه عالم بما يفعل العباد وبما سيرجعون اليه فيكافئهم على حسب أفعالهم ثم لخص ذلك بقوله « من جاء بالحسنة » الى آخر الآيتين . فانظر أيها المتأمل الى بداعة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة ايجازه وفصاحة تفسيره وأخذ بعضه برقاب بعض كأنه أفرغ افراغا واحداً ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق . ونحو هذا المصدر اذا جاء عقيب الكلام كان كالشاهد بصحته والمنادى على سداده وأنه ما كان ينبغى أن يكون الا ما قد كان ألا ترى الى قوله ـ صبغة الله . وصنع الله . ووعد الله . وفطرة الله ـ بعد ما وسمها باضافتها اليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله ـ الذى أتقن كل شئ ـ

.. وأما الثانى وهو ضد الاول وذلك ما يراد به تصغير الشأن كقولهم اذا ذكروا انسانا يريدون ذمه ـ قد ركب هواه . واستمر على غيه . وتمادى على جهله . وسحب ذيل عجبه ـ وما أشبه ذلك ثم يقول ـ صنع الشيطان الذى غلب النفوس وميل الالباب ـ ومثل هذا كثير فاعرفه

القسم الخامس والخمسون

(النفى والاثبات)

وهو أعلى ضرب من البلاغة كثير الفوائد عذب الموارد . وقد تكلم فيه أرباب علم الكلام وأرباب علم البيان وقالوا ان نفى الخاص يدل على ثبوت العام ولا يدل نفيه

على نفيه . وقد بينا أن زيادة المفهوم فى اللفظ توجب زيادة الالتذاذ به لحصول جملة من الملاذ دفعة واحدة ولذلك كان نفى العام أحسن من نفى الخاص واثبات الخاص أحسن من اثبات العام . أما الاول فكقوله تعالى « مَثلُهم كمثل الذى استوقَدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حولهُ ذهب الله بنورهم » ولم يقل بضوئهم لأن النور أعمّ من الضوء إذ يطلق على الكثير والقليل وانما يقال الضوء على القدر الكثير . ولذلك قال تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » وهاهنا دقيقة وهو أنه قال ـ ذهب الله بنورهم ـ ولم يقل أذهب نورهم لأن الاذهاب بالشيء لا يمنع من عود ذلك الشيء بخلاف الذهاب إذ يفهم من ذلك استصحابه فى الذهاب ومقتضى ذلك منعه من الرجوع . وكذلك قوله تعالى « قال الملأ من قومه إنّا لنراك فى ضلال مبين قال ياقوم ليس بى ضلالة » معناه لا ضلالة واحدة بى ويلزم من ذلك أن لا يثبت له فرد من الضلال البتة ولا كذلك لو قال ليس بى ضلال لان اسم الجنس يقال على الكثير والقليل فيجوز أن يكون المنفى هو الكثير . ومما يشبه ذلك قوله تعالى « ولا تقلْ لهما أفّ » فان هذا يدل على النهى عن الضرب أيضاً لا على أن التأفيف أعم بل لأن المقصود من منع التأفيف هو الاكرام وعدم الاهانة والاهانة بالضرب أكثر من الاهانة بالتأفيف . الثانى كقوله تعالى « وجنة عَرضها السموات والارضُ » ولم يقل طولها لان العرض أنقص اذ كلما له عرض فله طول ولا ينعكس . ومما يتعلق بهذا انه اذا كان الشئ يشبه أشياء بعضها أتم فى التشبيه وأوفق من بعض فالاولى والالأم الاقتصار على ما هو أتم وأوفق فان ذكر الكل فالاولى الابتداء بالادنى والاضعف ليكون انتقال الذهن الى الاعلى بتدريج ولأن التشبيه بالاعلى ألذّ والانتقال من لذة الى ما هو دونها غير مُلذّ ولا مستحسن فلذلك قال الاشتر النخعى

حمى الحديدُ عليهمُ فكأنه ... لمعانُ برق أو شعاعُ شموس

. واذا كان للشئ صفة يغنى ذكرها عن ذكر صفة أخرى أو يدل عليها كان الاقتصار عليها أولى من ذكرها لان ذكرهما كالتكرار وهو ممل واذا ذكر فالاولى تقديم المدلول عليها وتأخير الدالة حتى لا تكون الآخرة قد تقدمت الدلالة عليها وقد يخل بذلك لمتجوّز

آخر كما فى قوله تعالى « وكان رسولا نبيا » فانه أخر نبيا لاجل السجع . واذا كان ثبوت شئ أو نفيه يدل على ثبوت آخر أو نفيه كان الأولى الاقتصار على الدال على الآخر فان ذكرا فالاولى تأخير الدال وقد يخل بذلك لمقصود كما فى قوله تعالى « ما لهذا الكتابِ لايغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً الاّ أحصاها » وعلى قياس ما قلنا ينبغى أن يقتصر على صغيرة وان ذكرت الكبيرة فلتذكر أولا . ومثله قوله تعالى « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » وعلى ذلك القياس يكتفى بقوله ـ ولا تقل لهما أف ـ وان ذكرا فيقول ـ ولا تنهرهما ولاتقل لهما أفّ ـ .. واذا تكررت الصفات فان كان للمدح فالأولى الانتقال من الادنى الى الاعلى ليكون المديح مزيداً لتزايد الكلام وان كان للذم فقد قالوا ينبغى الابتداء بالاشد ذما وهو مشكل . وقد يجوز أن يستعمل نفى الخاص لنفى العام ويسمى هذا عكس الظاهر وهو من المجاز البديع . ومثاله قول على رضى الله عنه فى وصفه لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ انه لاتنثى فلتاته ـ أى تذاع والمراد أنه لافلتات له البتة وانما يعرف ذلك لأنه نكرة فى معرض المدح وانما يكون كذلك اذا كان المراد ما ذكرناه . ومنه ـ ليس بهاضب فينجحر ـ والمراد أنه لاضب بها .. وكذلك قول بعضهم

تردين جلبابَ الحياء فلم يرى ... لذيولهنّ على الطريق غُبارُ

والمراد انهن لايخرجن ولا يمشين . وهذا ينبغى ان يكون من باب تنسيق الصفات لكن فيه زيادة اقتضت افراده

القسمُ السادس والخمسون

(فى الضمائر وما يتعلق بها)

اعلم وفقنا الله واياك أن الضمير لا يخلو إما أن يكون معلوماً أو لا يكون كذلك . فالأول تأكيده بضمير آخر وعدم تأكيده بذلك سواء فى البلاغة كما فى قوله تعالى « بيدك الخيرُ إنكَ على كلّ شئ قدير » مع قوله تعالى « تعلمُ ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسِكَ إنكَ أنتَ علاّمُ الغيوب » وذلك لأن قدرة الله تعالى وعلمه معلومان

فاستوى حذف الضمير المؤكد واثباته معهما . والثانى الأولى فيه والأفصح تأكيد الضمير بضمير آخر وذلك اذا أريد تقوية المتعلق به وحينئذ إما أن يكون الضميران متصلين أو منفصلين أو أحدهما متصل والآخر منفصل . أما المتصلان فكقوله تعالى « قال أقتلتَ نفساً زكيةً بغيرِ نفسٍ لقد جئتَ شيئاً نكراً قال ألم أقلْ لكَ إنكَ لن تستطيعَ معيَ صبراً » وانما أكد هنا دون قصة السفينة لارادته فى قصة الغلام زيادة النكر .. وأما المنفصلان فكقول المتنبى

فانكَ أنتَ وأنتَ منهم ... وجدُّكَ بِشرٌ المَلِكُ الهُمامُ

والغرض المبالغة فى زيادة المدح .. وأما اذا كان أحد الضميرين منفصلا والآخر متصلا فكقوله تعالى « قلنا لاتخفْ إنكَ أنتَ الأعلى » وهاهنا دقائق . أحدها الاتيان بلفظة ـ إنّ ـ المشددة لتفيد تأكيد ثبوت ما بعدها . وثانيها تكرير الضمير يدل على تأكيد ما يتعلق به . وثالثها ذكر ـ الاعلى ـ معرّفا يدل على أن غيره لا يكون كذلك بخلاف عالى وأعلى . ورابعها أن ـ الأعلى ـ بصفة أفعل يشعر بزيادة العلو . وخامسها حذف لام العلة يفيد زيادة علة لعدم الخوف لأن قوله ـ لا تخف ـ علة لعدم الخوف لأنه نهى عنه واشتقاقه بعد ذلك بقوله ـ إنكَ أنت الأعلى ـ منع أيضاً من الخوف لأن الأعلى لا يخاف الأدنى

القسم السابع والخمسون

(الفصل والوصل)

وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف والتهدى الى كيفية ايقاع حروف العطف فى مواقعها وهو من أعظم أركان البلاغة حتى قال بعضهم حد البلاغة معرفة الفصل والوصل .. واعلم ان فائدة العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلّا هذا القدر وهو الواو وهو المراد بالذكر هاهنا والعطف

والمعطوف عليه على ثلاثة أقسام . الاول عطف مفرد على مفرد وهو يقتضى التشريك فيما يوجب الاعراب . الثانى عطف الجمل التى فى قوة الافراد ويقتضى التشريك أيضاً . الثالث الجمل التى ليست فى قوة المفرد . وهى على قسمين . قسم يكون فيه معنى أحد الجملتين لذاته متعلقاً بمعنى الأخرى كما اذا كانت كالتوكيد لها فلا يجوز ادخال العاطف لأن التوكيد والصفة متعلقان بالمؤكد والموصوف لذاتيهما والتعلق الذاتى يغنى عن لفظ يدل عليه فالتأكيد كقوله تعالى « ومن الناسِ مَن يقولُ آمنّا باللهِ وباليومِ الآخر وما همْ بمؤمنين » . وكقوله تعالى « واذا تُتلى عليهِ آياتنا ولّى مُستكبراً كأنْ لم يسمعْها كأنّ فى أذنيهِ وَقراً » ولم يقل وكأن لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر التشبيه بمن لا يسمع إلا أن الثانى أبلغ .. وكذلك قوله تعالى « وما علّمناهُ الشعرَ وما ينبغى له إنْ هوَ إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ » . وقوله تعالى « وما يَنطِقُ عن الهوى إن هو الاّ وَحيٌ يُوحى » الاثبات فى الآيتين جميعاً تأكيد لنفى ما نفى .. وأما قوله تعالى « إِنْ هذا الاّ مَلَكٌ كريمٌ » فيحتمل أن يكون تأكيداً لقوله « ما هذا بشَراً » اذ المرتفع عن البشرية من المخلوقات انما هو الملك ولان الناس اذا شاهدوا فى الانسان من الخلق الحسن والخلق الجميل ما يعجبوا منه قالوا ماهذا بشرٌ لان غرضهم أن يقولوا انه ملك فلما كان ذلك مفهوماً قبل التصريح به كان التصريح به تأكيداً ويحتمل أن يكون صفة له فان اخراجه عن جنس البشرية يتضمن دخوله تحت جنس آخر لا تحت الملك على الخصوص فان القسمة غير محصورة فى النوعين فجعله مَلَكاً تعيينٌ لذلك النوع وتمييز له عن غيره . الثانى أن لا يكون بين الجملتين تعلق ذاتىٌّ فان لم يكن بينهما مناسبة فيجب ترك العطف ولذلك عابوا أبا تمام فى قوله

لا والذى هو عالمٌ أنّ الهوَى صبرٌ وأنّ أبا الحسينِ كريمُ

اذ لا مناسبة بين مرارة الهوى وبين كرم أبى الحسين . ثم ان كان المحدث عنه فى الجملتين شيئين لغير المناسبة فى الذى أخبر بهما والذى أخبر عنهما والمراد بالمناسبة أن يكونا متشابهين كقولك زيد كاتب وعمرو شاعر أو متضادين تضاداً على الخصوص كقولك زيد طويل وعمرو قصير وكقولك العلم حسن والجهل قبيح . فلو قلتَ زيد طويل

والخليفة قصير أخلّ المعنى عند السامع اذ لم يكن لزيد تعلق بحديث الخليفة ولو قلت زيد طويل وعمرو شاعر اختل اللفظ اذ لا مناسبة بين طول القامة والشعر .. وان كان المحدث عنه فى الجملتين شيئاً واحداً كقولك فلان يقول ويفعل فيجب الاتيان بالعاطف فان الغرض جعله فاعلا للامرين وترك العاطف يوهم أن الثانى رجوع عن الاول والاجتماع لزيادة الاشتراك كقولك العجب من انك تنهى عن شئ وتأتى مثله . وكقول الشاعر

لا تطمَعوا أنْ تهينونا ونُكرِمَكم وأن نكفّ الاذى عنكم وتؤذونا

أى لا تطمعوا أن تروا اكرامنا اياكم يوجد مع اهانتكم ايانا ويجامعها فى الحصول .. والعاطف تارة يجب اسقاطه وتارة يجب اثباته وتارة يخير بين اسقاطه واثباته .. أما الذى يجب اسقاطه فهو اذا كان اثباته يخل بالمعنى كقوله تعالى « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحنُ مُصلحون ألا انهم هم المفسِدُون » فقوله ـ ألا انهم هم المفسدون ـ كلام مستأنف وهو اخبارٌ من الله تعالى فلو أتى بالواو العاطفة لكان اخباراً عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسهم بأنهم مفسدون فيختل المعنى ويتناقض الكلام .. وكذلك قوله تعالى « واذا خلوْا الى شياطينهم قالوا إنّا معكم انما نحنُ مُستهزِؤن أللهُ يَستهزِئُ بهم » فهذا اخبار من الله تعالى وفى الحقيقة جواب سؤالٍ مقدر لانه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم قالوا كيت وكيت تشوّف السامعون الى العلم بمصير أمرهم فكأنه قيل فماذا فعل الله بهم فقال « أللهُ يستهزئُ بهم ويَمدُّهمْ فى طُغيانهمْ يَعمهون » .. وأما ما يجب اثبات العاطف فيه فقوله تعالى « يخادِعونَ اللهَ وهو خادِعُهم . ومكَرُوا ومَكرَ الله » فان كل واحدة من الجملتين خبر من الله تعالى . ومثله فى القرآن العظيم كثير . وأما الذى يخير بين اسقاطه واثباته فهو اذا كان اسقاطه لا يخل بالمعنى واثباته لا يفيد معنى زائداً . وسيأتى بيان ذلك ان شاء الله تعالى



﴿ فصل ﴾

يشتمل على ذكر جمل عُطف بعضها على بعض
بالواو . والفاء . وثم . واختلاف معانيها

. فمن ذلك قوله تعالى . هو يُطعمُنى ويَسقين واذا مَرضتُ فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين » عطف أولا بالواو لان الاطعام والاسقاء ليس فيهما ترتيب واجب مع أن تأخير الاسقاء أولى ولذلك أخره فى الذكر وعطف ثانياً بالفاء اذ لامهلة بين المرض والشفاء وعطف بثم لما بين الاماتة والاحياء من المهلة ومع ذلك نسب الموت الى الله لما فى ذلك من اظهار القدرة والقهر ونسب المرض الى نفسه لان الادب أن لاينسب الى الله تعالى الاّ ما يحمد والموت وان كان مذموماً لكنه عند قائل هذا محمود لانه على يقين من السعادة الاخروية . ومن ذلك قوله تعالى « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض الى جذع النخلة » انما عطف بالفاء مع أن بين مجيء المخاض والحمل مهلة لان المهلة التى بين حملها ومخاضها كانت مدة يسيرة قيل كانت يوماً وقيل كانت ثلاث ساعات وعليه أكثر المفسرين حتى يتميز حملها عن سائر النساء ويكون ذلك كرامة لها فعلى هذا يكون المراد بالآية بيان ذلك . . وجميع أفعال المطاوعة اذا كانت على معانيها فانما يعطف عليها بالفاء لا الواو وتقول دعوته فأجاب وأعطيته فأخذ ولا يحسن أعطيته وأخذ ولادعوته وأجاب قال الله تعالى حكاية عن ابليس « وما كان لى عليكم من سُلطان الاّ أن دعوتكم فاستجبتم لى » وكذلك تقول كسرته فانكسر ولا تقول كسرته وانكسر . وأما اذا كان فعل المطاوعة على غير معناه فقد يحسن العطف عليه بالواو كما فى قوله تعالى « ولا تطع من أغفلنا قلبهُ عن ذكرنا واتبعَ هواهُ » . ومن المعطوف بالواو أيضاً قوله تعالى « وإنّا أو اياكم لعلى هُدى أو فى ضلال مُبين » ولو قال لفى هدى أو على ضلال لم يحسن لان على تفيد الاستعلاء وهو مناسب للحق وفى تفيد الوعاء والكافر كأنه مغموس فى الضلال . . ومن هذا النوع قوله تعالى « انما الصدقاتُ للفقراء

والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » ما عدل عن اللام فى الاصناف الاخيرة الا لبيان ان تلك الاصناف أحق بالصدقات ينبغى أن توضع فيهم وضع الشئ فى الوعاء وكرر فى لبيان أن سبيل الله أولى بذلك فتأمله فهو كثير فى القرآن

﴿ القسم الثامن والخمسون ﴾

(فى الوصف)

والوصف أصله الكشف والاظهار من قولهم — وصف الثوب الجسم — اذا لم يستره ونم عليه . . وأحسنه ما يكاد يمثل الموصوف عياناً ولاجل ذلك قال بعضهم أحسن الوصف ما قلب السمع بصراً . . ومنه فى القرآن العظيم كثير مثل قوله تعالى فى وصف البقرة التى أمر بنو اسرائيل بذبحها لما سألوا أن توصف لهم بقولهم « أدعُ لنا ربَّك يُبين لنا ما هى قال انه يقول انها بقرةٌ لافارضٌ ولا بكرٌ عوانٌ بين ذلك » وقوله لما سألوه أن يصف لهم لونها « قال انه يقول انها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين » وقوله لما سألوه بيان فعلها قال انه « يقول انها بَقرةٌ لاذلول تثير الارض ولاتسقى الحرث مسلمة لا شِيةَ فيها » فجمع فى هذه الآية جميع الاحوال التى يُضبط بها وصف الحيوان فان الحيوان عند البيع والاجارة وسائر وجوه التمليكات يحتاج فيه الى معرفة سنه ولونه وعمله ثم يفتقر فيه الى معرفة عيوبه فنفى الله سبحانه وتعالى عن تلك البقرة كل عيب بقوله — لاشية فيها — فجمع فى هذه الآية جميع وجوه الوصف فانه فى الاول وصف سنها وفى الثانى وصف لونها وفى الثالث وصف خلقها وعملها . . ومن ذلك قوله تعالى « مَثلُ الجنةِ التى وُعدَ المتقونَ » أى صفة الجنة التى وُعدَ المتقون كيت وكيت . ومنه قوله تعالى « مثلُ ما ينفقونَ فى هذه الحياة الدنيا » . وقوله تعالى « الذين ينفقون » الآية . وقوله تعالى « مثلِ الحياة الدنيا » الآية . . ومن هذا الباب فى القرآن كثير لايحصى وكذلك

في السنة النبوية وكذلك في الشعر .. ومن بديع ما ورد في الشعر قول أبي تمام في وصف سحابة

ديمة سمحة القياد سكوب ... مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لاعظام أخرى ... لسعى نحوها المكان الجديب

.. والوصف قريب من التشبيه الا أن الفرق بينهما أن التشبيه مجاز والوصف راجع الى حقيقته وذاته . وفي القرآن العظيم والكلام الفصيح منه كثير

القسم التاسع والخمسون

(تنسيق الصفات بغير حرف نسق)

وهو أن تصف الشيء بصفات عديدة متوالية . اما لتعظيمه . واما لتحقيره . واما لبيان خصوصية فيه . ومنه في الكتاب العزيز كثير .. أما في التعظيم فمثل قوله تعالى « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » الى آخر السورة . وأما في التحقير فكقوله تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين هاز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم » .. وما لبيان الخصوصية واظهار الكرامة فكقوله تعالى « عسى ربه إن طلقكن ان يبدله أزواجاً » الآية . ومنه في السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم - ألا أخبركم بأحبكم الي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون - ومن الذم - ألا أخبركم بأبغضكم الي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة أساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون - .. ومن هذا النوع في الشعر كثير . من ذلك قول العباس يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للارامل

.. وقول حسان

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الانوف من الطراز الاول

القسم الستون

(حسن النسق)

وهو أن تأتي بكلمات من النثر أو النظم متتاليات ومتعاقبات منسوقة بعضها على بعض بحرف العطف كل كلمة اذا أفردت كانت تقوم بمعنى مفرد مستقل وكل بيت اذا جرد من تلوه استقل معناه ولم يفتقر الى غيره وان ضم اليه تلوه صارا كأنهما بيتاً واحداً .. ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين » فأنت ترى هذه الجمل معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لانه سبحانه بدأ بالاهم اذ كان المراد اطلاق أهل السفينة من سجنها ولا يتهيأ ذلك الا بانكشاف الماء عن الارض فلذلك بدأ بالارض فأمرها بالاقلاع ثم علم سبحانه أن الارض اذا ابتلعت ما عليها ولم تنقطع مادة السماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها وربما ينزل من السماء أكثر مما تبتلع الارض فأمرها بالاقلاع بعد أن أمر الارض بالابتلاع ثم أخبر بغيض الماء عند ما ذهب ما على الارض وانقطعت مادة السماء وذلك يقتضي أن تكون ثالثة الجملتين المتقدمتين ثم قال تعالى - وقضي الامر - أي هلك من قدر هلاكه ونجي من قضيت نجاته وهذا كنه الآية وحقيقة المعجزة ولا بد أن تكون معلومة لاهل السفينة ولا يمكن علمهم بها الا بعد خروجهم منها وخروجهم موقوف على ما تقدم ولذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل وكذلك استواء السفينة على الجودي أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقراراً لا حركة معه لتبقى آثارها عبرة لمن يأتي بعد أهلها وذلك يقتضي أن تكون بعد ما ذكرنا . وقوله سبحانه وتعالى - وقيل بعداً للقوم الظالمين - وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق فدعا الله سبحانه وتعالى على الهالكين وسماهم ووصفهم بالظلم احتراساً من هذا الاحتمال وذلك يقتضي أن يكون بعد كل ما تقدم والله أعلم . فانظر

الى حسن هذا النسق كيف وقع القول فيه وفق الفعل سواء .. وقد حكى ان ابن المقفع العبدى عارض آى القرآن فلما بلغ الى هذه الآية أمسك عن المعارضة وقال هذه الفصاحة التى لا تبارَى والبلاغة التى لا يسابق المتكلم بها ولا يجارى والقول الفصل الذى لا يختلف فيه ولا يتمارَى . وهذا فى الشعر كثير .. ومن أحسنه قول ابن شرف القيروانى

جاوِرْ علياً ولا تحفلْ بحادثةٍ ... اذا ادَّرعتَ فلا تسأل عن الاسلِ
سَلْ عنه وانطقْ بهِ وانظرْ اليه تجدْ ... ملْءَ المسامعِ والافواهِ والمقلِ

القسم الحادى والستون

(المدح والذم)

وفى كتاب الله تعالى منه كثير . المدح للمؤمنين . والذم للكافرين ومدحه هو المدح على الحقيقة . وذمه هو الذم على الحقيقة .. وقد مدح الله تعالى نفسه بقوله « اللهُ لا إلهَ إلا هو الحيُّ القيومُ » . وقوله تعالى « قلْ هو اللهُ أحدٌ اللهُ الصمدُ لم يلد ولم يُولَدْ ولم يكن لهُ كفواً أحدٌ » حتى قال بعض العلماء لكل أحد نسبة ونسبة الله تعالى — قل هو الله أحد — ومدح الله عز وجل نبيه بآيات كثيرة كقوله تعالى « إنَّا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى اللهِ باذنهِ وسِراجاً منيراً » ومدح نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى آيات كثيرة . منها قوله تعالى « محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشدَّاء على الكفار رُحماءُ بينهم تراهُمْ رُكَّعاً سُجدًا » ومدح المؤمنين بقوله تعالى « التائبونَ العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله » . وذم سبحانه وتعالى الكافرين بآيات كثيرة . منها قوله تعالى « انَّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختمَ الله » الآية . وذم المنافقين بقوله « ومنَ الناسِ منْ يَقولُ آمنا بالله

وباليومِ الآخرِ وما هُمْ بمؤمنين يُخادعونَ اللهَ والذين آمنوا وما يخادعونَ الا أنفسَهم وما يشعرُونَ فى قلوبهم مَرَضٌ فزادَهمُ اللهُ مَرَضاً ولهمْ عذابٌ أليمٌ » .. وأما مدح الناس بعضهم بعضاً فينبغى لمن أراد أن يمدح أحداً أن يمدحه بألفاظ حسنة مستعذبة واضحة المعنى رائقة اللفظ غير حوشية ولا قلقة وأن تكون القصيدة أو الرسالة حسنة المطلع بديعة التخلص عذبة المقطع وأن يكثر فى وصف الممدوح ونشر مآثره وتعديد مكارمه ونحو ذلك ويكثر من ذكر النوع الذى يميل اليه من المكارم ويحب أن يوصف به من المآثر ونحو ذلك .. وقد قال قدامة الأوصاف التى يمدح بها أربعة . الاول العقل ويدخل فيه الحياء والثبات والسياسة والكفاءة وثقافة الرأى والصدع بالحجة والحلم عن سفاهة السفهاء وأمثال ذلك . الثانى الشجاعة ويدخل فيها المهابة والحماية والدفاع والاخذ بالثأر والنكاية فى العدوّ وقتل الاقران والسير فى المهامه وأشباه ذلك . الثالث العفة ويدخل فيها القناعة وقلة الشره وطهارة الإزار ونحو ذلك . الرابع العدل ويدخل فيه السماحة والأطلاق والتبرُّع بالنائل واجابة السائل وقراء الضيف . ويحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر على الملمات والوفاء بالوعد . ومع العفة ترك الشره والرغبة عن المسألة والاقتصار على أدنى معيشة . ومع العدل البر وانجاز الوعد . ويحدث من تركيب الشجاعة مع العفة انكار الفواحش والغيرة على الحريم . ومع العدل الائتلاف وترك الخلاف . ويحدث من تركيب العفة مع العدل الاسعاف بالقوة والايثار على النفس ونحو ذلك .. واستوعب زهير الاقسام الاربعة فقال

أخى ثقةٍ لا تُهلكُ الخمرُ مالهُ ... ولكنهُ قد يُهلكُ المالَ نائله

وصفه بالعفة لقلة امعانه فى اللذات وبالسخاء ووصفه بالشجاعة والعقل فقال

ومَن مثلُ حصنٍ فى الحروبِ ومثله ... لإذهاب ضيمٍ أو لخصمٍ يجادله

وأما قوله — أخى ثقة — فهو وصف بالوفاء وهو داخل فيما ذكرنا .. وفى الذم يأتى بأضداد ما تقدم . وقيل أحسن الهجاء ما لا تستحى العذراء من انشاده . وقيل فى الذم أن تأتى بالالفاظ المنكية والمعانى المشجية والمقاصد المؤلمة المبكية ويتوخى أقبح معائب المهجوّ وأعظم وجوه الازدراء به ولهذا المعنى حرّمه الله ورسوله وعم بالذم

والانكار كل من يحفظه أو يقوله

﴿ القسم الثانى والستون ﴾

(الحمد والشكر)

وقد اختلف العلماء فيهما فقال قوم وهم الجمهور الحمد هو ذكر ما فى الانسان من المآثر الحسنة والصفات المستحسنة والشكر ثناء يقصد به مجازاة المنعم •• وقال بعض أهل العلم ان الحمد وصف الخلال كقول الخنساء أخت صخر

وما بلغت كفُّ امرئٍ متناوَلا ... من المجدِ الاّ والذى نلتَ أطولُ
وما بلغ المهدون للناس مِدْحةً ... وان أطنبوا الاّ التى فيكَ أفضلُ

والشكر وصف الافعال كقول الشاعر

وانكمُ بقيةُ حىّ قيس ... وهضبتُهُ التى فوقَ النصابِ
تبارونَ الرياح اذا تبارت ... وتمتنون أفعالَ السحابِ
يذكرنى مقامى فى ذراكم ... مقامى أمس فى ظلّ الشباب

•• وقيل ان الحمد والشكر سواء • وقال أهل اللغة ـ حمدتُ الرجلَ ـ اذا شكرتَ له صنيعه ـ وأحمدته ـ اذا وجدته محموداً •• وقال ابن الانبارى ـ حمد ـ مقلوب مدح وقد قيل كيف يكون الحمد والشكر سواء والحمد نقيضه الذم والشكر نقيضه الكفران والذى أختاره أن الحمد أعمُّ من الشكر وانه قد يحمد الشخص على ما فيه من الاخلاق الجليلة والصفات الجميلة ويحمد على حسن خلقه من الصباحة والجمال والكمال ويحمد على ما فيه من الفصاحة والبلاغة والنجابة ويحمد على كثرة انعامه واحسانه والشكر انما يكون للمنعم عليك فقط فاذا حمدت أحداً ان نويت بالحمد الشكر له على ما اسدى اليك من الانعام والاحسان كان هذا الحمد هو الشكر لانه مجازاة لصنيع ومكافأة لاحسانٍ فقد اتيتَ بأعلى درجات الشكر هو الذى أشار اليه رسول الله صلى الله عليه

وسلم بقوله الحمد رأس الشكر وهو الذى يجوز اطلاقه على الشكر واطلاق الشكر عليه وان أردت بالحمد الثناء على صفاته الجميلة الكاملة التى خلقه الله عليها فهذا أخو المدح وهو اعلاه ويجوز اطلاقه على المدح واطلاق المدح عليه وان أردت بالمدح وصفه بكمال الجمال والجلال وحسن الشيم والخلال والثناء عليه بما أسدى اليك والى غيرك من الانعام والافضال فهذا هو الحمد الكامل ولا يجوز أن يطلق عليه الشكر والمدح فهذا هو الحق •• وقد تكلم المفسرون فى الحمد والشكر والفرق والجمع بينهما وبين المدح ومن علم ما ذكرته هنا سهل عليه الاختلاف والائتلاف والله الموفق للصواب لا رب غيره

﴿ القسم الثالث والستون ﴾

(تأكيد المدح بما يشبه الذم)

وهو كقولهم بحار العلم إلا أنهم جبال الحلم •• ومنه قول بديع الزمان

هو البدرُ إلا أنه البحرُ زاخراً ... سِوَى أنهُ الضرغامُ لكنهُ الوَبلُ

وهذا من نوع الغلوّ والإغراق وسيأتى بيانه عقب هذا القسم ان شاء الله تعالى • وهذا النوع فى القرآن كثير

﴿ القسم الرابع والستون ﴾

(المبالغة) وتسمى الافراط والغلوّ والايغال •

ومعنى هذه الاسماء متقاربة وبعضها أرفع من بعض

قال علماء علم البيان المبالغة الزيادة على التمام وسميت مبالغة لبلوغها الى زيادة على المعنى لو أزيلت تلك الزيادة وأسقطت كان المعنى تاماً دونها لكن الغرض بها تأكيد ذلك المعنى فى النفس وتقريره • وفى القرآن العظيم والكلام الفصيح والاشعار منه كثير ••

أما الكتاب العزيز فقوله تعالى « اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم واذ زاغت الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون باللهِ الظنونا » • ومنه قوله تعالى « وقد مكَرُوا مكرَهم وعندَ الله مكرُهم وإنْ كانَ مكرُهُمْ لتزول منه الجبالُ » وقد قيل ان هذه الآية ليست من باب المبالغة بل حكاية عما وقع • ومنه قوله تعالى « تكادُ السموات يتفطَّرْنَ منهُ وتنشقُّ الارضُ وتخرُّ الجبالُ هَدًّا » • وقوله تعالى « ولوأنَّ قرآناً سُيِّرَت بهِ الجبالُ أو قطِّعَتْ به الارضُ أو كلّمَ به الموتى » الآية •• وأما الكلام الفصيح فقد رُوِي عن العرب أنهم قالوا فلان يهُدّ الجبال ويصرع الطير ويفزع الجن ويزوى الماء •• وقال بعض العرب فى فرسه ـ يحضر ماوجد أرضاً وإن الوابل ليصيب عجزه ولا يبلغ معرفته حتى أنال حاجتى ـ • وذم اعرابى رجلا فقال ـ يكاد يعدى لؤمه من تسمى باسمه ـ • وقالت سكينة ـ ما لبستْ بنتى الدرَّ الاَّ لتفضحه ـ ومنه فى الشعر كثير •• فمن ذلك

أضاءتْ لهم أحسابُهُمْ ووُجوهُهُمْ   دُجى الليلِ حتى نظّمَ الجزْعَ ثاقبه

•• وقال المتنبى

لقيتُ الرَّوابى والشناخيبَ دُونَهُ   وجبتُ هجيراً يترُكُ الماء صاديا

•• وقال آخر

لو كان يَقعُدُ فوقَ النجمِ من كَرَمٍ   قومٌ لقيلَ اقعُدُوا يا آلَ عباسِ

•• وقال آخر

فكنتُ اذا ما جئتُ ليلى بأرضها   أرى الارضَ تُطوى لى ويَدنو بعيدُها
من الخفِراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها   اذا ما مضتْ أُحدُوثةٌ لو تُعيدُها
وكيف يودُّ القلبُ مَن لا يَوَدُّهُ   بلى قد تُريدُ النفسُ من لا يُريدُها

•• وقال آخر

وحديثها السحرُ الحلالُ لوَ انهُ   لم يجنِ قتلَ المسلمِ المتحرّزِ
إنْ طالَ لم يُملَلْ وانْ هى أوجزتْ   وَدَّ المحدَّثُ أنها لم توجزِ

شركُ النفوسِ ونزهةٌ مامثلها   للمطمئنّ وعُقلةُ المستوفزِ

والاشعار فى هذا الباب كثيرة لا تحصى

— القسم الخامس والستون —

(الرثاء والتعزية)

فأما الرثاء فهو مدح الميت بما كان فيه من المناقب المذكورة والمحاسن المأثورة • ومنه قوله تعالى فى حق ابراهيم عليه الصلاة والسلام « وتركنا عليه فى الآخرين سلامٌ على ابراهيمَ كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين » • وقوله تعالى « إنَّ ابراهيمَ كان أُمَّةً قانتاً للهِ حنيفاً ولم يكُ من المشركين » • وقوله تعالى فى حق نوح عليه الصلاة والسلام « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين إنه من عبادنا المؤمنين » •• وأما التعزية فهو أن يذكر ما يُتوصل به الى تسلية مخلفى الميت وتصبيرهم واطفاء نار ثكلهم • وفى القرآن من ذلك كثير وهى كثيرة فى أشعار المتقدمين والمتأخرين •• أما القرآن فقوله تعالى « لقد كان لكم فى رسولِ اللهِ اسوةٌ حسنةٌ » • وقوله تعالى « وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبلهِ الرُّسُلُ » • وقوله تعالى « وكأيِّن من نبيٍّ قُتِلَ معهُ ربِّيُّونَ كثير فما وَهَنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا » • وقوله تعالى « كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت وانما توفَّونَ أجورَكم يومَ القيامةِ » • وقوله تعالى « أينما تكونوا يُدرِككُمُ الموتُ ولو كنتم فى بُروجٍ مُشيَّدَةٍ » • وقوله تعالى « والصابرين فى البأساء والضرَّاء وحين البأس » • وقوله تعالى « والذين اذا أصابتهمْ مُصيبةٌ قالوا إنّا للهِ وإنا اليهِ راجعون أولئكَ عليهمْ صلوات من ربهمْ ورحمةٌ وأولئك هُمُ المهتَدُون » • وقوله تعالى « ولئن صَبرتُمْ لهوَ خير للصابرين » وأما الاشعار فقد ورد منها فى هذا كثير لا يحصى •• فمن أحسن ذلك قول بعضهم

مضى ابن سَعيدٍ حيثُ لم يَبقَ مَشرقٌ ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفِّه على الناسِ حتى غيَّبتهُ الصفائحُ
وأصبحَ في لحدٍ من الارض مُفرَداً وكانت به حيّاً تضيقُ الصحاصحُ
لئن عظمتْ فيهِ المراثي وحسنُها لقد عظُمتْ من قبلُ فيه المدائحُ

.. ومن بديع التعزية قول بعضهم

أيتها النفسُ أجملي جَزَعا إنّ الذي تحذرين قد وَقَعا

.. وقول بعضهم

قِسمةُ الموتِ قِسمةٌ لا تجورُ كلُّ حيٍّ بكاسِها مخمورُ

.. وقول الخنساء

يُذَكِّرُني طُلوعُ الشمسِ صخراً وأندُبُهُ لكلِّ غُروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكينَ حولي على إخوانِهم لقتلتُ نفسي
وما يَبكونَ مثلَ أخي ولكنْ أُسلّي النفسَ عنهُ بالتأسّي

القسم السادس والستون

(فى الشكاية)

وهى فى القرآن على قسمين . ملفوظ بها . وغير ملفوظ بها .. أما الملفوظ بها ففى قوله تعالى « انما أشكو بثى وحزنى الى الله » .. ومن الشعر قول بعضهم

الى اللهِ أشكو لا الى الناسِ أننى أرى الارضَ تُطوى والاخلاء تذهبُ

.. وقال آخر

ولا خير فى شكوى الى غير مُشتكى ولا بُدّ من شكوى اذا لم يكن صبرُ

.. وأما غير الملفوظ بها فى القرآن منه كثير . من ذلك قوله تعالى « قال ربّ إنّ القومَ استضعفونى وكادوا يقتلوننى » . وقوله تعالى حكاية عن نوح عليه الصلاة

والسلام « قال ربّ إنى دعوتُ قومى ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائى الا فراراً » الى قوله « وأسررتُ لهم إسراراً » . وقوله تعالى « وأفوّضُ أمرى الى الله إنّ الله بصيرٌ بالعباد » ومثله فى القرآن كثير وفى الشعر كثير .. فمن بديعه قول الشاعر

يا الهى قد أثقلتنى الذنوبُ فاعفُ عنى فالعفوُ منك قريبُ
وتجاوزْ عن مُذنبٍ بخطايا ه عن الخير قلبهُ محجوبُ
كل يوم يمضى عليه ويدرى انه من حياته محسوب
وهو فى غفلة بعيدٌ من الخـ ـير قريبٌ منه الخطا والذنوب

..ومن بديعه أيضاً قول بعضهم

يامن يُناجى بالضمير فيسمعُ أنتَ المعدّ لكلّ ما يُتوقع
يامن يُناجى للشدائد كلها يامن اليه المشتكى والمفزعُ
يامن خزائنُ جوده فى قول كن امنن فان ألفضل عندك أجمعُ
مالى سوى قرعى لبابك حيلةٌ فاذا رددت فأىّ باب أقرعُ
ومن الذى أدعو واهتف باسمه ان كان برُّك عن فقيرك يمنع
حاشى لجودك أن يقنط راجياً الفضلُ أجزلُ والمواهبُ أوسع

.. وفى هذا الباب أشعار كثيرة لا تحصى

القسم السابع والستون

(الحكاية)

وهو ان يحكى كلام المتكلم اما بلفظه أو بمعناه والقرآن العظيم مشحون بذلك . وهو على قسمين . ظاهر . ومقدر .. أما الظاهر فكما حكاه الله سبحانه وتعالى من قول الملائكة « قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدماء ونحنُ نسبحُ بحمدك ونقدسُ لك » . ومنه قوله تعالى » وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت

النصارى » وكذلك كل ماحكاه الله تعالى من أقوال القرون الخالية والامم الماضية . وأما المقدر فكقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » التقدير يقولون — ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك — دليل ذلك انه رد عليهم بقوله « قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » ومثله فى القرآن العظيم كثير

﴿ القسم الثامن والستون ﴾

(الاقتضاء)

وهو طلب الموعود بالوعد السالف . وهو على ضربين . حسن . وخشن . فالحسن مرغوب فيه لانه يحصل المقصود وينجز الموعود .. وأما المذموم فهو سبب الحرمان وحسم لمادة الاحسان . وقد وقع منه فى الكتاب العزيز القسمان .. أما الحسن فمثل قوله تعالى « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » . وقوله تعالى « قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » . وقوله تبارك وتعالى « ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » استنجزوا وعده الكريم وهو قوله تعالى « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .. وأما الخشن فورد منه فى القرآن كثير أيضاً فمنه قوله تعالى « واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » الآية . وقوله تعالى « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » . وقوله تبارك وتعالى « فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » . وفى الشعر منه كثير

﴿ القسم التاسع والستون ﴾

(التذكير)

وهو التنبيه لمن غفل أو سهى عن شكر نعمة أسديت اليه ومنن أزلفت لديه نسيها أو تناساها لتقوم عليه حجة المنعم وليوقظ من نوم غفلته فى ليل نسيانه أو تناسيه المظلم . وفى الكتاب العزيز منه كثير من ذلك قوله تعالى « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » . وقوله تعالى « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين » . وقوله تعالى « فقولا له لينا لعله يتذكر أو يخشى » ومعناه لعله يتذكر سترنا له وانعامنا عليه فى أمر النيل اذ تضرع الينا فأجرينا له النيل لما التمس قومه منه اجراء النيل أو يخشى انتقامنا منه فى الدنيا بالغرق وفى الآخرة بالنار والحرق .. والفرق بين الاقتضاء والتذكير أن التقاضى لاستبعاد حصول المطلوب لطول مدة انتظار المرغوب . والتذكار انما يكون عن غفلة أو نسيان كقول بعضهم

جئتك للاذكار مستحرضاً ... لا للتقاضيك وحوشيتا
ولست بالمهمل لكنما ... لكثرة الاشغال أنسيتا

﴿ القسم الموفى السبعين ﴾

(الوعد والوعيد)

.. أما الوعد فهو اطماع باحسان فى المستقبل وهو على قسمين متحقق الوقوع وهو وعد الله سبحانه وتعالى لقوله تعالى « وعد الله لا يخلف الله وعده » . وقوله تعالى « ان الله لا يخلف الميعاد » ووعد مرجو وقوعه وهو وعد العباد . والوعد يكون

في الخير والشر لكن استعماله في الخير أكثر قال الله تعالى « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتياً » . وقال تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » . وفي هذه الآية شاهد للمعنيين . وقد ورد في القرآن العظيم وفي الشعر منه كثير . أما القرآن فمنه ما قدمنا . ومنه قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » . وقوله تعالى « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » . وقوله تعالى « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك » .. وأما الوعيد فهو تخويف بسوء المجازاة في المستقبل تحذيراً من الوقوع في المخالفات . وفي القرآن العظيم منه كثير . فمن ذلك قوله تعالى « آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا » . وقوله تعالى « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما » . وقوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » . وقوله تعالى « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور » الى قوله « وما للظالمين من نصير »

القسم الحادي والسبعون

(العتاب والانذار)

وهو دليل بقاء المودة ودوام عقد الالفة والصحبة . والغرض به ازالة ما في النفوس من الوحشة لأن بجريانه يظهر ما في القلوب من آثار الجناية ويبدو ما في البواطن من تأكيد أسباب العناية اذ لولا بقاء المودة الخفية لحصلت القطيعة بالكلية ولم يحتج الى عتاب ولم يرغب في الاعتاب ولهذا قيل

* ويبقى الود ما بقي العتاب *

ومنه في القرآن العظيم كثير .. فمن ذلك قوله عز وجل « عفا الله عنك لم أذنت لهم » . وقوله تعالى « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » . وقوله تعالى « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » . وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة » الى قوله « والله عليم حكيم » .. وفي القرآن من جميل العتاب شيء كثير .. وأما الانذار ففي القرآن منه كثير لا يحصى . فمنه قوله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . ومنه قوله تعالى « وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر » الآية . وقوله تعالى « وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون »

القسم الثاني والسبعون

(الاعتاب)

وهو رجوع الانسان عما عتبت عليه بسببه يقال عتبته فاستعتب أي أرجعته فارتجع . ومنه قوله تعالى « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم بمعتبين » . وفي الحديث – اما محسناً فيزداد واما مسيئاً فيستعتب .. ومنه قول الشاعر

عتبت عليه فما أعتبا   وعنه اعتذرت وقد أذنبا

القسم الثالث والسبعون

(الاعتذار)

وهو التوسل الى محو الذنب وازالة أثر الجرم مأخوذ من قولهم اعتذرت المنازل اذا درست .. ومنه قوله تعالى « يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا » الآية . وقوله تعالى « واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم

عذاباً شديداً قالوا مَعذرة الى ربكم ولعلهم يَتقون » . وقوله تعالى « تبرأنا اليك ما كانوا إيّانا يَعبدون »

القسم الرابع والسبعون

(تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل)

يُفعل ذلك لضرب من المبالغة . وفي القرآن العظيم منه كثير .. فن بديع ماجاء منه قوله تعالى « قالوا يا موسى إمّا أنْ تُلقيَ وإمّا أنْ نكونَ نحنُ الملقين » قولهم – يا موسى إما أن تلقي – تخيير منهم له وحسن أدب راعوه معه كما يفعل أرباب الصناعات اذا تلاقوا في تقديم بعضهم على بعض كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال وانما قالوا – وإما أن نكون نحن الملقين – ولم يقولوا وإما أن نلقي كما قالوا – يا موسى إما أن تلقي – لرغبتهم في أن يلقوا قبله وتشوفهم الى التقدم عليه وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل .. ومما يجري على هذا المنهاج قوله عز وجل « فأوجسَ في نفسه خيفةً موسى قلنا لا تخفْ إنكَ أنتَ الأعلى » فتوكيد الضمير هاهنا في قوله – لا تخف انك أنت الأعلى – نفي الخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه الغلبة والقهر ولو قال لا تخف انك الأعلى أو – وأنت الاعلى – لم يكن في التأكيد لنفي الخوف من قلب موسى كما له من القوة في تقرير الغلبة ونفي الخوف بقوله – انك أنت الاعلى – وذلك لأن في هذه الثلاث كلمات وهي قوله تعالى – انك أنت الاعلى – ست فوائد . الاولى إنّ المشددة التي من شأنها التأكيد لما يأتي بعدها كقولك زيد قائم ثم تقول إنّ زيداً قائم ففي قولك ان زيداً قائم من الاثبات لقيام زيد والتقرير له ما ليس في قولك زيد قائم . الثانية تكرير الضمير في قوله تعالى – انكَ أنت – ولو قال فأنت الاعلى لما كان بهذه المثابة من التقرير لغلبة موسى والاثبات لقهره . الثالثة لام التعريف في قوله – الاعلى – فلو قال انك أنت أعلى فنكره وكان صالحاً لكل واحد من جنسه كقولك

رجلٌ فانه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال واذا قلت الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علماً فيهم . وكذلك قوله – انك أنت الاعلى – أي أنت الاعلى دون غيرك . الرابعة لفظ أفعل الذي هو من شأنه التفضيل ولم يقل العالي . الخامسة اثبات الغلبة من عالٍ . السادسة الاستئناف في قوله – انك أنت الاعلى – ولم يقل لانك أنت الاعلى لانه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه لانه عالٍ وانما نفي الخوف عنه أولا بقوله – لا تخف – ثم استأنف الكلام بقوله – انك أنت الاعلى – فكان ذلك أبلغ في تقرير الغلبة لموسى عليه الصلاة والسلام واثبات ذلك في قلبه ونفسه . فهذه ست فوائد في هذه الكلمات الثلاث فانظر أيها المتأمل الى هذه البلاغة العجيبة التي تحيّر العقول وتذهب الالباب ومعجز هذا الكلام العزيز الذي أعجز البلغاء وأفحم الفصحاء ورجّل فرسان الكلام (فان قيل) لو كان توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ من الاقتصار على أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه في كتابه حيث هو أحق بما هو أبلغ من الكلام وقد رأينا في الكتاب العزيز مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر كقوله تعالى « قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ مَن تشاء وتنزعُ الملكَ ممن تشاء وتعزّ مَن تشاء وتذلّ من تشاء بيدِكَ الخيرُ انك على كلِّ شيءٍ قديرٌ » فما الموجب لذلك ان كان تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ في بابه من الاقتصار على أحدهما دون الآخر فقد كان يجب عند ذكر الله تعالى نفسه لانه أحق بالأبلغ من العلاء وان كان الامر بخلاف ذلك فكيف قلنا ان توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ (الجواب) عن ذلك انا نقول توكيد المتصل بالمنفصل انما يرد في الكلام لتقرير المعنى واثباته في الذهن وما يختص بالله تعالى لا يفتقر الى تقرير ولا اثبات لانه اذا قيل عنه انه على كل شيء قدير لم يحتج في ذلك الى توكيد حتى يتحقق ويتبين أنه على كل شيء قدير بل علم وعرف أنه على كل شيء قدير وأن قدرته جارية على كل مخلوق فصار هذا من الأمر المعروف الذي لا يعتريه شك ولا يعترضه ريب وما هذا سبيله في الوضوح والبيان فلا حاجة فيه الى التوكيد اذ كان التوكيد من شأنه التقرير للمعنى المراد اثباته في النفس وكون الله سبحانه على كل شيء قدير ثابت في النفوس فلم يحتج الى تقرير

واثبات ﴿ فان قيل ﴾ فقد ورد فى القرآن العزيز عند ذكر الله تعالى نفسه التأكيد بالضمير المنفصل للضمير المتصل كقوله تعالى « واذ قال اللهُ يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذونى وأمىَ إلهينِ من دونِ اللهِ » الى قوله «انكَ أنتَ علامُ الغيوب » كما انك على كل شئ قدير . فما السبب فى هذا وهلا كان الجميع شرعا واحداً ﴿ فالجواب على ذلك ﴾ انا نقول توكيد الضميرين أحدهما بالآخر فى هذه الآية لاينقض علينا ما أشرنا اليه أولا لانه ان وقع الاقتصار على أحدهما دون الآخر فان القول فى ذلك ماتقدم فى الآية الأولى وان جيء بهما معاً فان ذلك أبلغ فى بابه وآكد والله تعالى أحق بما هو أبلغ من الكلام وآكد . ولنمثل لك فى استعمال الضميرين معاً والاقتصار على أحدهما دون الآخر مثالا تتبعه فنقول اذا كان المعنى المقصود أمراً معلوماً قد ثبت فى النفس ورسخ فى الالباب فأنت بالخيار بين أن توكد أحد الضميرين بالآخر فى الدلالة عليه وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر لانك ان وكدت الكلام فيه أعطيت المعنى حقه وان لم توكد فانه لايحتاج الى تأكيد لبيانه وظهوره فان كان المعنى المقصود خفياً ليس بظاهر ولا معلوم فالاولى توكيد أحد الضميرين بالآخر لتقرره وتكسبه وضوحاً وبياناً . ألا ترى الى قوله لموسى عليه السلام ـ قلنا لاتخف انك أنت الاعلى ـ فانه كان ظهور موسى عليه السلام على السحرة وقهره لهم أمراً مستقراً فى ضمن الغيب لا يعلم ولا يعرف وأراد الله عز وجل أن يخبره بذلك ليذهب عنه الخوف والحذر بالأبلغ من الكلام ليكون ذلك أثبت فى نفس موسى وأقوى دليلا عنده فى انتفاء الخوف عنه فوكد الضمير المتصل بالمنفصل فجاء المعنى كما ترى ولو لم يؤكد كان ذلك أيضاً اخباراً لموسى عليه الصلاة والسلام بنفى الخوف عنه واستظهاره على السحرة ولكن ليس له من التقرير فى نفس موسى عليه الصلاة والسلام ما لقوله انك انت الاعلى فاعرف ﴿ وعلى ﴾ نحو من ذلك قوله تعالى ـ قالوا ياموسى اما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ـ فان ارادة الالقاء قبل موسى لم يكن معلوما عنده لانهم لم يصرحوا بما فى أنفسهم من ذلك لكنهم لما عدلوا عن مقالة خطابهم لموسى الى ما هو توكيد ما هو لهم بالضميرين علم أنهم يريدون التقدم عليه والالقاء قبله لان من شأن مقابلة خطابهم لموسى عليه الصلاة والسلام

بمثله أن يقولوا اما أن تلقى واما أن نلقى لتكون الجملتان متقابلتين فحيث قالوا عن أنفسهم ـ واما أن نكون نحن الملقين ـ استدل بذلك على ارادتهم الالقاء قبله فهذه معان لطيفة ورموز غامضة لاينتبه لها الا الفطن اللبيب فاعرفها

القسم الخامس والسبعون

الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية
المؤكدة بإنّ المشددة وتفضيل احداهما على الاخرى

وذلك كقولنا قام زيد وان زيداً قائم فقولنا قام زيد معناه الاخبار عن زيد بالقيام وقولنا ان زيداً قائم اخبار عن زيد بالقيام أيضاً الا أن فى الثانية زيادة ليست فى الاولى وهى توكيده بان المشددة التى من شأنها الاثبات لما يأتى بعدها من الكلام .. ومن هذا النحو قوله تعالى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم انما نحن مستهزؤن » فانهم انما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بان المشددة فقالوا فى خطاب المؤمنين ـ آمنا ـ ولاخوانهم ـ إنا معكم ـ لانهم فى مخاطبة اخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وكان ذلك متقبلا منهم ورائجاً عند اخوانهم وما قالوه للمؤمنين فانما قالوه تكلفاً واظهاراً للايمان خزياً ومداجاة وكانوا يعلمون أنهم او قالوا بأوكد لفظ وأشده لما راج لهم عندهم الا رواجاً ظاهراً لاباطناً ولانهم ليس لهم من عقائدهم باعث قوى على النطق فى خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به اخوانهم من العبارة المؤكدة فلذلك قالوا فى خطاب المؤمنين بخلاف ما قالوه فى خطاب اخوانهم وصرحوا فى كلامهم لاخوانهم أن ما خاطبوا به المؤمنين انما هو هزء فقالوا « انما نحن مستهزؤن » .. وهذه نكت دقيقة ولطائف خفية لا توجد فى نوع من الكلام العربى الا فى القرآن الكريم وما أكثر ذلك وأمثاله فى آياته وأوفره مودعاً فى غضونه فاعرفه وقس عليه ترشد

القسم السادس والسبعون

(فى لام التأكيد)

اعلم وفقنا الله وإياك أن علماء علم البيان وعلماء العربية اتفقوا على أن هذه اللام تدخل فى الكلام لنوع من المبالغة وذلك أنهم اذا عبروا عن أمر يعز وجوده أو يعظم أمر احداثه ووقوعه جىء بها محققة لذلك وشاهده .. فمن ذلك قوله تعالى « أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً » .. وقوله تعالى « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون » ألا ترى كيف دخلت اللام فى آية المطعوم دون آية المشروب وانما جاءت كذلك لان جعل الماء العذب ملحاً ليس بعظيم ولأن كثيراً ما اذا جرت المياه العذبة على الاراضى المتغيرة التربة احالتها الى الملوحة والمرارة فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً الى زيادة تأكيد فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق وأما المطعوم فان جعله صعب فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة فى تحقيق أمره وتقرير ايجاده .. وكونه هكذا يفعل بكل كلام فيه نوع خصوصية

القسم السابع والسبعون

(فى الاقتصاد والافراط والتفريط)

قال ابن الاثير رحمه الله الاقتصاد أن يكون المعنى المضمن فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته .. وأما التفريط والافراط فهو أن يكون المعنى المضمن فى العبارة بخلاف ما يقتضيه منزلة المعبر عنه اما لانحطاطه دونها وهو التفريط واما تجاوزاً عنها وهو الافراط لان أصل التفريط فى وضع اللغة من فرط فى الامر اذا قصر فيه وضيعه وأصل الافراط فى وضع اللغة من أفرط فى الامر اذا تجاوز عنه .. والتفريط

عيب فى الكلام فاحش كقول الأعشى

وما مزبد من خليج الفرا ... ت جون غواربه تلتطم
بأجود منه بماعونه ... اذا ما سماؤهم لم تغم

فانه قد مدح ملكا يجود بماعونه — والماعون — هو كل ما يستعمل من قدوم أو فاس أو قصيعة أو قدر وما أشبه ذلك فلا سبيل الى جعله مدحاً البتة بل هو الى الذم أقرب منه الى المدح فهذا من أقبح التفريط فاعرفه . وأما الافراط فهو بمنزلة ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وذلك أن رجلا جاءه فكلمه فقال ما شاء الله وشئت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أجعلتنى لله نداً قل ما شاء الله وحده .. ومن هذا الباب قول عنترة

وأنا المنية فى المواطن كلها ... والطعن منى سابق الآجال

فان الطعن لا يسبق الأجل لأن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر ويروى بالياء باثنتين من تحتها وهو أقرب أمراً من كونه بالباء الموحدة غير أن كليهما افراط .. واعلم أن علماء علم البيان فى استعمال الافراط على ثلاثة أضرب . فمنهم من يكرهه ولا يراه صوابا كأبى عثمان الجاحظ فيما روى عنه ومنهم من يختاره ويؤثره كقدامة بن جعفر الكاتب فانه كان يقول الغلو عندى أجود المذهبين فان أحسن الشعر أكذبه . ومنهم من يذهب الى التوسط بين الغلو والتفريط وهو الاقتصاد وذلك أن يجعل الغلو وهو الافراط مثلا ثم يستثنى فيه بأو أو يكاد أو ما جرى هذا المجرى فيدرك مراده ويسلم من عيب عائب أو طعن طاعن وذلك كقول بعضهم فى مدح الحسين

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

.. وكقول أبى عبادة البحترى

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى اليك المنبر

وهذا المذهب المتوسط أليق المذاهب الثلاثة وأدخلها فى الصنعة فاعرفه (قال المصنف عفا الله عنه) أما الاقتصاد والافراط فقد ورد فى الكتاب العزيز منه شئ كثير وقد تقدم بيانه وأما التفريط فليس فى القرآن منه شئ

القسم الثامن والسبعون

(الغزَلُ)

وهو من محاسن النظم والغزل التصابى والاشتهار بمودة النساء ولهذا قال بعضهم

أيام تدعوننى الشيطانَ من غزَل وكن يهويننى اذ كنتُ شيطاناً

واشتقاقه من الرقة لان المتغزل يرقق ألفاظه حتى يستميل بها القلوب ويعدها للرسائل والوسائل بين المحب والمحبوب • وينبغى أن تكون ألفاظه مُستعذبة ومعانيه مُلهية مُطربة • وينبغى أن يكثر فيه من ذكر الاجرع والحمى • ولعلع • والنقى • وطويلع • وقبا • والعقيق • وحاجر • والمنحنى وما أشبه ذلك من الألفاظ مثل ذكر المنازل التى تترشف ذكرها القلوب وتصبو اليها النفوس من غير أن تراها وكذلك يُكثر فيه من ذكر الحنين والتشويق والتحزين • وقد يحتاج فى بعض المواضع الى ذكر الكرم والشجاعة والفصاحة والبراعة ليميل بذلك قلب المحبوب ويكون مدعاة الى نيل المطلوب ألا ترى الى قول بعض الشعراء

يَوَدُّ بأن يُمسى عليلاً لعلها اذا سمعت منه بشكوى تراسِله

ويهتزُّ للمعروفِ فى طلبِ العُلى لتحمَدَ يوماً عند سلمى شمائله

•• ومثل قول المتنبى

أيقنتُ أن سعيداً آخذٌ بدمى لما بصرتُ به بالرمح مُعتقلا

اراد انها اذا رأته على هذه الصورة المليحة هويته فنالها من هواه كما نال المتنبى من هواها فكأنه أخذ بثاره •• ومنه قوله فى هذه القصيدة أيضاً

علَّ الاميرَ يرى ذلىَّ فيشفعَ لى الى التى جعلتنى فى الهوى مَثلا

يشير الى أنها اذا أحبت الامير عَلمتْ مقدارَ المحبة وعزرت من يحبها كما قيل

انما يَرحم المحبَّ المحبو نَ ويحنو على المشوقِ المشوقُ

والقرآن العظيم من جملة إعجازه كثرة الشجا وترقيقه للقلوب واستمالته للنفوس بحيث أنه

لا يسمعه أحد الاّ ومال اليه قلبه وامتلأت به جوانحه وانطوت على مثل جمر الغضا ضلوعه وجرت على صفحات خده دموعه • وفيه من وصف الجنة ونعيمها ومنازل الزلفى وطيب رسومها ما يشوق القلوب الى لقائها ويسوق النفوس الى الحلول بفنائها مثل قوله تعالى « مَثلُ الجنةِ التى وُعدَ المتقونَ فيها أنهارٌ من ماء غيرِ آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسلٍ مُصفًّى ولهم فيها من كلِّ الثمراتِ ومغفرَةٌ من ربّهمْ » • وقوله تعالى « إنّ المتقين فى جناتٍ ونَهرٍ فى مَقعَدِ صدْقٍ عندَ مَليكٍ مُقتدرٍ » • وقوله تعالى « ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعونَ نُزُلاً من غفورٍ رَحيمٍ » • وقوله تعالى « إنّ الأبرارَ يشرَبون من كأسٍ كانَ مِزاجُها كافوراً » الى آخر السورة • وقوله تعالى « ولمن خافَ مَقامَ ربهِ جنّتان ذَواتا أفنانٍ » الى آخر السورة • وفى القرآن العظيم من هذا النوع كثير

القسم التاسع والسبعون

(فى التشبيب)

وهو اللفظ الدال على محاسن النساء ومحاسن أخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن ويدخل فيه الشوق والتذكر لمعاهد الأحبة وتغيرها بالرياح الهابَّة والبروق اللامعة وأمثالها •• ومن محاسن التشبيب قول بعضهم

لوْ جادَهنَّ غداةَ رُمنَ رَواحا غيثٌ كدَمعى ما أرَدْنَ بَرَاحا

ماتتْ بفَقْدِ الظاعنينَ ديارُهمْ فكأنهمْ كانوا لها أرواحا

النائياتُ النافذاتُ نواظراً والنافذين أسِنّةً وسلاحا

وأرى العيونَ ولا كأعينِ عامرٍ قدَراً مع القدَرِ المتاحِ مُتاحا

مُتوارثى مَرَضِ العيونِ وانما مرَضُ العيونِ بأنْ يكنَّ صِحاحا

لا عيبَ فيهمْ غيرَ شُحِّ نسائهم ومن السماحةِ أنْ يكنَّ شِحاحا

طرقته في أترابها لجات له ... وهنا من الغرر الصباح صباحا

وبسمن عن برد تألف نظمه ... فرأيت ضوء البرق ثمت لاحا

أبرزن من تلك العيون أسنة ... وهززن من تلك القدود رماحا

يا حبذا ذاك السلاح وحبذا ... وقت يكون الحسن فيه سلاحا

والأشعار في مثل هذا كثيرة • وفي القرآن العظيم من وصف النساء كثير مثل قوله تبارك وتعالى « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً » • وقوله تعالى « حور مقصورات في الخيام » • وقوله تعالى « قاصرات الطرف » الآية • وفي القرآن العظيم كثير

القسم الموفي ثمانين

(الاستدراج)

قال ابن الاثير وهو التوصل الى حصول الغرض من المخاطب والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به • وفي ذلك من الغرائب والدقائق ما يؤنق السامع ويطربه لأن بناء صناعة التأليف عليه ومنشأها •• ومن هذا الباب قوله تعالى « واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقاً نبياً اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد » الى قوله « فتكون للشيطان ولياً » هذا الكلام يهز أعطاف السامعين ويبهج نفوس المتأملين فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة امعان النظر في مطلوبه وترداد الفكر في أثنائه واتخاذه قدوة لك ونهجاً تعتقبه ألا ترى حين أراد ابراهيم أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل كيف رتب الكلام معه في أحسن سياق وانتظام مع استعمال المجاملة واللطف واللين والادب الجميل والخلق الحسن مستصحباً في ذلك نصيحته وذلك أنه طلب منه أولا نقله عن خطيئته طلب منبه على تماديه موقظ له من افراطه وقلة تناهيه لأن المعبود لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً

مقدراً على الثواب والعقاب إلا أنه بعض الخلق لا يشك في نقص عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ولو كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين فكيف بمن جعل المعبود جماداً لا يسمع ولا يبصر ثم ثنى ذلك بدعوته الى الحق مترفقاً به ومتلطفاً فلم يتهم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ولكن قال ان معي لطائف وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف وهب أني واياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل فتتبه ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده وهو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذي ورطك في هذه الورطة وألقاك في هذه الضلالة إلا أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لامعانه في الخلاص لم يذكر من جناية الشيطان إلا الذي يختص منها بالله عز وجل وهي عصيانه واستكباره ولم يلتفت الى ذكر معاداته لآدم وبنيه ثم ربع ذلك بتخويفه سوء العاقبة وما ينتج عليه من الوبال ولم يخل هذا الكلام من حسن أدب حيث لم يصرح بالعقاب اللاحق بأبيه ولكنه قال اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ـ فذكر الخوف والمس اعظاماً لهما وترك العقاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه أكبر من العذاب وصدر كل نصيحة من النصائح الاربع بقوله ـ ياأبت ـ توسلا اليه واستعطافاً فقال له في الجواب « أراغب أنت عن آلهتي ياابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً » ألا ترى كيف أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظ العناد فناداه باسمه ولم يقابل قوله ـ ياأبت ـ بيابني وقدم الخبر على المبتدأ في قوله ـ أراغب أنت عن آلهتي ياابراهيم ـ لانه كان أهم عنده وفيه ضرب من التعجب والانكار لرغبة ابراهيم عن آلهته وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب أحد عنها ومن هذا الباب قوله تعالى « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » الى قوله « ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطف مغزاه فانه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتخطاه وان كان صادقاً فيصيبكم بعض الذي يعدكم ان

تعرضتم له • وفى هذا الكلام من حسن الأدب والانصاف ما أذكره لك أيها المتأمل وأقول انما قال يصبكم بعض الذى يعدكم وقد علم أنه نبى صادق وان كل مايعدهم به لابد من أن يصيبهم لا بعضه ولانه احتاج مع أدلة خصم موسى أن يسلك معهم طريق الانصاف والملاطفة فى القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب الى تسليمهم لقوله وأدخل فى تصديقهم له وقبولهم منه فقال وان يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم وهو كلام المنصف فى مقابلة خصمه غير المشتط فيه وذلك حين وصفه الله بكونه صادقا فقد أثبت أنه صادق فى جميع مايقر به لكنه أردفه بقوله «يصبكم بعض الذى يعدكم» ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً فضلا من أن يتعصب له وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل وكذا قوله « ان الله لا يهدى من هو مسرفٌ كذابٌ » أى لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله بالنبوة ولاعضده بالبينات فتبين أيها المتأمل لهذه الدقائق اللطيفة الصنع تدل على التيقظ فى صناعة التأليف

القسم الحادى والثمانون

(خذلان المخاطب)

وهو الامر بعكس المراد ويدل ذلك على الاستهانة بالمأمور وقله المبالاة بأمره أى انا مقابلك على فعلك ومجازيك بحسبه • فمن ذلك قوله تعالى « واذا مس الانسانَ ضرٌ دعا ربَّهُ منيباً اليه ثم اذا خوَّله نعمة منه نسى ماكان يدعو اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً انكَ من أصحاب النار» • فقوله قل تمتع بكفركَ من باب الخذلان كأنه قال له اذ قد أبيت ما أمرت به من الايمان والطاعة فمن حقك أن لاتؤمر به بعد ذلك ونأمرك بتركه • وهذا مبالغة فى خذلانه لان المبالغة فى الخذلان أشد من أن يبعث على ضدّ ما أمر به •• ومن هذا الباب قوله تعالى «قل الله أعبدُ مخلصاً له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه » فان المراد بهذا الامر الوارد على

وجه التخيير المبالغة فى الخذلان على ما سبق ذكره • وفى هذا الكلام معنيان لطيفان • الاول أى أن عبادتكم لله وعبادتكم لغيره انما تنفع أو تضر لكم لا لسواكم فالله تعالى مستغن عن عبادتكم له • الثانى توعده لهم بالمقابلة على فعلهم من غير تصريح بالوعيد وذلك أبلغ من الاصراح به لوقوع الموعود فى حيرة من أمره وترامى وهمه عندذلك الى كل خطب عظيم من المجازاة والمقابلة كقولك لمن عصاك افعل ما شئت أى انى مقابلك عليه • وهذا نوع من علم البيان شريف

القسم الثانى والثمانون

(التعليق والادماج)

وهو أن يدمج مدحاً بمدح أو هجواً بهجو أو معنىً بمعنى كما قال المتنبى

الى كم تردُّ الرُّسلَ عما أتوا به ... كأنهم فيما وَهبتَ مَلامُ

أدمج رد الرسل برد اللوم وكلاهما مدح •• وقوله أيضاً

حسَنٌ فى وجوهِ أعدائهِ ... أقبحُ من ضيفهِ رأته السَّوَامُ

أدمج الحسن مع القبح وكلاهما مدح وصفه بالكرم لأن ابله اذا رأت ضيفه علمت أنه ينحرها له وقد سمى العسكرى هذا النوع فى كتاب الصناعتين له المضاعف وأنشد فيه

وأسرعتُ نحوكَ لما دعوْ ... ت كأنى نوالك فى سُرعته

•• ومثله فى وجيه الدولة

وباتَ أسعدَنا حظاً بصاحبهِ ... من كان فى الحبّ أشقانا بصاحبهِ

وقاعدة هذا الباب أن يكون أحد المعنيين تلويحاً والآخر تصريحاً • وفى القرآن العظيم من هذا النوع كثير



ــ القسم الثالث والثمانون ــ

(الاستخدام)

وهو أن تكون الكلمة لها معنيان فيحتاج اليهما فيذكرها وحدها فيستخدم المعنيين كما قال الله تبارك وتعالى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارَى » والصلاة هاهنا يحتمل أن تكون فعل الصلاة أو موضع الصلاة فاستخدم الصلاة بلفظ واحد لأنه قال سبحانه « إلا عابرى سبيلٍ » فدل على أنه أراد موضع الصلاة . وقال تعالى « حتى تعلموا ما تقولون » فدل على أنه أراد فعل الصلاة .. وأنشدوا للبحترى

فسقى الغضا والساكنيه وانهم ... شبُّوهُ بين جوانحٍ وقلوبِ

ـ الغضا ـ يحتمل أن يكون الموضع ويحتمل أن يكون الشجر فاستخدم المعنيين به ـ والساكنيه ـ أراد المكان والشجر بقوله ـ وانهم شبوه ـ ومن ذلك لبعض العرب

اذا نزلَ السماء بأرضِ قومٍ ... رعيناهُ وانْ كانوا غضابا

ـ والسماء ـ يحتمل معنيين المطر والنبات فاستخدم المعنيين بقوله ـ اذا نزل ـ يعنى المطر ـ رعيناه ـ يعنى النبات .. وكما قال الشيخ أبو العلاء

وفقيهٍ أفكارهُ شِدْنَ للنعـمانِ ما لم يَشِدْهُ شعرُ زيادِ

يحتمل معنيين أحدهما أن يكون النعمان بن المنذر الملك والآخر أن يكون النعمان بن ثابت الفقيه فاستخدم المعنيين بلفظ واحد فقال ـ شدن للنعمان ـ يعنى أبا حنيفة رضى الله عنه وقال ـ شعر زياد ـ يعنى النعمان بن المنذر لأن زياداً هو النابغة مدح النعمان .. وكما قال أبو تمام

واذا مشت تركتْ بصدرِكَ ضعفَ ما ... بحليها من شدةِ الوَسواسِ

لأن ـ الوسواس ـ يحتمل معنيين وهو بلابل الصدر وصوت الحلى فاستخدم المعنيين بقوله ـ تركت بصدرك ـ يعنى البلابل وبقوله ـ ضعف ما بحليها ـ يعنى صوت الحلى .. ومنه

اسمُ مَن ملَّنى ومَن صدَّ عنى ... وجفانى لغـير ذنبٍ وجُرمِ

والذى ضنَّ بالوِصالِ علينا ... مثلَ ما ضنَّ بالهوَى قلبُ نُعْمِ

هـذا استخدام فى الاعراب لان قلب مرفوع بالخبر وفاعل ضن وهو أيضاً استخدام فى المعنى لانها بمعنى قلب من المقلوب لان الاسم ـ معن ـ فهو معكوس ـ نعم ـ فاعرفه . ومنه فى الكتاب العزيز كثير .. من ذلك قوله تعالى « وكانَ وراءهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينةٍ غَصباً » يحتمل أن يكون أراد ـ وراءهم ـ أى فى طلبهم ويحتمل أن يكون أراد أمامهم . ومن ذلك قوله تعالى « والمطلّقاتُ يَترَبَّصنَ بأنفسهنَّ ثلاثةَ قروءٍ » ـ والقرء ـ الحيض والقرء أيضاً الطهر واللفظ يحتمل المعنيين فاعرفه

ــ القسم الرابع والثمانون ــ

(التفقير)

وهو أن يأتى فى البيت ذكرُ نكتة أو بيت أو رسالة أو خطبة أو غير ذلك فيومئُ اليها الشاعر أو الناثر مثل قوله تعالى « فيهنَّ قاصراتُ الطرْفِ » فان امرأ القيس أومأ اليه بقوله

من القاصراتِ الطرْفِ لو دَبَّ مُحوِلٌ ... من الذرِّ فوقَ الأنفِ منها لأثّرا

.. ومنه قول الآخر

ألومُ زياداً فى ركاكةِ رأيهِ ... وفى قولهِ أىّ الرجالِ المهذّبُ

وهل يُحسنُ التهذيبُ منكَ خلائقاً ... أرقّ من الماءِ الزلالِ وأطيبُ



الفن الثانى

مايتعلق بالالفاظ من الفصاحة كما أن ما يتعلق بالمعانى من البلاغة ولهذا قيل معنى بليغ ولفظ فصيح يقال أفصح الاعجمى وفصح اللحان . وهذا الفن يسمى أيضاً البديع . والبديع علم يبحث فيه عن أحوال اللفظ المؤلف من حيث لا يمكن أن يؤتى به إلا بحسن انتظام وهو ينقسم الى أقسام

(الاول التهذيب)

وهو تخليص الالفاظ من ثقل العجمية وهجنة الحوشية وفظاظة النبطية وأن يترك الكلام عذب المساق حسن الاتساق قريباً من فهم السامع عذب المساغ فى اللهوات والمسامع يدخل الأذن بغير إذن ويتصور معناه فى العقل بدقيق التدبر ولطيف التفكر . والقرآن العظيم كله من أوله الى آخره على هذه المثابة غير ما فيه من المتشابه فانه يحتاج الى الامعان فى التذكر وترديد التدبر وذلك أيضاً على غاية ما يكون من الحسن فكل فى بابه قد استوفى بديع نصابه قد بسقت اشجاره وعذبت ثماره واتسقت ألفاظه واستحكمت معانيه وحسن رونقه وعظمت حلاوته وطلاوته لا تمله الاسماع مع كثرة ترداده ولا تنفر منه الطباع مع ابراقه وارعاده بل هو الذى أحكمت آياته وفصلت وكملت معانيه فى ألفاظه وحصلت وأحكمت أحكامه وأصلت فهو كما قال الله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت » قد سلم من حوشى الالفاظ ورذلها وتخلص من فظاظة العجمة وثقلها وكل كلمة منه حلت محلها وقرنت بمثلها فهو كما قال البحترى

وإذا دجت أقلامه ثم انتحت ... برقت مصابيح الدجى فى كتبه
فاللفظ يقرب فهمه فى بعده ... منا ويبعد نيله فى قربه
حكم سحائبها خلال بنانه ... هطالة وقليبها فى قلبه
كالروض مؤتلقاً بحمرة نوره ... وبياض زهرته وخضرة عشبه
وكأنها والسمع معقود بها ... شخص الحبيب بدا لعين محبه

وهذه الابيات من أحسن ما قيل فى التهذيب وأبلغ مانظم فى التنقيح والترتيب ويتعين

على كل ناظم وناثر أن لا يملى قصيدة أو رسالة أو خطبة حتى يتلمحها بعين بصيرته ويقدح لها زناد فكرته وقريحته ويهذب ألفاظها ويحقق معانيها ويحسن مساغها ويؤسس مبانيها كما قيل

لاتعرضن على الرواة قصيدة ... مالم تبالغ قبل فى تهذيبها
فاذا عرضت الشعر غير مهذب ... عدوه مثل وساوس تهذى بها

القسم الثانى

(الانسجام)

وهو أن يأتى الكلام سهل المساق عذب المذاق حسن الاتساق متحدراً فى الاسماع كتحدر الماء المنسجم حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون موقعاً فى النفوس وعذوبة فى القلوب ما ليس لغيره مع بعده من التصنع وأكثر ما يقع غير مقصود كمثل الكلام الموزون الذى تأتى به الفصاحة فى ضمن النثر عفواً كانصاف أبيات وقعت فى أثناء الكتاب العزيز وفى السنة . وقد وقع من ذلك كثير فى الخطب والرسائل ومن[1] أن يكون بيتاً أو نصف بيت . وقد وقع فى غير القرآن بيتان فصاعداً وليس بشعر وان لم يقصد . . فأما القرآن العزيز فلم يقع فيه من ذلك الا مثل البيت الواحد أو النصف والبيت المفرد لا يسمى شعراً وأيضاً فان الشعر انما سمى شعراً لكونهم شعروا به أى فطنوا . وهذا انما جاء عفواً فى درج الكلام . . فما ورد من ذلك فى القرآن العزيز قوله تعالى « وجفان كالجوابى وقدور راسيات » فوافق هذا فى درج الكلام قول امرئ القيس

امرؤ القيس رهين ... مولع بالفتيات
مكرم الضيف بلحم ... وشحوم البكرات
فى جفان كالجوابى ... وقدور راسيات

(١) كذا فى الاصل

.. وقد قال بعض أهـل العلم بالعروض ان الذى فى القرآن من ذلك ليس بمتزن ولا موافق لبحر بيت امرئ القيس وهو صحيح .. ومن ذلك قوله تعالى « إنْ يَنتهوا يغفرْ لهم ما قد سَلَف » . وقوله عز وجل « نبِّئْ عبادى أنى أنا الغفورُ الرحيم » . وقوله تعالى « لن تنالوا البرَّ حتى تُنفِقوا مما تحبون » والتلاوة أيضاً لا تستقيم على الوزن انما الوزن يكون على تحبوا دون النون كما قال بعض الشعراء

لن تنالوا البرّ حتى تُنفقوا مما تحبوا

.. وقد جوّز الحذاق الماهرون بأوزان القريض العالمون بضروبه واجزائه وتقطيعه هذه الابيات فلم يجدوها موزونة بل مباينة لأوزان الشعر إما بزيادة أو نقصان ولولا خشية التطويل لبينت ذلك

القسم الثالث

(الاشتقاق) ويسميه بعضهم الاقتضاب أيضاً
وهو من باب التجنيس وان عُدّ أصلا برأسه

وهو أن يجىء بألفاظ يجمعها أصل واحد فى اللغة كقوله تعالى « فأقِمْ وَجهَكَ للدين القيّم » .. وقول أبى تمام

عممتَ الخلقَ من نُعماكَ حتى غدا الثقلانِ منها مُثقَلاَنِ

(قال المصنف عفا الله عنه) هذا الباب أولى بأن يكون من أجناس التجنيس والآية التى استشهد بها هى من التجنيس المغاير والبيت الذى استشهد به من التجنيس المماثل . وسنذكر أجناس التجنيس وأقسامه فى فصل مفرد بعدُ ان شاء الله تعالى .. ومما يشبه هذا النوع وليس منه ويسمى المشابهة قوله تعالى « إنى لعملكم من القالين » .. وقول البحترى

واذا ما رياحُ جودِكَ هبّتْ صار قولُ العداةِ فيها هباء

ذكره الزنجانى فى تكملته .. قال ابن الاثير الاشتقاق على قسمين . صغير . وكبير . فالصغير أن تأخذ أصلا من الاصول فتجمع بين معانيه وان اختلفت صيغه ومبانيه كتركيب س ل م فانك تأخذ معنى السلامة فى تصرفه نحو سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم للديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلا بسلامته . وعلى هذا جاء غيره من الاصول كقولنا هشمتك هاشم وحاربك محارب وسالمك سالم وأصاب الارض صيّبٌ لأن الصيب هو المطر الذى يشتد صوته ووقعه على الارض . وأمثال ذلك كثير .. ولهذا الضرب من الكلام رونق لا يخفى على العارف بهذه الصناعة .. فمما جاء منه قول بعضهم

* أمحلّتىْ سَلمى بكاظمةَ آسلما *

.. وكذلك قول الآخر وهو جرير بن عطية

وما زالَ معقولاً عِقالُهُ عن الندا وما زالَ محبوساً عن الخير حابِسُ

.. وقال غيره

* انّ قومى لهمْ جِدادُ الجديدِ *

.. وشُكى الى بعض الخلفاء جور عامل له وسُئل أن يكتب اليه كتابا فقال ما ترك فضة الاّ فضها ولا ذهباً الاّ أذهبه ولا غنيمة الاّ غنمها ولا مالا الاّ مال عليه فأى شئ بعدُ يكتب اليه . وأمثال هذا كثير فاعرفها .. قال ابن الاثير وأما الاشتقاق الكبير فهو أن تأخذ أصلا من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنىً واحداً يجمع تلك التراكيب وما تصرّف منها وإن تباعد شئ من ذلك رُدّ بلفظ الصيغة والتأويل اليها كما يفعل الاشتقاقيون . ولنضرب لذلك مثلا فنقول ان لفظة ق ر م من الثلاثى لها ستة تراكيب وهى قرم . قمر . رمق . رقم . مقر . مرق . فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد وهو القوة والشدة ـ والقرم ـ شدة شهوة اللحم ـ وقمر ـ الرجل اذا غلب من يقامره ـ والرقم ـ الداهية وهى الشدة التى تلحق الانسان من أمره وعيش ـ مرمق ـ أى ضيق وذلك نوع من الشدة أيضاً ـ والمقر ـ شبه الصبر يقال أمقر الشئ اذا أمرّ وفى ذلك شدة على الذائق وكراهة ـ ومرق ـ السهم اذا نفذ من الرمية وذلك لشدة مضائه وقوته .. واعلم انه اذا سقط من تركيب الكلمة شئ فجائز ذلك فى

الاشتقاق لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تراكيب الكلمة بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها أدّت الى معنى واحد يجمعها .. فمثال ما سقط من تركيب الثلاثى لفظة و س ق فان لها خمسة تراكيب وهى و س ق . و ق س . س و ق . ق س و . ق و س . وسقط من جملة التركيب قسم واحد وهو س ق و وجميع هذه الكلمة تدل على القوة والشدة – فالوسق – من قولهم استوسق الامر أى اجتمع وقوى – والوقس – ابتداء الجرب وفى ذلك شدة على من يصيبه – والسوق – متابعة السير وفى هذا عناء وشدة على السائق والمسوق – والقسوة – شدة القلب وغلظه – والقوس – معروف وفيه نوع من الشدة والقوة لسرعة السهم واخراجه الى ذلك الرمى المتباعد .. واعلم انا لا ندعى أن هذا يطّرد فى جميع اللغة بل قد جاء شئ منها كذلك وهذا مما يدل على متانتها وحكمها لأن الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقاليب وهى مع ذلك دالة على معنى واحد وهذا من أعجب الأمور التى توجد فى لغة العرب واعذبها فاعرفه

﴿ القسم الرابع ﴾

(الجزالة والرذالة)

أما الجزالة فقد تقدم الكلام عليها والقرآن العظيم من وجوه اعجازه جزالة ألفاظه وهو من أوله الى آخره لابسٌ حللَ الجزالة والفصاحة سالمٌ من الرذالة والفظاعة .. وأما الرذالة فهى فى غير القرآن فمنها فى المنظوم والمنثور كثير .. أما المنظوم فمثل قول بعض العرب

زياد بن عين عينه تحت حاجبه … واسنانه بيضٌ وقد طرّ شاربه

ومثله ما أنشد سيبويه فى كتابه

اذا ما الخبزُ تأدمه بلحم … فذاك أمانة الله الثريدُ

.. ومثل قول أبى العتاهية

ماتَ الخليفةُ أيُّها الثقَلان … فكأننى أفطرتُ فى رمضان

وأما النثر فمثل قولهم – فلان لئيم الخيم كأنّ كفه ميم وكأن عقله جيم ان واصلته منع وان أعطيته قطع – والقرآن العظيم أجل وأعظم من أن يكون فيه شئ من ذلك أو يماثله

﴿ القسم الخامس ﴾

(السهل الممتنع)

وهو الذى يظن من سمعه لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه أنه قادر على الاتيان بمثله فاذا أراد الاتيان بمثله عزّ عليه مثاله وامتنع عن طالب معارضته فلا يناله والقرآن العظيم كله على هذا المنوال خلا ما فيه من المتشابه والحروف التى فى أوائل السور فاذا فسرت كانت كذلك . ومنه فى السنة كثير .. من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم – تنكح المرأة لجمالها ومالها وحسبها عليك بذات الدين تربت يداك – . وقوله صلى الله عليه وسلم – اياكم وخضراء الدِّمَن قالوا وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء – . وقوله صلى الله عليه وسلم – المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وعودوا كل جسد ما اعتاد – . وقوله صلى الله عليه وسلم – الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة ظهورها عز وبطونها كنز – .. وأما فى النثر والنظم فقليل . مثاله فى النثر قول العماد الكاتب – ولو جعل الله حظه من الذهب كحظه من الادب لاستجدى من سعته قارون واستعان بفصاحته هارون – .. ومنه فى الشعر مثل قول مروان ابن أبى حفصة

بَنو مَطرٍ يومَ اللقاءِ كأنهم … أُسودٌ لها من غِيلِ خفانَ أشبُلُ

هُمُ يمنعون الجارَ حتى كأنما … لجارِهم بين السماكين منزل

همْ القوم إنْ قالوا أصابوا وان دُعوا … أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا

بها ليلُ فى الاسلامِ سادوا ولم يكن … كأولهم فى الجاهلية أول

ولا يستطيعُ الفاعلون فعالهم … وانْ أحسنوا فى النائبات وأجملوا

ثلاثٌ بامثال الجبال حُباهُمُ … وأحلامهم منها لدى الوزن أثقلُ

﴿ القسم السادس ﴾

(الرشاقة والجهامة)

فأما الرشاقة فقد ذكرناها آنفا وفى القرآن العظيم منه كثير ..وأما الجهامة فليس فى القرآن منها شىء فان الجهامة لاتكون الاعن غلظ طبع وشدة حصر ولكن والقرآن العظيم منزه عن ذلك

﴿ القسم السابع ﴾

(الفك والسبك)

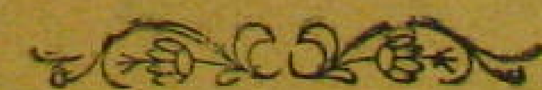
أما الفك فهو أن يفصل المصراع الاول من المصراع الثانى أو الفقرة الاولى من الفقرة الثانية أو الجملة الاولى من الجملة الثانية ولا تتعلق الثانية بشىء من معنى الاولى مثل قول زهير

حيِّ الديارَ التى لم يعفها القدم ... بلى وغيرها الارواح والديم

.. ومن ذلك قول المتنبى

جللاً كما بى فليكُ التبريح ... أغذاءُ ذا الرشأ الاغن الشيح

.. وهذا النوع منه فى القرآن كثير فانه يأتى بجملة أثر جملة ليس لها تعلق بالتى قبلها والنحاةُ يسمون ذلك الجمل المعترضة .. وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة أو الخطبة بعضها ببعض من أوله الى آخره ولهذا قيل خير الكلام المسبوك المحبوك الذى يأخذ بعضه برقاب بعض. والقرآن العظيم آياته كلها كذلك فاعرفه



﴿ القسم الثامن ﴾

(الحل والعقد)

وهو أن يأخذ لفظا منظوما فينثره أو منثوراً فينظمه مع الاتفاق فى المعنى .. وهذا القسم يختص بالانشاء معروف بالكتّاب البلغاء الفصحاء وهو من أجلّ ما يمتّون به وأعظم ما يترفعون بسببه .. وفى القرآن العظيم من جنسه وهو ما ورد فيه من آية مجملة فسرتها آية أخرى أو مفسرة أجملتها آية أخرى فأشبه ذلك الحل والعقد .. وأكثر ما يقع هذا النوع فى الشعر والرسائل فان الشعر معقود والنثر يحلله والنثر محلول والشعر يعقده وللماهرين فى صناعة الانشاء من هذا كثير ليس هذا موضع ذكره اذ ليس غرضنا فى هذا الكتاب الا اثبات ما وقع فى الكتاب العزيز من فنون الفصاحة وعيون البلاغة وبدائع البديع أو ما يجرى مجرى ذلك

﴿ القسم التاسع ﴾

(الازدواج)

وهو أن يزاوج بين الكلمات أو الجمل بكلام عذب وألفاظ حلوة .. ومثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى « فمنِ اعتدَى عليكم فاعتدوا عليهِ بمثلِ ما اعتدَى عليكم » . وقوله تعالى « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها » . وقوله تعالى « يخادعونَ اللهَ والذين آمنوا وما يخادعونَ إلا أنفسَهُمْ » . ومثله قوله تعالى « وكانَ اللهُ عليما حكيما » . وقد جاء فى الكلام الفصيح وأشعار العرب وغيرها مؤتلفاً ومختلفاً ويكون كلمة وكلمتين .. ومنه الحديث ـ اما محسناً فيزداد وأما مسيئاً فيستعتب ـ .. ومنه قول الشاعر

عتبتُ عليه فما أعتبا ... وعنهُ اعتذرتُ وقد أذنبا

القسم العاشر

(تضمين المزدوج)

وهو أن يقع فى الفقرات لفظان مسجعان بعد مراعاة حدود الاسجاع والقوافى الأصلية كقوله تعالى « وتفقدَ الطيرَ فقال مالىَ لا أرى الهدهدَ أم كانَ من الغائبين لأعذّبنّهُ عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينى بسلطانٍ مبينٍ فمكث غيرَ بعيدٍ فقال أحطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتُكَ من سَبإٍ بنبإٍ يقينٍ » بعد مراعاة اللفظ فى مقاطع الآى وهى — الغائبين و مبين — .. ومنه فى الشعر والنثر كثير . فمن النثر قول بعض البلغاء فلان رفع دعامة الجِد والجد باحسانه وبرّز بالجَد والجد على أقرانه .. ومثاله من النظم قول الشاعر

تعوّدَ رسمَ الوَهبِ والنهبِ فى العُلا ... وهذان وقتا اللطفِ والعُنفِ دابُهُ

ففى اللطفِ أرزاقُ العبادِ هباتُهُ ... وفى العُنفِ أعمارُ العِداة نهابُهُ

القسم الحادى عشر

(التسجيع . والكلام عليه من وجوه)

الاول فى أقسامه . الثانى اختلاف العلماء فى جواز استعماله وحظره . الثالث فى شرطه وما ينبغى أن يكون فيه (الاول) قد اختلفت عبارات أرباب هذه الصناعة فى التسجيع فقال قوم هو على ثلاثة أقسام . المتوازى . والمتطرف . والمستحسن .. أما المتوازى فهو رعاية الكلمتين الاخيرتين فى الوزن والروىّ . وذكر الروىّ فى النثر توسعة فى الكلام والا فالروى مخصوص بالشعر . مثاله من كتاب الله تعالى قوله عز وجل « فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ وأكوابٌ موضوعةٌ » .. ومثاله من السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم — اللهم اعط منفقاً خلفا واعط ممسكا تلفا — .. وأما المتطرف فهو

أن تتفق الكلمتان الاخيرتان فى الحرف الاخير دون الوزن . مثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى « ما لكم لا ترجون لله وَقاراً وقد خلقكم أطواراً » .. ومنه قول بعض البلغاء — جنابه محط الرحال ومخيّم الآمال — .. وأما المتوازن فمثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى « وآتيناهما الكتابَ المستبين وهديناهما الصراطَ المستقيم » .. وقال قوم هو على ثلاثة أقسام . قصير موجز . ومتوسط معجز . وطويل مفصح مبين للمعنى مبرز .. أما الاول وهو القصير فاعلم ان أقصر الفقرات القصار فى السجع ما يكون من لفظين كقوله تعالى « والعادياتِ ضَبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صُبحاً » . وقوله تعالى « والمرسلاتِ عُرفاً فالعاصفاتِ عصفاً » . وقوله تعالى « يا أيها المدّثر قم فأنذرْ وربَّكَ فكبّرْ وثيابَكَ فطهّرْ » .. وأطول الفقرات القصار ما يكون من عشر لفظات وما بين هذين متوسط كقوله تعالى « والنجم اذا هوَى ما ضلَّ صاحبُكم وما غوَى وما يَنطقُ عن الهوَى إنْ هو الاّ وَحىٌ يُوحَى » . وقوله تعالى « اقتربَت الساعةُ وانشقَّ القمر وإن يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويقولوا سِحرٌ مستمر وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم وكلُّ أمرٍ مستقرٌّ » .. وأقصر الطوال ما يكون من أحد عشرَ لفظة وأطولها غير مضبوط وكلما طالت الفِقَر زاد بيانها وافصاحها . وقد وقع فى الفقر المطوّلة ما هو من عشرين لفظة فما حولها مثل قوله تعالى « اذ يُريكهمُ اللهُ فى منامك قليلاً ولو أراكهمُ كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن اللهَ سلّمَ إنه عليمٌ بذات الصدور وإذ يُريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويُقلّلكم فى أعينهم ليقضىَ اللهُ أمراً كان مفعولا والى اللهِ ترجعُ الأمورُ » .. ومثاله فيما دون ذلك قوله تعالى « ولئن أذقنا الانسانَ منّا رحمةً ثم نزعناها منه إنه ليؤسٌ كفورٌ ولئن أذقناهُ نعماءَ بعد ضرّاءَ مسّتْه ليقولنّ ذهبَ السيئاتُ عنى إنه لفرحٌ فخورٌ » . وقوله تعالى « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤفٌ رحيم فان تولّوا فقل حسبىَ اللهُ لا إلهَ إلا هو عليه توكّلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم » .. والفقرات المسجوعة إما أن تكون متساوية أو لا .. أما المتساوية ففى الاكثر انما توجد فى الفقرات القصار كما فى قوله تعالى « فأما اليتيمَ فلا تقهرْ وأما السائلَ فلا تنهرْ » .. وأما

المختلفة فاختلافها إما أن يكون فى فقرتين أو أكثر .. أما المختلفة فى فقرتين فالاحسن أن تكون الثانية أزيد من الاولى ولا تزيد بقدر كثير كقوله تعالى « وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيراً اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً واذا ألقوا منها مكاناً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً » . وكذلك قوله تعالى «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدًّا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدًّا » .. وأما المختلف فى أكثر من فقرتين فأحسنه أن تكون الفقرة الثالثة زائدة والاوليان متساويتان أو الثانية منه أزيد يسيراً .. وأقل السجع حسناً ما يكون المتأخر من الفقرات أقل مما قبلها (أما الثانى) فقد اختلف أرباب علم البيان فيه . فنهم من قال باستحسان السجع وفضله على الاسترسال فى الكلام ورجحه .. ومنهم من كره السجع واقبحه واحتج على ذلك بأمرين . أحدهما اشتماله على الكلفة . والثانى قوله عليه الصلاة والسلام - أسجعاً كسجع الجاهلية - وكلا الحجتين فاسد .. أما الاولى فلأنه لم يخل شئ من الكلام من تكلف ما .. وأما الثانية فلأن الانكار انما كان لسجع مخصوص وهو ما قصد به ابطال حق أو تحقيق باطل ولو كان السجع قبيحاً لاستحال وروده فى القرآن .. والتسجيع وعدمه أسلوبان جرت عليهما السنة فصحاء العرب وخطبائهم يأتون بذلك بغير تكلف ولا تعسف .. وورد فى القرآن العظيم آيات كثيرة خالية من السجع وآيات كثيرة مشحونة بالسجع حتى أن بعض السور شملها السجع من أولها الى آخرها مثل اقتربت الساعة وسورة الضحى والكوثر فاعرفه (الثالث) قال علماء علم البيان الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الاعجاز موقوفاً عليها لان الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها ولايتم ذلك الا بالوقف ألا ترى أنك لو وصلت قوله مامن عزّة الا وإلى جنبها عزه وقولهم ما أبعد مافات وما أقرب ماهو آت لم يكن بدّ من اجراء كل الفقرات على ما يقتضيه حكم الاعراب فتكون قد عطلت عمل الساجع وقوة عزمه .. واذا رأيتهم يخرجون الكلم عن أوضاعها من الازدواج فيقولون أتيتك بالغدايا والعشايا . وهنائى الطعام ومرائى . وأخذه ماحدث وماقدم . وانصرفن

مأزورات غير مأجورات . وقال عليه الصلاة والسلام انفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا مع أن فيه ارتكاب مايخالف اللغة فما ظنك بهم فى ذلك

القسم الثانى عشر

(الترصيع)

وهو أن تكون ألفاظ الكلام مستوية الاوزان متفقة الاعجاز مثل قوله عز وجل « إنّ الابرار لفى نعيم وإنّ الفجار لفى جحيم » . وقوله تعالى « إنّ الينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » . وقوله تعالى « فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً » وهو فى كتاب الله كثير . ومنه فى النثر كثير منه قول الحريرى وهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع بزواجر وعظه .. وهو فى الشعر كثير منه قول أبى فراس

وأفعاله للراغبين كريمة ... وأمواله للطالبين نهاب

.. وقول آخر

ثمانية لم تفترق مذ جمعتها ... فلا افترقت ما ذبّ عن ناظر شفر
يقينك والتقوى وجودك والغنى ... ولفظك والمعنى وحربك والنصر

.. ومنه قول أبى الورد

يروح اليهم عازب الحمد وافياً ... ويغدو اليهم طالب الرفد عافيا

.. وقد يجئ مع التجنيس كقولهم اذا قلت الانصار كلّت الابصار وما وراء الخلق الدميم الا الخلق الذميم .. وقول المطرزى

وزند ندا فواضله ورىّ ... وزند ربا فضائله نضير
ودرّ جلاله أبداً ثمين ... ودرّ نواله أبداً غزير

﴿ القسم الثالث عشر ﴾

(التسميط)

وهو على قسمين (الاول) أن يكون فى صدر الكلام أو الرسالة أو البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ثم يجمعها قافية مخالفة لازمة للقصيدة حتى تنقضى أو رسالة حتى تنتهى فتصير كالسمط الذى احتوى على جواهر متشاكلة . ومنه قوله تعالى « اذا الشمس كُوِّرَتْ واذا النجومُ انكدرتْ » الى قوله « علمتْ نفسٌ ما أحضرتْ » وقوله تعالى « فلا أقسمُ بالخنسِ الجوارِ الكُنَّسِ والليلِ اذا عسعسَ والصبح اذا تنفس » .. وقوله تعالى « اذا السماء انفطرت » الى قوله « علمت نفس ما قدمت وأخرت » وقوله تعالى « اذا السماء انشقتْ وأذنتْ لربها وحقتْ » . وقوله تعالى « الرحمنُ علمَ القرآنَ خلقَ الانسان علمه البيانَ الشمس والقمر بحسبانٍ والنجمُ والشجرُ يسجدانِ » . ومثله فى القرآن كثير . ومنه قول امرئ القيس

ومستلئمٍ كشفتُ بالرمح ذيلهُ   أقمتُ بعضبٍ ذى شقاشقُ ميله
فجعتُ به فى مُلتقى الحربِ خيلهُ   تركتُ عتاقَ الطيرِ يحجلنَ حولهُ
كأنَّ على سرباله نضحَ جريالِ

.. وكقول الآخر

حلوٌ شمائلهُ تندى أناملهُ   ان جاء سائله أغناه نائله
حتى يروحَ له ماشاء من مالِ

(القسم الثانى) أن يصير كل بيت أربعة أقسام كقول جنوب الهُذَلية

وجزرٍ وردتَ   وثغرٍ سددتَ   وعلجٍ شددتَ   عليه الحبالا
ومالٍ حويتَ   وخيلٍ حميتَ   وضيفٍ قريتَ   يخافُ الوكالا

.. وقد أبدع الحريرى فى التوشيح بقصيدته التى أولها

خلِّ ادِّكارَ الأرْبعِ   والمعهدِ المرتبعِ   والظاعنِ المودِّعِ
وعدِّ عنه ودعِ
واندبْ زماناً سلفا   سوَّدتَ فيه الصحفا   ولم تزلْ معتكفا
على القبيحِ الشنعِ

.. ومن بديع التسميط أيضاً قوله فى قصيدته التى يقول فيها

وان لاحَ لكَ النقش   من الاصفر تهتشّ   وان مرَّ بكَ النعش
تغاممتَ ولا غمّ
ستذرى الدمَّ لا الدمع   اذا عاينتَ لا جمع   يقى فى عرصة الجمع
ولا خال ولا عمّ

جعل قصيدته كلها على هذا المنوال

﴿ القسم الرابع عشر ﴾

(التجزى)

وهو أن يكون الكلام مجزأ ثلاثة أجزاء أو أربعة أجزاء . مثال الثلاثة أجزاء من الكتاب العزيز قوله تعالى « إنّا أعطيناك الكوثر فصلِّ لربك وانحر إنّ شانئك هو الابتر » .. ومثال الاربعة قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام يعظ أباه بقوله « يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغنى عنك شيئاً يا أبتِ انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتّبعنى أهدكَ صراطاً سوياً يا أبتِ لا تعبد الشيطانَ إن الشيطان كان للرحمن عَصياً يا أبتِ إنى أخافُ أن يمسكَ عذابٌ من الرحمنِ فتكون للشيطان ولياً » وفى القرآن منه كثير .. ومنه قول ابن المعتز فى الثلاثة

عجباً لمنصلكَ المقلدِ كيف لم   تسلِ الدماء عليكَ منه سيولا
لك حسنه متقلداً وبهاؤه   متنكباً ومضاؤه مسلولا

٠٠ ومثال الاربعة الاجزاء قول المتنبي

فنحن في جذلٍ والرومُ في وَجلٍ ... والبحرُ في خجلٍ والبرُّ في شُغلِ

٠٠ ومنه قول ابن المقرّي

اذا صلدُوا أوْرَى وان عجّلوا ارتأى ... وان بخلوا أعطى وان غدرُوا وفّى

فللجود ما أبقى وللمجد ما ابتنى ... وللناسِ ما أبدَى ولله ما أخفى

القسم الخامس عشر

(في التوشيح)

التوشيح أن تكون ذيول الابيات ذات قافيتين على بحرين أو ضربين من بحر واحد فعلى أي القافيتين وقفت كان شعراً مستقيما كقوله

اسلم ودُمتَ على الحوا ... دث ما رسا ركنا ثبير ... أو هضاب حراء

ونَلِ المراد منها ممكناً ... على رغم الدهور ... وفز بطول بقاء

قافيتهما على ثاني قافية من ثاني الكامل وعلى الاول من سادسه ٠٠ وأما ما هو من بحر واحد وقد يسمى هذا النوع المتلوّن وذكره الزنجاني وأنشد فيه

أبنيّ لا تظلم بمكـة لا الصغير ولا الكبير ... ولا الفقير البائس

وقال ان قيدته كان من سابع الكامل وان أطلقته كان من سادسه ٠ وهذا النوع في القرآن العظيم ما يشبهه وهو ما ورد في الآيات من الوقف الكافي والتمام إن وقفت على الوقف الكافي كان حسناً وان وقفت على التمام كان أجود كقوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزلَ من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » ان وقفت على — من قبلك — كان وقفاً حسناً وان وقفت على — يوقنون — كان أحسن وهو تمام وكذلك كل ما أشبهه

القسم السادس عشر

(براعة المطلب وحسن التوسل)

وهو أن تكون ألفاظ المطلب مهذبة مقترنة بتعظيم الممدوح كقوله تعالى « فتلقّى آدمُ من ربه كلماتٍ فتابَ عليه إنه هو التوّابُ الرحيم » ٠ وكقوله تعالى في قصة نوح عليه الصلاة والسلام « إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدَكَ الحقّ وأنتَ أحكم الحاكمين » ٠ وقوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام « ربّنا إني أسكنت » الى قوله « لعلهم يشكرون » ٠ وقول تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام « ربّ قد آتيتني من الملك » الى قوله « وألحقني بالصالحين » ٠ وقوله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام « قال ابنَ أمّ إنّ القومَ استضعفوني » الى قوله « الظالمين » ٠ وقوله تعالى حكاية عن يونس عليه الصلاة والسلام « فنادى في الظلمات أنْ لا إلهَ إلا أنتَ سبحانكَ إني كنتُ من الظالمين » وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام « واذ قال الله يا عيسى بن مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأميَ إلهين من دون الله » الى قوله « فانكَ أنتَ العزيزُ الحكيم » ٠ وقوله تعالى فيما حكاه رسوله عليه الصلاة والسلام عن عباده المؤمنين « إنّ في خلقِ السموات والارض » الى قوله « فاستجاب لهم ربهم » ٠٠ وجاء من هذا النوع في الشعر كثير ٠ منه قول المتنبي

وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ ... سُكوتي بيانٌ عندها وخطابُ

القسم السابع عشر

(المخالفة)

اعلم أن المخالفة هو الخروج عن مذهب الشعراء وترك الاقتداء بآثارهم مثل

قول نصيب

طرقتكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا   وقتَ الزيارةِ فارجعي بسلام

وليس من المعهود رد المحبوب على عقبه اذا زار .. ومثل قول ابن عتيق

جُعلَ الندُّ والألوّةُ والمسكُ أُصيلاً لها على الكافور

.. ومعلوم أن الزنج على نتن رائحتهم لو تطيبوا ببعض هذا الطيب لطابت رائحتهم وانما الحسن الجيد قول امرئ القيس

ألم ترَ أني كلما جئتُ نحوَها   وجدتُ بها طيباً وان لم تَطيّبِ

.. ومن ذلك قول امرئ القيس

أغرّكِ مني أنّ حبّكِ قاتلي   وأنكِ مهما تأمري القلبَ يَفعلِ

وهذا مخالف للمعتاد لأن فيه توعداً للمحبوب والمحب لا يتوعد محبوبه .. وكذلك قوله

وانْ تكُ قدساءتكِ مني خليقةٌ   فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تَنسلِ

.. والقرآن العظيم كله مخالف لأساليب الشعر وقوانين النظم والنثر التي يستعملها الناظمون والناثرون . ولهذا قال الغفاري لقد عرضته على اقراء الشعر فلم يلتئم فانه ليس بالشعر

القسم الثامن عشر

(لزوم مالا يلزم)

ويسمى التضييق والتشديد والاعنات وهو التزام أن يكون ما قبل القافية حرفاً معيناً كما في قوله تعالى « إقرأ باسم ربكَ الذي خلق خلقَ الانسانَ من علق » . وقوله تعالى « والطور وكتابٍ مسطور » . وقوله تعالى « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنونٍ أم يقولون شاعرٌ نتربصُ به ريبَ المنونَ » . وقوله تعالى « في

سدرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضودٍ » وهو في القرآن كثير .. وجاء في الحماسة

انّ التي زعمتْ فؤادكَ ملّها   خُلقتْ هواكَ كما خُلقتَ هوىً لها

بيضاءُ باكرها النعيمُ فصاغها   بلباقةٍ فأدقها وأجلّها

حجبتْ تحيتها فقلتُ لصاحبي   ماكانَ أكثرها لنا وأقلّها

واذا وجدتُ لها وساوسَ سلوةٍ   شفعَ الضميرُ الى الفؤادِ فسلّها

.. وكذلك قول كثير عزّة في أبيات له

خليليّ هذا رسمُ عزّةَ فاعقلا   قلوصيكما ثم ازلا حيثُ حلت

فكانتْ لقطعِ الحبل بيني وبينها   كناذرةٍ نذراً فأوفتْ وحلّتِ

.. وقول المعري

لا تطلبنّ بغير جدٍّ حاجة   قلم البليغ بغير جدٍّ مغزلُ

سكنَ السماكانِ السماءَ كلاهما   هذا له رمحٌ وهذا أعزلُ

. وفي هذا القرآن العظيم من هذا النوع كثير .. ومن ذلك قوله تعالى « وجاءت سكرةُ الموتِ بالحقّ ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ في الصور ذلك يومُ الوعيد » لزم الياء والدال في أكثر هذه السورة . وقوله تعالى « هل أتى على الانسانِ حينٌ من الدهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً » . الى قوله « يفجرونها تفجيراً » التزم قافية توافق قافية .. ومن ذلك قوله تعالى « أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولايكادُ يبين فلولا ألقي عليه أساورةٌ من ذهب أوجاء معه الملائكة مقرّنين » والقرآن مشحون بهذا .. وهذا النوع أتى في القرآن عفواً من غير قصد وربما وقع في أقوال فصحاء العرب من غير قصد والمتأخرون يقصدون ذلك ويتكلفون في استعماله

* ليس التكحل في العينين كالكَحَل *

القسم التاسع عشر

(التفويف)

والمفوف عند أرباب هذه الصناعة فيه قولان . الاول أن تكون ألفاظه سهلة

المخارج عليها رونق الفصاحة وبهجة الطلاوة وعذوبة الحلاوة مع الخلو من البشاعة ملطفة عند الطلب والسؤال مفخمة عند الفخار والنزال ٠٠ وان كان شعراً فليكن شعره سهل العروض وقوافيه عذبة المخارج سهلة الحروف ومعانيه مواجهة للغرض المطلوب ظاهرة منه حيث لاتحتاج الى إعمال الفكر فى استنباط معانيه فاذا كان كذلك سمى مفوّفاً بما تنوع من ألفاظه ومعانيه فأشبه البُرْدَ المفوّف الذى فيه ألوان مختلفة وألوان متقابلة ٠٠ وأصل التفويف بياض يكون على الاظفار ٠ الثانى المفوف من الكلام والشعر هو الذى يكون فيه التزامات لاتلزم تكتب باصباغ مختلفة حتى يفطن للالتزامات التى جعلت عليه وعلى كلا القولين فالقرآن العزيز كله كذلك فان كان التفويف بأصباغ مختلفة الألوان فتفويف القرآن العظيم مقاطع آياته وفواتحها وتحزيبه وتعشيره وارباعه واخماسه واسباعه فانّ العلماء رضى الله عنهم رخصوا بأن يكون ذلك بالحمرة أو الخضرة أو الصفرة أو بألوان مخالفة للون الحبر والمداد حتى يعلم انها ليست من نفس القرآن فاستحبوا ذلك فاذا صار على هذه الصفة أشبه البرد المفوف بل أجل وأحسن وأبهى وألطفُ وان كان التفويف القول الاول فالقرآن العظيم كله كذلك أيضاً فاعرف ذلك

القسم الموفى عشرين

(التطريز)

قال علماء البيان التطريز هو أن تأتى قبل القافية بسجعات متناسبة فيبقى فى الابيات أواخر الكلام كالطراز فى الثوب ٠٠ ومنه قول الشاعر

أمسى وأصبحُ من هُجرانكم دَنفاً ... يَرْثى لىَ المُشفقانِ الاهلُ والولدُ

قدْ خددَّ الدّمعُ خدّى من تذكركم ... وهدّنى المضنيانِ الشوقُ والكمدُ

كأنما مُهجتى شِلْوٌ بمسبعة ... ينتابها الضاريانِ الذئبُ والاسدُ

لم يبقَ غيرُ خفى الروحِ من جسدى ... فداً لك الفانيان الروحُ والجسدُ

انى لاحسدُ فى العشاقِ مُصطبراً ... وَحسبكَ القاتِلان الحبّ والحسدُ

(قال المصنف عفى الله عنه) هذا النوع استخرجه المتأخرون وليس فى شعر القدماء شئ منه ولا فى كلامهم وقد استقريته من الكتاب العزيز واشعار المولدين فوجدته على ثلاثة أقسام ٠ الاول ماله علَمان علم من أوله وعلم من آخره ٠ الثانى ماله علم من أوله ٠ الثالث ماله علم من آخره ٠ فأما الذى له علَمان فكقوله تعالى «ومن آياته أنْ خلقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّةً ورحمةً انّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلقُ السموات والارض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم انّ فى ذلك لآيات للعالمين ٠ ومن آياته منامكم بالليلِ والنهارِ وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ٠ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزلُ من السماء ماءً فيحيي به الارض بعد موتها انّ فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» ٠٠ ومنه فى الشعر قول بعضهم من أبيات

والمسعدانِ عليها الصبر والجلدُ ... أفناهما الخاذلانِ الوجد والكمدُ

والعاذلانِ عليها ردَّ عذلهما ... فى حُبها العاذرانِ الحسنُ والجيَدُ

والباقيانِ هواها والغرامُ بها ... فداهما الذاهبان الروحُ والجسدُ

٠٠ ومنه قوله تعالى «أمّنْ خلقَ السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل همْ قومٌ يعدلون أمّن جعل الأرضَ قراراً وجعلَ خلالها أنهاراً وَجعلَ لها رَواسىَ وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمونَ أمّنْ يجيب المضطرَّ اذا دعاهُ ويكشفُ السوءَ ويجعلكم خلفاء الارضِ أإلهٌ مع الله قليلا ما تذكرونَ أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسلُ الرياحَ نُشراً بين يدىْ رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أمّنْ يَبدأ الخلق ثم يعيدُهُ ومن يرزقكم منَ السماء والارضِ أإلهٌ مع الله قلْ هاتوا بُرهانكم انْ كنتم صادقين» ٠ وأما الذى طرازه من أوله ٠ فمنه فى القرآن كثير ٠ فمن ذلك قوله تعالى «هو الله الذى لا إلهَ الاّ هوَ عالم الغيبِ والشهادة هو الرّحمنُ الرّحيمُ هوَ الله الذى لا إله الاّ هو الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سبحان الله عما يشركونَ هو اللهُ الخالقُ البارىءُ المصوّرُ له الاسماء الحسنى يسبّحُ

له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم » .. وهذا النوع قد ورد فيه من أشعار المتقدمين والمتأخرين فمن ذلك قول البحتري

تعلو الوفود ثلاثة في أرضه   إفضاله وجداه والانعام
وثلاثة تغشاك مهما زرته   إرفاده والمنّ والاكرام
وثلاثة قد جانبت أخلاقه   قول البذا والزور والآثام
وثلاثة في الغرّ من أفعاله   تدبيره والنقض والابرام

.. وأما الذي علمه من آخره ففي القرآن منه كثير . فمن ذلك قوله تعالى « خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجانّ من مارج من نار فبأي آلاء ربكما تكذبان رب المشرقين ورب المغربين فبأي آلاء ربكما تكذبان » الى آخر السورة . ومنه قوله تعالى « فكيف كان عذابي ونذر انا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً » الى آخر السورة .. ومن ذلك في المرسلات قوله تعالى « ويل يومئذ للمكذبين » الى آخر السورة

القسم الحادي والعشرون

(ما يقرأ من الجهتين)

مثاله من الكتاب العزيز قوله تعالى « كل في فلك يسبحون » . وقوله تعالى « وربك فكبر » وأرباب علم البيان يسمون هذا النوع العكس والتقليب وهو عندهم على أربعة أنواع . الاول قلب البعض وهو أن تقلب حروف الكلمة وهو كقوله عليه الصلاة والسلام — اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا — . ومنه قول الحريري

أجوب البلاد مع المتربه   أحبّ اليّ من المرتبه

. الثاني مقلوب الكل كقولهم — كفه بحر وجنابه رحب . الثالث المجنح وهو أن يقع مقلوب الكل في جناح البيت أو جناحي المصراع كقوله

لاح أنوار الذي   من كفه في كل حال

. الرابع المستوي وهو أن يقرأ طرداً وعكساً من الجهتين . ومنه الكلمتان في الأبيتين المتقدمتين . ومنه قول الحريري

أس أرملا اذا عرا   وارع اذا المرء أسا

الابيات .. ومنه قول الآخر

أراهن نادمنه ليل لهو   وهل ليلهن مدان نهارا

.. ومن أنواع هذا الباب ما اذا انعكست الكلمات يخرج منها كلام صحيح كالرسالة المشتملة على مائتي كلمة للحريري في المقامة القهقرية التي أولها الانسان صنيعة الاحسان الى أن ختم بقوله الاحرار عند الاسرار .. ومن هذا النوع أيضاً ما تقلب فيه الألفاظ بطريق العكس لتفيد معنى آخر كقولهم كلام الملوك ملوك الكلام وعادات الاشراف أشراف العادات

القسم الثاني والعشرون

(رد العجز على الصدر . ويسمى التصدير)

وهو أيضاً من ضروب البيان وفنون التلعب باللسان . ومنه قوله تعالى « فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم » .. ومنه قولهم القتل أنفى للقتل .. ومنه قول بعض البلغاء الحيلة ترك الحيلة .. ومنه قول الشاعر

تسير النجوم الدائرات بحكمه   وذاك اذا عدت علاه يسير

.. وقول الآخر

لقد حاز أنواع الفضائل كلها   وأمسى وحيداً في فنون الفضائل

.. وقول الآخر

سألت صروف الدهر حظ مملك   فشحت وجادت لي بحظ أديب

﴿ فصل ﴾

ومن هذا الضرب التجنيس وهو عند أكثر علماء علم البيان على قسمين • تجنيس حقيقى • ومشبه بالتجنيس •• أما التجنيس الحقيقى فهو أن تأتى بكلمتين كل واحدة منهما موافقة للأخرى فى الحروف مغايرة لها فى المعنى ولم يرد ذلك فى الكتاب العزيز الا فى آية واحدة وهى قوله تعالى « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » •• وأما المشبه بالتجنيس فكثير وقد احتوى الكتاب العزيز منها على اللباب وأتى منها بالعجب العجاب وهو على ضروب (الاول) التجنيس المماثل وهو أن يكون من اسمين أو فعلين مثل قوله تعالى « يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » • وقوله تعالى « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » • وقوله تعالى « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » • وقوله تعالى « ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » (الثانى) التجنيس المغاير وهو يكون من اسم وفعل • ومنه قوله تعالى « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » • وقوله تعالى « أزفت الآزفة » • وقوله تعالى « فطاف عليها طائف من ربك » وفى القرآن منه كثير •• وقد جمع بعض الشعراء فى أبيات نذكرها فى آخر هذا الفصل فيها أجناس من التجنيس (الثالث) تجنيس التصحيف وهو أن يكون النقط فرقا بين الكلمتين • ومنه قوله تعالى « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » • ومنه قول الشاعر

القابضون على العليا بكفهم ... والقابصون من الدنيا بأطراف
المحسبون اذا جد الفخار بهم ... والمحسنون اذا سيلوا بالحاف

(الرابع) تجنيس التحريف وهو أن يكون الحرف فرقا بين الكلمتين •• ومنه قوله تعالى « وهم ينهون عنه وينأون عنه » • وقوله تعالى « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » (الخامس) تجنيس التشكيل وهو أن يكون الشكل فرقا بين الكلمتين • ومنه قوله تعالى « ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » • وقوله

تعالى « ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى » •• ومنه قول بعضهم

أأنتم زعمتم أننى غير عاشق ... وأنى لا أعبا بين مفارقى
فلم قرحت يوم الوداع مدامعى ... ولم شاب من هول الفراق مفارقى

(وهذه) أبيات جمعت فيها أجناس من التجنيس التى تقدم ذكرها وهى

رب خود عرفت فى عرفات ... سلبتنى بحسنها حسناتى
ورمت بالجمار جمرة قلبى ... أى قلب يقوى على الجمرات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت ... من دموعى سوابق العبرات
حرمت حين أحرمت نوم عينى ... واستباحت حماى باللحظات
لم أنل فى منى منى النفس لكن ... خفت بالخيف أن تكون وفاتى

فقوله — عرفت فى عرفات — تجنيس مغاير وقوله — سلبتنى بحسنها حسناتى — مماثل وكذلك — وأفاضت ففاضت — وكذلك — حرمت وأحرمت — وكذلك — بالجمار والجمرات — وقوله — ولم أنل فى منى منى النفس — تجنيس التشكيل وقوله — خفت بالخيف — تجنيس مغاير (السادس) تجنيس العكس وهو أن تكون حروف الكلمتين غير مرتبة • مثاله من القرآن قوله تعالى « انى أخاف أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » وقد جاء فى الشعر أن يقدم حرفا فى كلمة ويؤخره فى أخرى •• ومنه قول حسان فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

تحمله الناقة الأدماء معتجرا ... بالبرد كالبدر غشى نوره الظلما

(السابع) تجنيس التركيب وهو أن يجمع بين اسمين أو اسم وفعل ثم يجعلهما كالكلمة الواحدة مثال الاسم مع الاسم — بعلبك • ومعدى كرب — ومثال الفعل مع الاسم حضر موت • ورام هرمز • وقد جاء فى القرآن العظيم « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » •• وفى الشعر كثير • من ذلك قول بعضهم

إن أسيافنا القضاب الدوامى ... جعلت ملكنا مديد الدوام
باقتسام الأموال من وقت سام ... واقتحام الاهوال من وقت حام

.. ومنه

بأبى غزالٌ نام عن وَصَبى به   وسُجوم دمعى فى الهوى وصبيبه

.. ومنه قول المتنبى

وشادنٍ قلتُ له   هلْ لك فى المنادَمه

فقال كم من عاشقٍ   سفكتُ بالمنى دَمه

ومنه فى الشعر كثير (الثامن) تجنيس التصريف وهو أن تنفرد احدى الكلمتين عن الأخرى بحرف مثل قوله تعالى « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » . ومثل قوله تعالى « وهم ينهون عنه وينأون عنه » . ومثل قوله « لتكونن أهدى من احدى الأمم » . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ـ الخيل معقود فى نواصيها الخير ـ .. ومنه قول الاعشى

ورأيتُ أنّ الشيبَ خا   نتهُ البشاشةُ والبشاره

(التاسع) تجنيس الترجيع وهو أن ترجع الكلمة بذاتها كما قال الله عز وجل « لقد أرسلنا رُسلنا بالبينات » . ومنه قوله عز وجل « إن ربّهمْ بهم يومئذٍ لخبيرٌ » . وقوله تعالى « ولكنّا كنّا مرسلين » .. ومنه قول الشاعر

وما مُنعتْ دار ولا عزّ أهلها   من الناسِ إلا بالقنا والقنابلِ

.. وقال المخبل

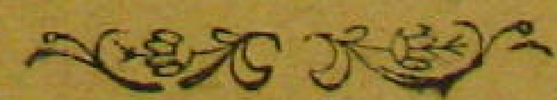
فأتتْ عليهِ ومالهُ من مالهِ   مما أفاءَ ولا أفادَ عناقُ

.. وقال آخر

عذيرى من دهرٍ مُوارٍ مُوارِبٍ   له حسناتٌ كلهنّ ذُنوبُ

.. ولأبى تمام

يمدّونَ من أيدٍ عَواصٍ عواصمٍ   تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ



القسم الثالث والعشرون

(التسهيل)

وهو أن يكون فى القافية ما يدل على الكلام أو فى أول الكلام ما يدل على القافية كقول أبى حية

اذا ما تقاضى المرء يومٌ وليلةٌ * تقاضاه دهرٌ لا يملّ التقاضيا

.. ومثله

فليس الذى حلّلتَهُ بمحلّلٍ   وليس الذى حرّمتَهُ بمحرّمِ

.. ومثله

هى الدرّ منثوراً اذاما تكلّمتْ   وكالدرّ منظوماً اذا لم تكلّمِ

القسم الرابع والعشرون

(الاتفاق والاطراد)

وهو أن يوفق شيئاً لا يتفق عاجلا مثل قول أبى تمام فى الغزل

لسلمى سُلامانٍ وعمرةَ عامرٍ   وهند بنى هندٍ وسعد بنى سعدِ

.. وقوله أيضاً يصف حصاناً

بحوافرٍ حُفرٍ وصُلبٍ صُلّبٍ   ومشاعرٍ شُعرٍ وخلقٍ أخلقِ

.. ومن ذلك أيضاً

حَمدان حَمدونٍ وحمدانُ حارثٍ   ولقمانُ لقمان ولقمان راشد

وهذه كلها تعسفات ليس فى القرآن العظيم منها شئ



﴿ فصل ﴾

وقد كان ينبغى أن يكون مقدماً فى أول الكتاب ذكر ما اشتق منه القرآن والسورة والآية والكلمة والحرف وبيان معانيها .. أما القرآن فاشتقاقه فيه قولان . أحدهما التتبع والجمع من قولهم قرأت الماء فى الحوض اذا تتبعته وجمعته فيه فهو جامع لما فى كتب الاولين المنزلة على سائر النبيين . والثانى أنه مشتق من الاظهار والبيان لأنه أظهر سائر العلوم المحتاج اليها من أمر الدين والدنيا وجمع بينها وكلاهما حسن والاول أظهر وقد يأتى القرآن بمعنى الصلاة فى مثل قوله تعالى « وقرآنَ الفجر » أى وصلاة الفجر وبمعنى القراءة .. وفى مرثية عثمان رضى الله عنه

ضحّوا بأشمطَ عنوانُ السجود به   يُقطّعُ الليلَ تسبيحاً وقرآنا

.. وأما السورة ففيها أربعة أقوال . الاول أنها سميت بذلك لعظمها وعلوّ شأنها من قولهم فلان سورة من المجد . الثانى سميت بذلك لكرمها وتمامها من قولهم لفلان سورة من الاهل أى أقوام كرام . الثالث أنها قطعة من القرآن واشتقاقها من السؤر الذى يفضل من الشارب وعلى هذا يكون أصلها الهمز وانما ترك لانضمام ما قبله فأبدلوا منه واواً . الرابع سميت سورة لأن قارئها ينتقل من منزلة فى الأجر الى منزلة أعلا منها .. قال الشاعر

ألم ترَ أنّ اللهَ أعطاكَ سُورةً   ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ

كأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ   اذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

ومعناه أعطاك منزلة فوق منازل الملوك وهو قول حسن .. وأما الآية ففيها أربعة أقوال . الاول أنها اشتقت من العلامة والآية علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها . الثانى أنها سميت بذلك لانها كلمات مجتمعة من القرآن من قولهم خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . الثالث الآية الرسالة والقصد .. قال الشاعر

ألا أبلغا هذا المعرضَ آيةً   أيقظانَ قال القولَ إذ قال أم حلمُ

معناه بلغاه رسالة والآية رسالة من الله الى نبيه وخلقه . الرابع انما سميت بذلك لانها

عجب لانها تشبه كلام البشر ولا يقدرون على الاتيان بمثلها من قولهم فلان آية من الآيات أى عجب وهو قول حسن .. وأما الكلمة فهى اللفظة الدالة على المعنى المفرد أو على معنيين أحدهما حقيقة والآخر مجاز وهى فى كتاب الله تعالى تطلق ويراد بها معان سبعة . أحدها كلمة التوحيد وهى لا إله الا الله . الثانى تطلق ويراد بها الشرك قال الله تعالى « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » يعنى الشرك « وكلمة الله هى العليا » يعنى كلمة الاخلاص والتوحيد . ومنه قوله تعالى « وجعلها كلمة باقيةً فى عقبه » قال مجاهد والسدّى هى قول لا إله الا الله . الثالث تطلق ويراد بها الوعد . ومنه قوله تعالى « ولولا كلمة سبقتْ من ربكَ » يعنى وعدهم الساعة . قال الله تعالى « بل الساعة موعدهم » . الرابع تطلق ويراد بها دعاء الله الخلق اليه . ومنه قوله تعالى « الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبدَ الا اللهَ » الآية . الخامس تطلق ويراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام . ومنه قوله تعالى « وكلمته ألقاها الى مريم وروحٌ منه » سماه كلمة لأنه أوجده بالكلمة وهى قوله « كن » . السادس تطلق ويراد بها القصة والقصيدة والعرب يقولون كلمة امرئ القيس يريدون قصيدته ويقولون خبرنا كلمة فلان يريدون قصته . وفى الحديث ـ واستحللتم فروجهن بكلمة الله ـ يعنى النساء كأنه يشير الى قوله تعالى « فامساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ باحسان » . السابع تطلق ويراد بها الكلمة الواحدة المفردة التى جمعها كلمات . والكلمات فى كتاب الله تعالى تأتى على ستة معان . الاول تطلق ويراد بها علم الله سبحانه وتعالى . ومنه قوله تعالى « لنفدَ البحرُ قبلَ أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » . الثانى يراد بها مواعيده سبحانه وتعالى . ومنه قوله تعالى « لا تبديلَ لكلمات الله » أى لا يُخلف لما وعد . الثالث تطلق ويراد بها الخصال . ومنه قوله تعالى « وإذ ابتلى ابراهيم ربُّه بكلمات فأتمهنّ » أى بعشر خصال من الطهارة معروفة . الرابع تطلق ويراد بها الاعتراف وطلب المغفرة . ومنه قوله تعالى « فتلقى آدمُ من ربه كلمات » وهى قوله تعالى « ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين » . الخامس تطلق ويراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام قاله الهروى فى قوله تعالى « وصدّقتْ بكلمات ربها » . السادس تطلق ويراد

بها القرآن . ومنه الحديث ـ أعوذ بكلمات الله التامات ـ يعنى القرآن قاله الهروى أيضاً وغيره .. وأما الحرف فله فى كتاب الله تعالى ولسان العرب محامل . أحدها اللغة يقال هذا حرف بنى فلان أى لغتهم . الثانى يطلق ويراد به معنىً من المعانى . ومنه الحديث ـ نزل القرآن على سبعة أحرف ـ أى على سبعة معان . الثالث يطلق ويراد به أحد القراآت وعليه حمل بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم نزل القرآن على سبعة أحرف . الرابع يطلق ويراد به الآية . ومنه الحديث ـ لكل حرف ظهر وبطن وحدٌّ ومطّلع ـ وفى رواية ـ ولكل آية منه ظهر وبطن وحد ومطّلع ـ . الخامس يطلق ويراد به الشك . ومنه قوله تعالى « ومن الناس من يَعبُدُ اللهَ على حرفٍ » أى على شك . وقال ابن عرفة معناه على غير طمأنينة . السادس يطلق ويراد به الجانب . ومنه قول ابن عباس ـ أهل الكتاب لا يأتون النساء الا على حرف ـ أى جنب . ومنه حرف الجبل جانبه . السابع الحرف الناقة .. ومنه قول كعب بن زهير

حرفٌ أخوها أبوها من مُهجّنةٍ وعمُها خالها قوداء شِمليلُ

. الثامن يطلق ويراد به أحد حروف الهجاء التى يجمعها أبجد

﴿ فصل ﴾

(فى ذكر اعجاز القرآن العظيم)

قد تكلم العلماء فى ذلك فقال قوم إعجازه من جهة ايجازه واحتواء لفظه القايل على المعانى الكثيرة مثل قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياةٌ » الآية . وقوله تعالى « اذ فزعوا فلا فوتَ » الآية . وقوله تعالى « فكلاًّ أخذنا بذنبهِ » الآية . وقوله تعالى « فاصدعْ بما تؤمر » . وقوله تعالى « وإما تخافنَّ من قومٍ خيانةً فانبذ اليهم على سَواء » . وقوله تعالى « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّا » . وقوله تعالى « ومن يُطع الله ورسوله ويخشَ اللهَ ويتقهِ فأولئكَ هُمُ الفائزون » . وقوله تعالى « لله الأمر من قبل ومن بعدُ » . وقوله تعالى « ألا لهُ الخلقُ والأمر » الآية وأشباهها كثير اذا تأملت

الكتاب العزيز وجدت فيه من هذا كثير .. وقد اعترض على هذا القول بأنه قد وجد فى السنة وكلام العرب ما لفظه قايل ومعناه كثير مثل قوله صلى الله عليه وسلم ـ الاعمال بالنيات والمجالس بالأمانات ـ . وأشباهه كثير .. وقال قوم إعجازه من جهة حسن تركيبه وبديع ترتيب ألفاظه وعذوبة مساقها وجزالتها وفخامتها وفصل خطابها .. وقال قوم اعجازه من غرابة أسلوبه العجيب واتساقه الغريب الذى خرج عن أعاريض النظم وقوانين النثر وأساجيع الخطب وانماط الاراجيز وضروب السجع .. وقد اعترض على هذا القول من وجوه . الاول لو كان الابتداء بالاسلوب معجزا لكان الابتداء باسلوب الشعر معجزاً . الثانى أن الابتداء باسلوب لا يمنع الغير من الاتيان بمثله . الثالث أن الذى تعاطاه مسيلمة من الحماقة فى معارضة « انا أعطيناكَ الكوثرَ » ـ والطاحنات طحناً ـ هو أسلوب فى غاية الفظاعة والركاكة وكان مبتدئا به ولم يُعد ذلك معجزاً . بل عُدَّ سُخفاً وحمقاً . الرابع لما فاضلنا بين قوله تعالى « ولكم فى القصاصِ حياةٌ يا أولى الالباب » وبين قولهم ـ القتل أنفى للقتل ـ لم تكن المفاضلة بسبب الوزن وانما تعلق الاعجاز بما ظهرت به الفضيلة . الخامس انّ وصف العرب القرآن بأنّ له لحلاوة وأنّ عليه لطلاوة لا يليق بالاسلوب .. وقال قوم اعجازه بمجموع هذه الوجوه الثلاثة وهذا الكلام يحتاج الى نظر لان مجموع هذه الأقسام الثلاثة انما تكون معجزة فى حق العرب خاصة لان الفصاحة والبلاغة فيهم جبلة وخلقة وهم فرسانها أصحاب قصبات السبق فيها الى الامد لا يباريهم فيها أحد ولا يجاريهم فى مضمارها جواد ولا يماريهم فى التفرد بها ممار ذو عناد قد ألقت الامم اليهم فيها مقاليد الاذعان وخفضوا لهم جناح الذل بما حصل لهم عندهم من العرفان فثبتَ لديهم أن أحداً لا يجاريهم فى هذا المضمار ولا يدانيهم فى اظهار ولا إضمار فجاءهم هذا الكتاب العزيز بقاصمة الظهر وفادحة القهر ودعوا الى المعارضة فلم يقدموا وندبوا الى المساجلة والمجاراة فأمسكوا وأحجموا وقرِّعوا بقوارع التوبيخ والتقريع فركبوا خُيول العجز واستلأموا فقامت الحجة عليهم بذلك وصحت المعجزة لديهم لحصول التحدى والعجز عن الاتيان بمثله .. وأما الأعاجم ومن يجرى مجراهم فلا تقوم عليهم بذلك حجة ولا تصح فيهم بذلك معجزة لانهم معترفون أن الفصاحة

ليست من شأنهم ولا مضمارها من حلبات ميدانهم والله سبحانه أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم الى الخلق كافة احمرهم واسودهم قال الله تعالى « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً » . وقال تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ولا يثبت إعجازه على الكافة الا بما يعزب على الكافة الاتيان بمثله مع اعترافهم بان فى مقدورهم من جنسه ولو جاء موسى لقومه بالفصاحة وعيسى لبنى اسرائيل بالبراعة لماقامت لهما على قومهما بذلك حجة . . وقال قوم انما وقع اعجازه بما فيه من المعانى الخفية والجلية وفنون العلوم النقلية والعقلية . . وأصحاب هذا القول لهم فى ذلك خمسة مذاهب منهم من قال اعجازه فيما جاء فيه من أخبار القرون السالفة فى الازمنة الخالية والأعصر الماضية فى الاماكن القاصية والدانية وقصص الانبياء مع أممها مما التمسوه منه مثل قصة أهل الكهف وقصة الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام وحال ذى القرنين ومما لم يسألوه عنه من قصص بقية الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين مع تحققهم أنه أمى لا يحسن الكتابة ولا تقدمت منه دراسة ولا سبقت منه رحلة ولا انتهت اليه نحلة ولم يكن بأرضه من يعلم الأخبار ويقتفى الآثار سوى أهل الكتاب الذين صرح بسبهم وأطلق لسانه فى ثلبهم وضلل عقولهم وهجن طريقهم وأظهر معائبهم ولو كان أحد منهم أطلعه على شىء ذلك أو اعلمه به لقابلوه بالافصاح فى الرد عليه ولملؤا الارض بالتشنيع والتقريع وحيث لم ينقل ذلك علم أنه لم يعلمه بشر وليس ذلك الا من جهة الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد مع أنه قد تعرض جماعة من سفهائهم فقالوا ما أخبر الله عنهم « انما يعلمه بشر » وكانوا يقولون انه سلمان الفارسى وغيره فرد الله سبحانه عليهم بقوله « لسان الذى يلحدون اليه أعجمىٌّ وهذا لسانٌ عربىٌّ مُبينٌ » . وقد اعترض على هذا القول بأنّ بعض سور القرآن ليس فيها شىء من ذكر القرون الماضية والاعصر الخالية وتلك السورة معجزة قد تحداهم الله بالاتيان بمثلها فلم يقدروا . . ومنهم من قال اعجازه بما فيه من الاخبار بما يكون وما كان مما وقع على حكم ما أخبر به مثل قوله تعالى « اذا جاء نصر الله » الى آخرها وقوله « لتدخلنّ المسجدَ الحرامَ ان شاء الله آمنين » . وقوله تعالى « آلم غلبتِ الروم » الآية وقوله « ليظهرهُ على الدّين كله ولو كره الكافرون » . وقوله

« وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » الآية . وقوله « قلْ انْ كانت لكم الدار الآخرة » الآيتان . وقوله « فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا » . . وقوله « انّا نحن نزلنا الذكرَ » الآية . وقوله « سيهزَمُ الجمعُ ويولون الدبرَ » . وقوله « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » الآية . وقوله « هو الله الذى أرسلَ رسولهُ بالهدى ودين الحقّ » . وقوله « لن يضروكم الا أذى » . . وقوله « منَ الذينَ هادُوا سماعونَ للكذبِ » . وقوله « يخفون فى أنفسهم » . . وقوله « ويقولون فى أنفسهم » . وقوله « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . وقوله « يعدُكم الله احدى الطائفتين » . وقوله انّا كفيناك المستهزئين » . وقوله « والله يعصمكَ من الناس » الى غير ذلك مما كشف به أخبار المارقين وأسرار المنافقين وكان جميعه كما أخبر وصدق الله ورسوله . وقد اعترض على هذا القول بأن بعض سور القرآن ليس فيها شىء من الاخبار بالمغيبات وتلك السور معجزة قد تحداهم الله بالاتيان بمثلها فلم يقدروا على ذلك وضاقت عليهم مع فصاحتهم المسالك . . ومنهم من قال اعجازه بما احتوى عليه من العلوم التى لم يسبق اليها أحد من البشر قبل نزوله ولا اهتدت اليها فطن العرب ولا غيرهم من الامم . . وقد اعترض على هذا القول بأنه قد وجد فى السنة وكلام العرب مثل هذا ولم يُعد معجزة . . ومنهم من قال إعجازه حصل بما فيه من نشاط القلوب الواعية وغير الواعية اليه واقبالها بوجه المودة عليه واستحلاء طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه وهشاشتها بما يتردد عليها من مبشراته المبهجة ومحذراته المزعجة وآياته المقلقة وأخباره المونقة مع كثرة قرعه للاسماع وصدعه بما يخالف الطباع ومع ذلك فالقلوب مقبلة على اذكاره راغبة فى تكراره شجية عند سماع مزماره يجد ذلك منهم البر والفاجر والمؤمن والكافر قال الله تبارك وتعالى « الله نزّلَ أحسن الحديث » الآية . . وروى أن نصرانياً مرّ بقارىء فوقف يبكى فقيل له مم بكاؤك قال الشجا والنظم . . وفى الحديث الذى وصف به النبى صلى الله عليه وسلم القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عبره ولا تفنى عجائبه هو الفصل ليس بالهزل لا تشبع منه العلماء ولا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الالسنة وهو الذى لم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا « انا سمعنا قرآناً عجباً » الآيات . . وقد اعترض على هذا

القول بأنه قد يوجد فى السنة وكلام فصحاء العرب وأشعار فحول الشعراء ما يحسن موقعه وتشرئب النفوس الى سماعه ولا تمله على تكراره . ومنهم من قال اعجازه بما يقع فى النفوس منه عند تلاوته من الروعة وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة وما يلحقها من الخشية سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة أو عالمة بما يحتويه أو غير عالمة كافرة بما جاء به أو مؤمنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو الحكم فهذه الغيبة لم تزل تعترى من سمعه وقد اعترت جماعة من الصحابة قبل الاسلام وبعده فمات منهم خلق كثير من المؤمنين وسلبت به عقول كثير من الموقنين وتدلهت به ألباب جماعة من المحسنين . وقد صح أن جبير بن مطعم قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية « أمْ خُلقوا من غير شىء أم هُمُ الخالقون » . الى قوله تعالى المسيطرونَ كاد قلبى أن يطير . وفى رواية أول ما وقر الايمان فى قلبى .. وروى أن عتبة بن ربيعة كلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم « حم فصِّلت » . الى قوله صاعِقَة مثلَ صاعِقَة عادٍ وثمودَ » فأمسكَ عتبة على فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم أن يكف . وفى رواية فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ وعتبة مُصغ مُلق بيده خلف ظهره معتمداً عليها حتى انتهى الى السجدة فسجد النبى صلى الله عليه وسلم وقام عتبة لا يدرى بما يراجعه ورجع الى أهله ولم يخرج الى قومه حتى أتوه فاعتذر اليهم وقال لقد كلمنى كلاماً ما سمعت أذناى بمثله قط فما دريت ما أقول له ومثل هذا كثير .. وأما من مات عند سماع تلاوة القرآن من المؤمنين وزال عقله وتدله من المحبين وراجع الامر من المذنبين العاصين فكثير لا يمكن حصره ولا يسعنا هاهنا ذكره فكتب الرقائق فيها من ذلك كثير .. وقد اعترض هذا القول بأن جماعة من أرباب القلوب وذوى الاستغراق فى بديع أوصاف المحبوب حصل له من سماع بعض الاشعار ما أخرجه عن طوره وربما مات على فوره .. وقال قوم اعجازه حفظ آياته من التبديل وصون كلماته من النقل والتحويل ولا يستطيع أحد أن يتحيف منه سمطاً ولا يزيده شكلا ولا نقطاً ولا يدخل فيه كلمة من غيره ولا يخرج منه أخرى ولا يبدل حرفاً بحرف وذلك من آياته

الكبرى وكم جهد أهل العناد فى ذلك فما قدروا له وما استطاعوا وكم قصدوا تحريفه فأبى الله ذلك فأذعنوا له وأطاعوا .. روى أنّ يهودياً تكلم فى مجلس المتوكل فأحسن الكلام وناظر فعلم أنه من جملة الاعلام وناضل فتحققوا أنه مسدد السهام فدعاه المتوكل الى الاسلام فأبى وأقام لفرط الاباء على مذهب الآباء بعد أن بذل له المتوكل ضروباً من الانعام وصنوفا من الرفعة والاكرام وراجعه فى ذلك مرة بعد أخرى فلم يزدهُ ذلك الاّ طغياناً وكفراً فغاب عنه مدة ثم دخل الى مجلسه وهو يعلن الاسلام ويدين دينه فقال له المتوكل أسلمت قال نعم قال ما سبب اسلامك فقال لما قطعت من عنقى قلادة التقليد وصرت من رتبة الاجتهاد الى مرتقى ما عليه مزيد نظرت فى الاديان وطلبت الحق حيث كان فأخذت التوراة فنظرت فيها وتدبرت معانيها وكتبتها بخطى وزدت فيها ونقصتُ ودخلت بها السوق وبعتها فلم ينكر أحد من اليهود منها شيئاً وأخذت الانجيل وزدت فيه ونقصت ودخلت به السوق وبعته فلم ينكر أحد من النصارى منه شيئاً وأخذت القرآن وقرأته وتأملته فاذا « انّا نحن نزّلنا الذّكرَ وانّا له لحافظون » فكتبت وزدت فيه ونقصت ودخلت به السوق وبعته فنظر فيه المسلمون فعرفوا المواضع التى زدت فيها ونقصت وردوا كل كلمة الى موضعها وكل حرف الى مكانه فعلمت أنه الحق لتحقيق وصفه بأنه كلام الله الذى لا يأتيهِ الباطلُ من بَين يدَيهِ ولا مِنْ خلفهِ تَنزيلٌ من حَكيمٍ حَميد فآمنت به وصدّقت ما جاء به

﴿ فصل ﴾

اختار القاضى عياض وجماعة أن الاعجاز الظاهر المتحقق انما هو فى الاربعة الاول حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادات العرب . الثانى صورة نظمه العجيب الاسلوب الغريب المخالف لاساليب كلام العرب . الثالث ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما أخبر . الرابع ما أتى به من اخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة وما عدى هذه الاربعة وما دلت عليه خصائص تفرّد بها وما تّر يستأثر بحصولها .. وقال قوم وجوه اعجازه ثمانية وقد

قدمناها فى الفصل الذى قبل هذا الفصل وزاد بعضهم على هذا ونقص آخرون .. وقال قوم اعجازه فى خروج الاتيان بمثله عن مقدور البشر .. وقال قوم اعجازه صرف الله خلقه عن القدرة على الاتيان بمثله ولولا ذلك لدخل تحت مقدورهم .. وقد اعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة . الاول أن عجز العرب عن المعارضة لو كان من أجل أن الله تعالى عجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحته بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم بعد أن كان مقدوراً لهم كما أن نبياً لو قال معجزتى أنى أضع يدى على رأسى هذه الساعة ويكون ذلك متعذراً عليكم ويكون الامر كما زعم لم يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه بل من تعذر ذلك عليهم ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسه بطل القول بالصرف . الثانى لو كان كلامهم مقاربا فى الفصاحة قبل التحدى لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدى وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدى وبين القرآن ولما لم يكن كذلك بطل ذلك . الثالث أن نسيان الصيغ المعلومة فى مدة يسيرة يدل على زوال العقل ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدى فبطل أن يكون الاعجاز بالصرف بل الاعجاز ليس بالصرف .. وكل واحد من هذه الاقوال يحتمل أن يكون معجزة اذا تحدى بها الرسول صلى الله عليه وسلم وعجزوا عن الاتيان بمثل ما تحدى به وسمى هذا القول معجزة لتعجيزه من رام معارضته والاتيان بمثله لانها اسم فاعل من أعجزت يقال أعجزت هذه القصة فهى معجزة .. والذى يتعين اعتقاده أن القرآن بجملة ألفاظه ومعانيه وبعضه وكله معجزة اما لسلب قدرتهم عن الاتيان بمثله واما لصرفهم عنه لأن النبى صلى الله عليه وسلم تحدى به وعرض عليهم الاتيان بمثله فعجزوا عن ذلك ولأن الله سبحانه أخبر انهم لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً أو عشر سوَر من مثله فعجزوا عن ذلك أو سورة منه أو آية لتحديه صلى الله عليه وسلم بها وعجزهم عن الاتيان بمثلها هذا الذى وقع عليه تصريح الكتاب وصريح الخطاب ولا مرية فى ذلك ولا خلاف ﴿ فان قال قائل ﴾ ان سورة من القرآن معجزة ومع هذا انها لم تحتو على جميع ما أودع القرآن من الايجاز وضروب

البيان وعذوبة المساق وغرابة الاسلوب والاخبار عن القرون السالفة فى الأعصر الماضية الى غير ذلك مما تقدم ذكره ﴿ فالجواب عنه ﴾ أن السورة من القرآن جامعة لجميع ما ذكرناه اما منطوق به أو مشار اليه ولهذا قال سبحانه وتعالى « فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » فما وقع التحدى الا بسورة منكرة أى سورة كانت فهذا دليل على أن القرآن العظيم قد احتوت أقصر سورة فيه من المعانى البديعة والفصاحة التى تسد بها عن معارضته الذريعة ونضرب لك مثالا ليتحقق عندك ما ذكرناه فنقول سورة الكوثر أقصر سورة وفيها من الالفاظ البديعة الرائقة التى اقتضت بها أن تكون مبهجة والمعانى المنيعة الفائقة التى اقتضت بها أن تكون معجزة أحد وعشرون ثمانية فى قوله « انا أعطيناك الكوثر » وثمانية فى قوله « فصل لربك وانحر » وخمسة فى قوله « إن شانئك هو الأبتر » أما الثمانية التى فى قوله « انا أعطيناك الكوثر » فالاول ان قوله « انا أعطيناك الكوثر » دل على عطية كثيرة مسندة الى معط كبير ومن كان كذلك كانت النعمة عظيمة عنده وأراد بالكوثر الخير الكثير ومن ذلك الخير الكثير ينال أولاده الى يوم القيامة من أمته . جاء فى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه - النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم - ومن الخير الذى وعد به ما أعطاه الله فى الدارين من مزايا التعظيم والتقديم والثواب ما لم يعرفه الا الله . وقيل ان الكوثر ما اختص به من النهر الذى ماؤه أحلى من كل شىء وعلى حافاته أوانى الذهب والفضة كالنجوم أو كعدد النجوم .. الثانية أنه جمع ضمير المتكلم وهو يشعر بعظم الربوبية .. الثالثة انه بنى الفعل على المبتدأ فدل على خصوصية وتحقيق على ما بينا فى باب التقديم والتأخير .. الرابعة انه صدر الجملة بحرف التوكيد الجارى مجرى القسم .. الخامسة انه أورد الفعل بلفظ الماضى دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة ودلالة على أن المتوقع من سيب الكريم فى حكم الواقع .. السادسة جاء بالكوثر محذوف الموصوف لأن المثبت ليس فيه ما فى المحذوف من فرط الابهام والشياع والتناول على طريق الاتساع .. السابعة اختيار الصفة المؤذنة بالكثرة .. الثامنة أتى بهذه الصفة مصدرة باللام المعروف

بالاستغراق لتكون لما يوصف بها شاملة وفى اعطاء معنى الكثرة كاملة .. وأما الثمانية التى فى قوله « فصلّ لربك وانحر » فالاول فاء التعقيب هاهنا مستفادة من معنى التسبب لمعنيين . أحدهما جعل الأنعام الكثيرة سبباً للقيام بشكر المنعم وعبادته . الثانية جعله لترك المبالاة بقول العدو فان سبب نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال ان محمداً صنبورٌ ــ والصنبور ــ الذى لا عقب له فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه السورة . الثالثة قصده بلأمر التعريض بذكر العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله وتثبيت قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم واخلاصه العبادة لوجهه الكريم . الرابعة أشار بهاتين العبادتين الى نوعى العبادات أعنى الاعمال البدنية التى الصلاة قوامها والمالية التى نحر الابل سنامها للتنبيه على ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختصاص فى الصلاة التى جُعلت فيها قرة عينه ونحر الابل التى همته فيه قوية . رُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مائة بدنة فيها جمل فى أنفه بُرَةٌ من ذهب .الخامسة حذف اللام الأخرى لدلالة الاولى عليها . السادسة مراعاة حق السجع الذى هو من جملة صنعة البديع اذا ساقه قائله مساقاً مطبوعا ولم يكن متكلفاً . السابعة قوله ــ لربك ــ فيه حسنان . وروده على طريق الالتفات التى هى أم من الامهات . وصرف الكلام عن لفظ المضمر الى لفظ المظهر وفيه اظهار لكبرياء شأنه واثباته لعز سلطانه ومنه أخذ الخلفاء ــ يأمرك أمير المؤمنين بكذا ــ وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين خطب الازدية الى أهلها فقال خطب اليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم . الثامنة علّم بهذا أن من حقوق الله التى تعبد العباد بها انه ربهم ومالكهم وعرّض بترك التماس العطاء من عبد مربوب ترك عبادة ربه .. وأما قوله جل جلاله ــ انّ شانئك هو الابتر ــ ففيه خمس فوائد . الأولى انه علل الامر بالاقبال على شأنه وترك الاحتفال بشانيه على سبيل الاستئناف الذى هو حسنٌ حسنُ الموقع وقد كثرت فى التنزيل مواقعه . الثانية ويتجه أن نجعلها جملة الاعتراض مرسلة ارسال الحكمة الخاتمة الاغراض كقوله تعالى « إنّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ » وعنى بالشانئ العاص بن وائل . الثالثة انما لم يسمه باسمه

ليتناول كل من كان فى مثل حاله . الرابعة صدّر الجملة بحرف التوكيد الجارى مجرى القسم وعبر عنه بالاسم الذى فيه دلالة على انه لم يتوجه بقلبه الى الصدق ولم يقصد بلسانه الافصاح عن الحق بل نطق بالشنآن الذى هو قرين البغى والحسد وعين البغضاء والحرد ولذلك وسمه بما ينبئ عن الحقد . الخامسة جعل الخبر معرفة وهو الابتر والشانئ حتى كأنه الجمهور الذى يقال له الصنبور . ثم هذه السورة مع علو مطالعها وتمام مقطعها واتصافها بما هو طراز الامر كله من مجيئها مشحونة بالنكت الجلائل مكتنزة بالمحاسن غير القلائل فهى خالية عن تصنع من يتناول التسكيت ويعمل بعمل من يتعاطى بمحاجته التبكيت (قال المصنف عفا الله عنه) والاقرب من هذه الاقاويل الى الصواب قول من قال ان اعجازه بحراسته من التبديل والتغيير والتصحيف والتحريف والزيادة والنقصان فانه ليس عليه ايراد ولا مطعن (وقال بعض العلماء) ان اعجازه انما وقع بكون المتكلم به عالماً بمراده من كل كلمة وما يليق بها وما ينبغى أن يلائمها من الكلام وما يناسبها فى المعنى لا يختفى عنه ما دق من ذلك وما جل ولا مصرف كل كلمة ولا مآلها وغير الله تعالى لا يقدر على ذلك لأنه أحاط بكل شئ علماً وأحصى كل شئ عدداً وهذا القول من الاقوال التى لا مطعن عليها .. وقد عدد العلماء وجوهاً من اعجازه غير ما ذكرناه الاولى أن تعد من خصائصه (وقال قوم) اعجازه من جهة أن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة قائمة بالذات وان العرب اذا تحدوا بالتماس معارضتهم له والاتيان بمثله أو بمثل بعضه كلفوا ما لا يطاق . ومن هذه الجهة وقع عجزهم . وهذا القول أيضاً حسن والله أعلم

﴿ فصل ﴾

فيما احتوى عليه هذا الكتاب العزيز من تلوين الخطاب ومعدوله وفنون البلاغة وضروب الفصاحة وأجناس التجنيس وبدائع البديع ومحاسن الحكم والامثال مفصلا ومجملا خاطب العرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم والخطاب

الوارد عليهم ينقسم الى قسمين باق على أصل مدلوله وموضوعه ومعدول به عن حقيقته الى مسموعه والمجموع ما عدل ومالم يعدل مائة وعشرون قسما (الاول) خطاب عام وهو ما أريد به جميع من يعقل مثل قوله تعالى « واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين » وقوله « والله خلقكم وما تعملون » . (الثانى) خطاب خاص بلفظ عام كقوله تعالى « أكفرتم بعد ايمانكم » وقوله تعالى « هذا ما كنزتم لانفسكم » . (الثالث) خطاب الجنس مثل قوله تعالى « يا أيها الناس » . (الرابع) خطاب النوع مثل قوله تعالى « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ويريد بنى آدم من صلبه خاصة وقوله تعالى « يابنى اسرائيل » . (الخامس) خطاب العين كقوله تعالى « يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . يانوح اهبط بسلام منا . يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا » . (السادس) خطاب المدح مثل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » . (السابع) خطاب الذم كقوله « يا أيها الذين كفروا » . (الثامن) خطاب الكرامة كقوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ » . (التاسع) خطاب الاهانة كقوله تعالى « انك رجيم » . (العاشر) خطاب الجمع بلفظ الواحد كقوله تعالى « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » . (الحادى عشر) خطاب الواحد بلفظ الجمع كقوله تعالى « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » خاطب بذلك النبى صلى الله عليه وسلم بدليل قوله « واصبر وما صبرك الا بالله » . ومنه قوله تعالى « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » خاطب بذلك أبا بكر رضى الله عنه حين حرم مسطحاً رفده حين تكلم فى حديث الافك (الثانى عشر) خطاب الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى « القيا فى جهنم كل كفار عنيد » والخطاب لمالك خازن النار تقديره ألق ألق وقد سمع عن بعض العرب ياحرسى اضربا عنقه وقد حمل بعض الائمة قول امرئ القيس

* قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل *

على هذا الحمل (الثالث عشر) خطاب العين والمراد به الغير كقوله تعالى يخاطب به

النبى صلى الله عليه وسلم « لئن أشركت ليحبطن عملك » والمراد به أمته . الرابع عشر الخروج بخطاب الحضرة الى الغيبة مثل قوله تعالى « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » . الخامس عشر الخروج من الغيبة الى الحضور كقوله تعالى « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » . وقوله تعالى « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » . السادس عشر خطاب التحنن مثل قوله تعالى « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » الى قوله « تشعرون » . السابع عشر اطلاق اسم العلم على المعلوم . الثامن عشر اطلاق المعلوم على العلم . التاسع عشر اطلاق القدرة على المقدور . العشرون اطلاق اسم الارادة على المراد . الحادى والعشرون اطلاق اسم المراد على الارادة . الثانى والعشرون اطلاق اسم الفعل على أول جزء منه وعلى آخر جزء منه . الثالث والعشرون اطلاق اسم الأمل على المأمول . الرابع والعشرون اطلاق اسم الوعد والوعيد على الموعود . الخامس والعشرون اطلاق اسم العقد والعهد على الملتزم بهما . السادس والعشرون اطلاق اسم البشرى على المبشر به . السابع والعشرون اطلاق اسم القول على المقول . الثامن والعشرون اطلاق اسم النبأ على المنبأ به . التاسع والعشرون اطلاق الاسم على المسمى . الثلاثون اطلاق اسم الكلمة على المتكلم . الحادى والثلاثون اطلاق اسم اليمين على المحلوف عليه . الثانى والثلاثون اطلاق اسم الحكم على المحكوم به . الثالث والثلاثون اطلاق العزم على المعزوم عليه . الرابع والثلاثون اطلاق اسم الهوى على المهوى . الخامس والثلاثون اطلاق اسم الخشية على المخشى . السادس والثلاثون اطلاق المحب على المحبوب . السابع والثلاثون اطلاق اسم الظن على المظنون . الثامن والثلاثون اليقين على المتيقن . التاسع والثلاثون اطلاق اسم الشهوة على المشتهى . الاربعون اطلاق اسم الحاجة على المحتاج . الحادى والاربعون اطلاق اسم السبب على المسبب . الثانى والاربعون اطلاق اسم الكتابة على الحفظ . الثالث والاربعون اطلاق اسم السمع على القبول . الرابع والاربعون اطلاق اسم الايمان على ما نشأ عنه . الخامس والاربعون اطلاق اسم المسبب على السبب . السادس والاربعون اطلاق

اسم العقوبة على الاساءة . السابع والاربعون اطلاق اسم الأكل على الأخذ . الثامن والاربعون اطلاق اسم الغلبة على المقاتلة التي هي سبب عنها . التاسع والاربعون اطلاق اسم الرجز والرجس على عبادة الاصنام . الخمسون اطلاق اسم المغفرة على التوبة . الحادى والخمسون اطلاق اسم الكبرياء على الملك . الثانى والخمسون اطلاق اسم القوة على السلاح . الثالث والخمسون اطلاق اسم الاعطاء والايتاء على الالتزام . الرابع والخمسون اطلاق اسم الفعل على غير فاعله . الخامس والخمسون اطلاق اسم الفعل على سببه . السادس والخمسون اطلاق اسم الفعل على الامر به . السابع والخمسون اطلاق اسم البعض على الكل . الثامن والخمسون اطلاق اسم الكل على البعض . التاسع والخمسون اطلاق اسم القيام على الصلاة . الستون اطلاق اسم الركوع عليها . الحادى والستون اطلاق اسم السجود عليها . الثانى والستون اطلاق اسم القراءة عليها الثالث والستون اطلاق اسم التسبيح عليها . الرابع والستون اطلاق اسم الذكر عليها الخامس والستون اطلاق اسم الاستغفار عليها . السادس والستون اطلاق اسم الذقن على الوجه . السابع والستون اطلاق اسم الانف على الوجه . الثامن والستون اطلاق اسم الرقبة على الجملة . التاسع والستون اطلاق اسم اليدين على الجملة . السبعون اطلاق اسم اليمين على الجملة . الحادى والسبعون اطلاق اسم العضد على الجملة . الثانى والسبعون اطلاق اسم الاصابع على الارجل . الثالث والسبعون اطلاق اسم الوجه على الجملة . الرابع والسبعون اطلاق اسم بعض الرأس على الرأس . الخامس والسبعون اطلاق اسم بعض الاذن على الاذن . السادس والسبعون وصف الوجه بالخشوع والخشوع انما يكون في القلوب . السابع والسبعون وصفها بالرضى . الثامن والسبعون وصف الجميع بما هو وصف البعض . التاسع والسبعون اطلاق اسم الفعل على مقاربه ومساوقه . الثمانون اطلاق اسم الفعل على ما كان عليه . الحادى والثمانون اطلاق اسم الشئ على ما يؤل اليه . الثانى والثمانون اطلاق اسم المتوهم على المتحقق . الثالث والثمانون اطلاق اسم الشئ على ما يظنه الناظر وهو على خلافه . الرابع والثمانون التعبير بالاذن عن المشيئة . الخامس والثمانون اطلاق اسم الشئ على ما لازمه . السادس والثمانون اطلاق

اسم الحال على المحل . السابع والثمانون اطلاق اسم الافواه على الألسن . الثامن والثمانون التعبير بالألسنة عن اللغات . التاسع والثمانون اطلاق ترك الكلام على الغضب . التسعون التعبير بالاياس عن العلم . الحادى والتسعون التعبير بالدخول عن الوطء . الثانى والتسعون اطلاق اسم الاسد على الشجاع . الثالث والتسعون اطلاق اسم الفوز والحياة على الايمان . الرابع والتسعون اطلاق اسم الظلمة والموت على الجهل . الخامس والتسعون اطلاق اسم السراج والنور على الهادى . السادس والتسعون اطلاق اسم الحطب على النميمة . السابع والتسعون اطلاق اسم الانسان على تمثاله . الثامن والتسعون التجوز بالماضى عن المستقبل . التاسع والتسعون التجوز عن الماضى بالمستقبل . المائة اطلاق اسم الخبر عن النهى . الحادى بعد المائة اطلاق لفظ الخبر عن الدعاء . الثانى بعد المائة اطلاق الامر على الخبر . الثالث بعد المائة توكيد الخبر . الرابع بعد المائة التجوز بجواب الشرط عن الامر . الخامس بعد المائة التجوز بلفظ النهى عن أشياء ليست مرادة بالنهى وانما يراد بها ما يقاربها ويلازمها . السادس بعد المائة التجوز بالنهى لمن لا يصح نهيه وانما المراد به من يصح نهيه . السابع بعد المائة التجوز بنهى من يصح نهيه والنهى فى الحقيقة غيره . الثامن بعد المائة التجوز بهل عن الامر والنهى والتقرير . التاسع بعد المائة التجوز بهمزة الاستفهام عن الامر والايجاب والتقرير والتوبيخ . العاشر بعد المائة التجوز بفى ويتجوز بها فى مواضع قد تقدم ذكرها فى فصل المجاز . الحادى عشر بعد المائة التجوز بعلى ويتجوز بها فى مواضع مضى ذكرها فى باب المجاز عن عن وهى حقيقة مجاوزة جرم عن جرم ويتجوز بها فى المعانى وقد تقدم ذكره . الثانى عشر بعد المائة التجوز بمن وهى حقيقة فى ابتداء الغاية فى الامكنة ويتجوز بها عن ابتداء الغاية فى الازمنة . الثالث عشر بعد المائة حرف ثم وتستعمل حقيقة فى التراخى المعنوى ومجازاً فى التراخى الزمانى . الرابع عشر بعد المائة حرف – ما – قال سيبويه هى للاصناف والاخلاط وهى حقيقة فى الاجرام وتجوّز فى المعانى . الخامس عشر بعد المائة حرفا – لعل وعسى – وحقيقتهما الترجى والتوقع ويتجوز بهما فى الايجاب

فهذه مائة وخمسة عشر قسما اذا حررت بتفاصيلها جاوزت المائة وعشرين نوعا بل أكثر من ذلك وقد ذكرناها مفصلة معينة بشواهدها من الكتاب العزيز والكلام الفصيح وأشعار العرب والمخضرمين والمتأخرين ونسأل الله العون والصون والتوفيق الى ما يقربنا اليه ويزلفنا لديه والله الموفق لا رب غيره ولا يستعان بسواه ..

يقول مصححه عفا الله عنه

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى (وبعد) فقد تم بعون
الله وحسن توفيقه طبع كتاب (الفوائد المشوق الى علوم القرآن
وعلم البيان) لمؤلفه شيخ الاسلام علي التحقيق ناصر
السنة قامع البدع شمس الدين أبي عبد الله محمد
المعروف بابن قيم الجوزية وهو كما ترى لم يؤلف فى
بلاغة القرآن مؤلف على مثاله ولم تنسج
يد ناسج على منواله . وكان طبعه
الزاهى الزاهر بمطبعة (السعادة)
بمصر والحمد لله الذى بنعمته تتم
الصالحات والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وآله
وصحبه ما تعاقبت
الاوقات

فهرست كتاب الفوائد المشوق الي علوم القرآن وعلم البيان

﴿ الكلام على ما يختص بالمعانى وينقسم الى أقسام ﴾

﴿ الكلام على ما يتعلق بالالفاظ من الفصاحة وينقسم الي أقسام ﴾

(تم الفهرس)

